مي زياده

كلمات وإشارات

(٢)

محاضرات - خطب ومقالات جديدة لم تنشر

١٩٢٢ - ١٩٤٠

مؤسسة نوفل
بيروت - لبنان

الكلمات والإشارات

(٢)

محاضرات - خطب ومقالات جديدة النشر

١٩٢٢ - ١٩٤٠

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

© مؤسسة نوفل ش.م.م.
بيروت - شارع المعماري - بناية نوفل - ص.ب. ٢١٦١ - ١١
تلفون: ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤ - تلكس: نوشتن ٢٢٢١٠ لبنان

المقدمة

عرف محبو الأدب مي زيادة منذ أن برزت في مصر كاتبة مقال ، وخطيبةً ، وباحثة ، وكاتبة سيرة ، في الثلث الأول من القرن العشرين ، وظلت مؤلفاتها المنشورة منهلاً ثرّاً للقراء والباحثين حتى يومنا هذا ، لما فيها من أفكار جديدة ، وبيان ناصع ، وأسلوب جزل ، وروح سامية . وأنه ليسعدني كثيراً أن أضيف إلى أعمالها المطبوعة كتاباً جديداً يضمّ مجموعة خطبها ومحاضراتها ومقالاتها التي نشرت في مختلف الصحف العربية والمجلات ما بين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٤٠ . ويسعدني أكثر أن أنفذ بهذا العمل « وصية »[1] ميّ التي دونتها بخطها في خريف عام ١٩٣٥ وحالفني الحظ بالعثور عليها مع العديد من الوثائق ، فأجمع آثارها الأدبية المبعثرة وامنحها العنوان الذي رغبت هي باطلاقه عليها إذ جاء في وصيتها ما يلي :

(... تابع إرادتي

أكتب اليوم الخميس ٣ اكتوبر فقد تفقدت أوراقي المطبوعة ووجدت الكثير منها قد سُرق ، وتركت لي عدة صحائف كانت ملتصقة بأعداد الصحف الحاوية للخطب والمقالات ، ولا معنى لهذه الصحائف منفصلةً عن صحفها . وكنت قد راجعت هذه الصحف منذ شهور قلائل لأني كنت أُعدّ ما فيها لطبع الجزء الثاني من كتابي « كلمات وإشارات ») .

لقد عكفت منذ بضع سنوات على جمع الوثائق والمنشورات المتصلة بحياة هذه الأديبة الكبيرة ووجدت أن واجب الوفاء لها يدعوني إلى تنفيذ ارادتها ، كما أن واجبي حيال تأريخ الأدب العربي الحديث يفرض علي جمع هذه النصوص الأدبية وتحقيقها وتقديمها للقراء والباحثين . وسوف يلحظ القارئ لدى مطالعة الخطب

(١) سوف أنشر هذه الوصية بكاملها ، مع صورة عنها في الكتاب الذي أعدّه عن حياة مي وآثارها والذي سيصدر في نهاية هذه العام بإذن الله وبعنوان : « مي زيادة ومأساة النبوغ » .

والمقالات المدرجة في هذا الكتاب ، ابتداءاً بخطابيّ ميّ اللذين ألقتهما في دمشق ثم في بيروت عام ١٩٢٢ ابان حفلات التكريم التي أقامتها لها الأندية الأدبية والثقافية فيهما ، وانتهاءاً بالمحاضرة التي ألقتها في بهو الجامعة الاميركية في القاهرة عام ١٩٣٩ ، وبمقالتها الرائعة « تحية الربيع » التي كتبتها من وحي أحداث الحرب العالمية الثانية في ربيع عام ١٩٤٠ ، أن أدب ميّ حافظ حتى نهاية حياتها على طابعه المميّز وأنه كان يسير في درب الصعود والشمول والإجادة .

ونحن اليوم عندما نقرأ لمي محاضرات هذا الكتاب الثلاث[1] : « دروس من الصحراء » و« رسالة الأديب إلى المجتمع العربي » و« حاجتنا إلى ثقافة اجتماعية » نشعر أننا نقرأ لكاتبة عظيمة ، ومفكرة رائدة تدعو إلى اليقظة وتخاطب الجماهير بأهم الموضوعات المتصلة بحياتها وطموحاتها حاضراً ومستقبلاً . وعندما نقرأ خطابها : « الحركتان الصالحتان » الذي ختمته قائلة : « أريد أن أحيا رغم الجراح والآلام لأكون في حياة وطني الناهض حياة » ، وخطابها الذي ألقته أمام لجنةالاحتفال بعيد المقتطف الخمسيني في القاهرة عام ١٩٢٥ ، وخطبها الثلاث : « كيف أريد الرجل أن يكون » و« الغرائز السيكولوجية الثلاث » و« الانسان كائن روحيّ » نمتلىء اعجاباً بنبوغ ميّ ، وثقافتها المتينة ، وتقديسها لرسالة المرأة والرجل في الأسرة والمجتمع والعالم . وعندما نطالع مقالاتها الوجدانية التي كتبتها بشغاف قلبها الكبير وسويدائه ، واستلهمتها من حبها الكبير لجبران خليل جبران واختارت لها العناوين التالية : « نشيد إلى ينابيع روما » و« أتعرف الشوق والحنين » و« هوذا الربيع » نجد أنفسنا أمام لوحات شعرية يهتز لها القلب ، وتسمو بها الروح ! وعندما نمعن النظر فيما كتبته في رثاء أعلام عصرها كالدكتور يعقوب صروف ، والزعيم سعد زغلول ، والكاتب والصحفي الكبير داود بركات فإننا ننتشي بنفحات أدبية وقومية دبجتها يراعة كاتبة موهوبة ، وأملتها مشاعر انسانة نبيلة .

ويتضمن هذا الكتاب إحدى قصائد مي الفرنسية مترجمة إلى العربية « نشيد إلى الشرق بقلم الاستاذ « جورج نيقولاوس » ، ومقالات لميّ عالجت فيها موضوعات مختلفة مثل : « نداء إلى جبل الدروز » ، و« الجزء الأول من المقتطف بعد صروف »

---

(١) أشارت المصادر التي راجعتها والرسائل المخطوطة التي في حوزتي إلى أن مي ألقت محاضرة أخرى في الجامعة الاميركية بالقاهرة في ١٥ كانون الأول عام ١٩٣٥ بعنوان « عشّ في خطر » غير أنني لم أوفق بالعثور على نصّها .

و« حياتنا الجديدة » و« كلمات في الصداقة » تجلو لنا شخصية ميّ الأديبة الرائدة ، ومثاليتها إلى جانب إدراكها العميق للنفس الانسانية . وأما دراستاها « الفن والأدب في حضارة مصر اليوم » و« امبيرجالوا ، من آثار هوجو » فإنهما تدلان على مقدرتها في البحث والتحليل والعرض والنقد ، كما أن مقالتها «مساجلة الرمال » التي نشرتها في مجلة الرسالة يوم عيد رأس السنة الهجرية لعام ١٣٥٤ دليل آخر على شمول ثقافتها وعمق مداركها إذ أرسلت فيه تحية صادقة لفتى الصحراء ، النبي العربي صاحب الرسالة الاسلامية ، وأعربت عن إعجابها الكبير به .

وأخيراً نجد لمي قصتين « الشمعة تحترق » و« السر الموزّع » وهما محاولتان في كتابة القصة القصيرة التي لم تكن يومئذٍ مطروقة في الأدب العربي بما يتلاءم مع فنها وقواعدها .

والآن وقد أضحى هذا الكتاب بين يدي القراء فإني أعقد عليه أملين : الأول أن يكون بمثابة ضوء جديد على رسالة ميّ الأديبة التي نذرت لها حياتها حبًّا بالعلم والوطن والأدب ، وحرصاً على نهضة لغةٍ ومجتمع ، وأمةٍ عربية كانت تفاخر بالانتماء إليها ، والثاني أن أكون قد أسديتُ بجمعه ونشره خدمةً للطلاب والباحثين تسّهل مهماتهم الدراسية ، وقدمتُ للقراء صفحات من أدب مي تلذّ مطالعتها .

سلمى الحفار الكزبري

الاحتفال بالنبوغ

(ذهبت الكاتبة النابغة الآنسة ماري زياده (مي) مع والديها الكريمين لقضاء فصل الصيف في ربوع لبنان فرحَّبت بهم جرائد سورية ولبنان اعظم ترحيب . وكان كثيرون قد دعوها لزيارة وطنها الأول فاحتفلوا بها حيث حلّت ولا سيما في سوق الغرب وعيناب وزحلة وبعلبك ودمشق وبيروت وكان ارباب الاقلام يقابلونها فيها بالخطب والقصائد مثبتين بذلك ان في الشرق نهضة فكرية بعيدة المدى ومقامًا لِلأَدَب رفيعًا في النفوس . وقد بلغنا أن أحد الادباء عُني بجمع كل ما قيل في تلك الحفلات لينشرهُ في كتاب واحد . ولقد كانت الآنسة مي تجيب المحتفلين بها بما يعهد فيها من بلاغة العبارة وسعة التخيل وحسن التعليل . وقد وقفنا الآن على خطبتين من خطبها الواحدة ألقتها في حفلة دمشق والثانية في حفلة الجامعة الاميركية في بيروت فنشرناهما هنا مع الشكر الجزيل لها وللذين اكرموها)[1] .

الأولى كلمتها في حفلة دمشق (١٠/١٠/١٩٢٢)

حلمت في هذه المدينة احلام الطفولة الأولى . ولما كنتُ هناك في وادي النيل أُغمض عينيَّ لاستعيد ذكرى فردوس طفولتي كنتُ أُدركُ انَّ من عرف دمشق صغيرا حفظ كيانهُ من جمالها اثراً ليس يمحى . ثم علَّلْتُ النفس بالعودة هذه السنة لاسمع هدير انهارها ، مُستأنسةً بلطف اهلها ، مراجعة تاريخها الطويل في الشوارع والحجارة والابنية ، مستوحيةً في الأخربة والآثار روح العظمة الأمويَّة ومجد صلاح الدين .

(١) المقتطف ــ ج ٦١ ــ عدد ديسمبر ١٩٢٢ ص . ٤٤٣ــ٤٥٠ .

وها اناذا في دمشق ، ايها السادة والسيدات ، فإذا بالمياه قد اضافت إلى حكايتها الدهرية حديثًا سريًّا طريفًا . ها انا ذا في دمشق وكأنَّ الأشجار تخبرني عما شهدتهُ السبلُ من تفجّعٍ وعمَّا اظلَّتهُ الغصون من رجاء .

ها اناذا في دمشق وكأني أُبصر في الاخربة والآثار روح العز القديم تتململُ فترى اعجوبة التجدُّد في الشعب الواحد المقيم في المكان الواحد . ها اناذا في المدينة الارامية الكبرى ، عاصمة الملوك والخلفاء والفاتحين ، حاضرة هذه البلاد التاريخية وآية الجمال في الصحراء ولكنني اشعر بأني ، خصوصاً في دمشق الجديدة ، في الفيحاء ، الفتاة التي تستجمعُ قواها بعد الجراح والالآم ، وتتحفز للنهوض والصعود نحو قمّة الارتقاء . ولئن تعاون الكرم منكم وحبّ تشجيع العلم في جعل هذا المساء لي عيداً ، فقد اريتموني فيهِ رموزاً طالما تقتُ الى حقيقتها .

ففي اتحاد الاندية أرى رمزاً لاتحاد الامة . وفي ارتفاع صوت المرأة قرب صوت الرجل أرى دليلاً على تنبُّهِ الكرامة فيها واستعداد الرجل لمساعدتها والاعتراف بحقوقها . وفي اتفاق المحمدي والعيسوي على الترحيب بأختٍ سوريّة آتية من بعيد ، أرى عنواناً لمحو فروق المذاهب ومتانة الوحدة القومية

هذا مظهر من وطنيتكم السامية ، وانما هو الذي يوحي اليّ ان اخاطبكم بما يجول الساعة في نفوسكم : لكم عائلة فرقُّوها بترقية المرأة وإصلاح الرجل . لكم صناعة وتجارة وزراعة فحسنوها ما استطعتم ولا تيأسوا امام الفشل المهذّب . لكم ماض عظيمٌ فكونوا له اهلاً بتهيئة مستقبل عظيم . لكم فنٌّ شرقي ، وروح شرقي ، ولغة شرقية فحسنوها وروجوها ــ لا تعصباً ولا تعنُّتاً ــ بل ليكون لكم اثر نفيس في متحف الثروة الانسانية . لكم دين وعقيدة فاطلقوا الحرية فيهما بين الخالق والمخلوق ، ودعوا

المؤذنين والنواقيس ترفعَ نحو الخالق انشودة الخلود ، بينما انتم ترددون انشودة الحياة قائلين : الله اكبر ونحن ابناء قومية واحدة .

بهذه الكليمات اودعكم ، ايها السادة والسيدات ، شاكرة لأهل دمشق ما لاقيتهُ عندهم من لطف الضيافة ، شاكرةً للاندية الكريمة هذا الاجتماع الفخم الذي ضمَّني وجمهوراً كبيراً من اخواننا واخواتنا . شاكرة للخطباء والشعراء ما جادت به قرائحهم الوقادة في تجميل ذكري . شاكرة للصحافيين والادباء كل كلمة طيبة كتبوها عني او وجهوها اليّ . وكنت اودُّ ان اتشرف ووالديّ بتأدية الواجب لجميع الذين تفضلوا وزارونا من سادة وسيدات ، ولكن الوقت قصير يحول دون قضاء هذا الواجب المستحب . فارجو قبول شكري الحار ، واسفي ، واعتذاري لأن سفرنا قريب جداً .

اودعكم مرة اخرى ايها السادة والسيدات . بالامس كنت اذا ذكرت دمشق تصورتها طاقة خضراء وسط الصحراء يتخللها هدير الانهار . اما الغد فاذا ذكرت فيه دمشق تصورتها تلك الطاقة الخضراء يتخللها هدير الانهار وقد تجلّى فوقها قلب دمشق الفتاة الذي خلتهُ الليلة يتأجّج ناراً ويتألق نوراً فلتحيَ دمشق الفتاة ! !

مي

الثانية كلمتها في جامعة بيروت وموضوعها
كولمبوس وفتح اميركا

هوذا الرجل الذي يريد تحقيق مالم يسبقهُ اليهِ احد . للناس جميعاً أطماع ومآرب : فهذا يسعى الى الثروة ، وذاك يشوق الى الحبّ ، وذلك يرغب في السؤدد والتفوق . القائد يبغي فتح المدينة ظافراً ، والملك يسرُّهُ التفاف الرعايا حول اريكتهِ ، والعالم يتفرَّغ لمعالجة الذرَّات والعناصر ، والمكتشف يودُّ استجلاء سر من أسرار الطبيعة . أمَّا هذا الرجل فقد حلَّق فوق كلّ غازٍ وكل عظيم ، لانهُ انما يريد ان يوجد عالماً جديداً .

هوفقيرٌ فارغ اليد ، يُنظَر اليهِ بالريبة والتحذُّر لأنهُ غريب في قومهِ وعشيرته . هو شاذ مجنون لا يشبه الآخرين . ما ذُكر الاَّ ارتسمت على الشفاه ابتسامة التأفف والاستخفاف فرجمهُ السافلون باقذارسفالتهم ، ولوَّث اسمهُ الخاملون باوحال خمولهم .

اما انت ذو الفكر النبيل والنظر الثاقب ، فتقدَّمتجد ان هذا الرجل ليس لهُ من بعض المعدمين الوقاحة والتطاول ، ولا من الآخرين المذلَّة والمسكنة . في ذلك الوجه تدركُ إدراكاً مبهماً معنى العظمة والعبقرية . وعلى تلك الجبهة ترى وسْمَ المجد وقد حاذتهُ علامة الحزن العميق الذي يرافق المجد في الغالب وفي تينك العينين تبصر تعاقب التثبُّتِ والاستقصاء بنظرة تتغلغل فيك وقد توحَّد عندها غورُ الهاوية وشروقُ الوحي والرؤيا . ثم ينسى هذا الرجل ما يحيط بهِ من الناس والاشياء ناظراً إلى عمود النور السائر أمامهُ في الفضاء نحو ابعادٍ قصية ، نحو شواطئ مجهولة ، نحو خراب سيصير بهمَّتهِ عمراناً مجيداً .

هذا الرجل هو كولمبس ، الذي قام يحقق ما لم تتخيلهُ كبار العقول على أربعين قرناً . هذا الذي لا بيت لهُ لم تعُدْ تسعهُ القارات الثلاث . والبلاد والرياض والمروج التي فنيت فيها ملايين الآجال دهراً بعد دهر ، وتكيَّفت في رحابها الحضارات والاديان والانظمة شكلاً بعد شكل ـ قد ضاقت بهذا الذي لا حسب له ولا نسب . فاستعمل فضلةً من ذكائهِ للتقرُّب الى ارباب بلاد اخرى ، فعطفت عليهِ إيزابلا الاسبانية ملكة قشتالة ، وحبتهُ بسفن ثلاث كاملة التجارة ، جاهزة المعدات ، فمضى نحو ذلك المجهول المنشود .

* * *

نشر كولمبس شراعهُ على البحار ، بيد انهُ ما خطا الخطوة الاولى وراء عمود النور إلا وتكشفت لهُ الاخطار والمصاعب. قبلهُ وصل الصينيون الى الحد الاقصى حيث تكاد تتقابل البراكين الاسيوية وبراكين اميركا الجنوبية .

فوقفوا هناك ثم انقلبوا راجعين . قبلهُ كاد النروجيون ينتهون الى الجهة الشرقية من اميركا الشمالية ، فوقفوا هناك ثم انقلبوا راجعين . قبلهُ وصل العرب الى سويداء الصحارى المائية ، فاحجموا امام بحر الظلمات ثم انقلبوا راجعين . أما هو الفرد الواحد فتابع المسير عنيداً . انعقدت لهُ الايام على صفحة الماء اسابيع ، وتكونت الاسابيع شهوراً دون ان تقع عيناهُ على أنس الشواطئ . فتابع المسير عنيداً . الامواه الكئيبة تحدقُ من كلّ جانب ، والوحشة الفيحاء توسع الآفاق حواليهِ . وبحارة السفن يشكون ويتمرّدون ، ونفاد الزاد يهدّد بالموت جوعا ويشير بالعودة . ولكن عزيمة الصنديد لم تتزعزع وظلت بصيرتهُ ترى ما كلّت دونهُ الابصار . وفي وسط الغمّ واليأس بسمتْ يوماً ارضُ الميعاد وراء بكر الشواطئ وتراءى العالم الجديد للعالم القديم الآيس المترقب .

* * *

ايها السادة والسيدات

ان حكاية اكتشاف اميركا على يد ذلك الجنويّ الباسل ، وما جرّاليهِ ذلك الاكتشاف من تطوُّر الحضارة والعمران ، لهي حكاية الجهاد الفردي في الحياة وهي ارهف شاحذ لعزائم بني الانسان . يخيل الى من راقب سير المدنيّة ان تاريخ البشر وقف بغتةً ينتظر وقوع ذلك الحادث العظيم الذي ربط بين شاسع الامصار باسباب المواصلات السريعة فتوثقت العلاقات بين الشعوب ، وحصحصت صورٌ مستحدثة للفكر والتفاهم والامل ، وجدّت النفوس في التحرُّر من الاستئثار الدهري . فانتصب الانسان حيال الخالق والخليقة نبيلا يودُّ ان يدرك ، يودُّ ان يحبّ ، يود ان يتفانى لينتعش ويحيا .

هناك ثروة موفورة لتموين الصناعة والتجارة . هناك المعادن المختلفة والحجارة الكريمة وفصائل النبات وانواع الحيوان مما جُمع في فُلك نوح ومما لم يتخيلهُ نوح ولا بنوهُ .

هناك عالم جديد بثروته المعدنية والنباتية والحيوانية ، جديد بموقعه وجماله وجباله وبحيراته وشلالاته ، جديد باختلاط الشعوب المتجنسة بجنسيته النابضة بحياته وروحه ، جديد بحضارة تنشأ شيئاً فشيئاً هي مجموعة الحضارات السابقة وأبدع ما أتقنته يدُ البشر

تلك هي من اميركا المدنية المحسوسة . اما مدنيتها المعنوية فنفسٌ حار ، وفكرٌ مبدع ، ونبوغ عجيب ، وعطف رحيب . هناك مقدرة خاصة في جمع المال وتكثيره تضاهيها مقدرة بذله والتخلي عنهُ في سبيل المشروعات العامة . كأن امتزاج الشعوب المتعاونة على تكوين الروح الاميركية العامة قد ايقظ في صدر اميركا حبَّ الانسانية باسرها . حبًّا تناهى عندها وتسامى فادركت اكثر من سواها معنى اخاء الانسان للانسان . لذلك ما نزلت بالعالم كارثة الاّ كانت اميركا اسبق المساعدين . ولا ظهرت في العالم فكرة جميلة او مبدأ سامٍ الاّ كانت اميركا اسرع المروجين واخلص المؤيدين . ولا دعا داعي الاريحية والتعاون الاّ كانت اميركا اقرب البلدان الى وضع الاشياء في اماكنها فكانت اعقل المنظمين والمسعفين .

وهي فوق ذلك بلاد الحرية . عرفتها كذلك الشعوب فأهدت اليها فرنسا الكريمة المتحمسة تمثالاً من صنع برتولدي سنة ١٨٨٦ رفعتهُ الولايات المتحدة في مرفأ نيويورك جاعلة منارتها في يده قبساً ينير العالم . ولكني لست ادري أهي اميركا التي نصبت في مدخلها تمثال الحرية ، ام هي الحرية التي اتخذت مرفأ نيويورك لها منبراً ، واقامت عليه من تمثالها خطيباً ينادي بالعلم والنهوض والاستقلال والاعتماد على النفس ، رافعاً يمينهُ وراء بحار الشمال والمياه المتجلدة والأبعاد الشاسعة ، يهزُّ من قبسه الانوار على الامم باعثاً اليها برسالة الحمية والرقي والرجاء .

لنا نحن السوريين اخوان اعزاء يعيشون في ظلّ ذلك التمثال الرائع . بيد ان اشعة الحرية تنير البعيد كما القريب ، وما هذه الجامعة الاّ شعاع من

ذلك القبس المحيي .

المعاهد الاميركية العلمية غير قليلة في الشرق . الاّ ان لمعهد بيروت أولوية الذكر لان لهُ في نهضتنا الفكرية الحديثة منذ نصف قرن اثراً مباشراً بمن انجب من الزعماء الذين تثقفت منهم الاخلاق وتكيفت المدارك بتأثير ابناء اميركا الصالحين ·

أأحصي لكم اسماء اولئك الاميركان الافاضل الذين تخرَّجت عليهم طوائف رجالنا العاملين ؟ ما حاجتي الى ذلك وهم احياء بينكم بمآثرهم العلمية وحسناتهم التهذيبية ، احياء بينكم بالّذين استلموا هذه الجامعة بعدهم فكانوا خير خلف لخير سلف ، ولكن اذكروا اولئك العاملين الخالدين ! من هنا ايها السادة الطلبة . من هذه الساحات حيث تلعبون وتتسامرون وتتنزهون أطلّ بعض كبار رجالنا على العالم ـ من وراء الاشجار السندسية وحرج الصنوبر الصغير خلال افق البحر المنبسط امامكم بزرقته الرائقة ، أقبلوا على معترك الحياة . في هذا الجوّ ارتسمت لهم خطوط الآمال والاماني ، وعلى هذه المقاعد جلسوا قبل ان يصلوا الى مكانتهم العالية بين قومهم ، وفي هذه القاعات قاعات الدراسة ارتفعت اصواتهم التي وصلت بعدئذٍ الى اقصى حدود الشرق وتعدَّتها الى ربوع الغرب . خلال الكتب التي تدرسون ، والعلوم التي تقتبسون ، والكواكب التي ترصدون ، رأوا عظمة الكون وعجائب الخليقة فأحبُّوا تلك البلاد التي صادقتهم ، وهذه الامّة الشرقية التي هي امّتهم ، واحبُّوا الاله المهيمن على الجميع بالنعم والعطايا . من هنا خرج صرُّوف ونمر فاصدرا مقتطفهما الذي ابرز مآثر الشرق ونقل لنا فلسفة الغرب وعلومهُ وابتكاراته . من هنا خرج زيدان فتهيّأ هلالهُ وسلسلة كتبه في تاريخ الاسلام . هنا تيقّظت عبقرية الشميّل وهبّت مع عبقرية الافغاني والشيخ محمد عبده عاصفةٌ على خمود الشرق وجموده ·

اذكر هذه الاسماء الاربعة مفاخرة بصداقة ثلاثة من اصحابها وهم

الشميّل وصرّوف ونمر . واكتفي بذكر هؤلاء مع علمي ان هناك عشرات ، سواهم حقيقون بالذكر لانهم باقون بالاثر . لا سيما الاساتذة السوريين من خريجي هذه الجامعة المحتفظين بلغتنا وروحنا الشرقية وديعة ينقلونها من جيل الى جيل . اني أنحني امام فضلهم جميعاً بانحنائي أمام استاذنا العالم الجليل جبر افندي ضومط الذي اعلم انهم لا يرضون بسواهُ ممثلاً لهم في مثل هذا الموقف .

وتألّق القبس يوماً في مرفإ الحرية فأرسل شعاعاً ابعد مرمى وأطول مدىً فقررت هذه الجامعة ما سبقت بهِ جميع المدارس العليا في هذه الربوع ففتحت صفوفها للفتاة مسويةً بينها وبين الرجل ، تربيها منذ الصغر على الشعور بالكرامة كما تعوّد الفتى على احترامها والنظر اليها كمثيلته وشريكته.

وليس ذلك بكثير على امةٍ بلغت نساؤها من الرقّي ما لم تصل اليهِ نساء شعب آخر في هذا العصر ـ كما علت المرأة المصرية قديماً الى مرتبةٍ لم تدانها فيها امرأة في عصرها . ليس ذلك بكثير على امةٍ وضعت المرأة في مجالس النواب ودوائر الحكومة مطلقةً لها الحرية في السعي والجهاد ، حتى غدت نهضة المرأة من أمتن الدعائم التي قامت عليها عظمة الامة الامريكية

فلئن كنت اول فتاة عُقد لها مثل هذا الاجتماع في هذه الجامعة وكنتُ اول فتاة وقفت لمثل هذا الاجتماع على هذا المنبر الجليل ، فكلمتي الاولى هي إسداء الشكر باسم الفتاة الشرقية لاجل هذه التسوية الجميلة . راجية ان يكون عدد الطالبات المستفيدات منها متزايداً عاماً بعد عام .

ثم احيّي من هذه الجامعة هيئة الرئاسة والادارة وجمهور الاساتذة الملقنين شبيبتنا حروف النور ، النافخين فيها روح الاستقلال والاستقامة . احيّي الهمّة التي بُذلت دواماً لاحياءِ اللغة العربية حتى علم الناس انّ من تخرج في هذا الصرح العلميّ اتقن هذه اللغة واحسن التعبير بها كما فاز بالاستقلال،

الفكري والاتكال على النفس

* * *

وانتِ يا شبيبة بلادي التي لن تكذبي كرامة الاجيال الدراسية التي سبقتك هنا ، انت الرجاء الناضر ، والبلسم الملطف جراح الماضي ، والغد البهيّ المتكون في قلب اليوم ، ـ سواء أكنت مسلمةً ، ام درزية أم يهودية أم مسيحية توحّدي متدرّبةً على الحرية الفكرية وتعزيز الروابط القومية . توحّدي متدربة على التفاهم مع جميع الشعوب والاجناس لتتبادلي وإياهم نتائج الجهود ، لتعطيهم وتأخذي منهم . انت تعلمين ان لا مكان اليوم للخامل المتواني وان العالم والاوطان تطلب العامل الحاذق المخلص . شبيبة بلادي ، زهرة الامل الغالي ، فاهتزّي شاعرةً بغبطة الشباب وغبطة الجمال ، وغبطة الذكاء وغبطة القوة . ألا فاهتزي مغتبطة لان قومك يساير خطواتك مترقباً نجاحك . ألا استوحي كتب العلم ودروس الجهابذة ، الا استوحي احوال البشر وفيوض العبقرية ، الا استوحي الفرح والترح ، الفخر والمذلة ، والصداقة والعداوة ، واستوحي كذلك صوتي الضعيف لتكوني ما عليكِ ان تكوني ، لتكوني انت انت فتبلغي اقصى مرتبة من الرفعة والتقدم .

على جباهكم ، يا شبان بلادي ، ارى الآن انعكاس حضاراتنا القديمة ، وفي تيقظكم ارى تنبه شعوبنا الشرقية البائدة ، وفي نور عيونكم ارى ذكاء النوابغ وتوقّد الامجاد ، وهيبة الرجولة البادية في ملامحكم كثيرة الوعود للمستقبل . فاخرجوا من هنا عائدين الى العمل اليوميّ الدقيق ، اخرجوا من هنا سائرين في طريق العلى ! وهنيئاً للاوطان بمن نجح منكم فحقق الاماني ! هنيئاً لنا بمن تفوّق بينكم انهُ لرجل فينا عظيم ! انهُ عندنا لكولمبس جديد !

مي

(المقتطف ــ ومما يحسن ذكرهُ في هذا المقام ان في الجامعة الاميركية داراً فسيحة تسمّى وست هول West Hall تبرع بالانفاق على بنائها والد الرئيس الحالي يعقد في منتداها اجتماع كل يوم جمعة ويُدعى اليه كل كاتب اوشاعر او ذي ميزة فكرية يمر في مدينة بيروت ليلقي فيه خطبة في موضوع يختاره افادةً للطلبة . ولما كانت الآنسة مي عازمة على العودة الى مصر مع والديها قبل يوم الجمعة عقد هذا الاجتماع لها يوم الثلاثاء ودعي اليه جمهور كبير من الطلبة القدماء وغيرهم من الفضلاء وهي اول فتاة دُعيت لمثل ذلك وللوقوف على ذلك المنبر . وقد كُتب الينا ان الحضور من الشرقيين سُرّوا بان اولى المدشنات لهُ كانت فتاة سورية) .

الحركتان الصالحتان[1]

نحن في عصر تلخصت فيهِ نتائج الماضي وتهيأت عندهُ مقدمات المستقبل . نحن في عصر تجمعت فيه جهود ستة آلاف سنة . وتلاطمت في جوّه انفعالات المراتب واطماع الامم . عصران اثنان لهما بعصرنا شبه وهما : عصر انهيار الدولة الرومانية في مطلع القرون الوسطى ، وعصر النهضة والتجدُّد في ختام هاتيك القرون .

على انهما صورتان مصغرتان للمأساة الخطيرة الممثلة على مسرح هذه الايام ، والتي لم تكن الحرب الكبرى الاّ فصلاً من فصولها المشتبكة .

اليوم نرى النفس العامة كنفوس الافراد ، قلقةً مضطربة لا تستقرّ ولا تتجلد ، بل تشرّح اوجاعها ، وتضخم عللها فتصرخ تارةً وتتهدَّد اخرى طالبةَ الشفاء والتآسي . اليوم يخرج بنوالانسان على قرارات الاحقاب ممزقين ما رثّ من النظم ، سابكين نظماً اخرى في قوالب عصرية ،موجدين نظماً جديدة تتفق مع الحاجات والمطالب . وفي وسط هذا الاصطخاب ، وذاك التنازع ، وذياك التمزُّق حيث يختلط العزّ بالهوان والاخلاص بالتبجح — نتبين حركتين صالحتين ، حرّف المغالون منهما ايضاً المعنى والمرمى ، ولكنهما في حدودهما الطبيعية نبيلتان ، مشروعتان ، جوهريتان لان احداهما قوام العائلة والاخرى قوام العمران .

---

(١) (المقتطف) هي الخطبة البليغة التي القتها الآنسة ميّ في الاحتفال الذي اقامته عصبة الأدب البيرونية إثر ادائها في ٢٢/١٠/١٩٢٢ . عدد يناير ج (٦٢) ١٩٢٣ .

وبلادنا التي تلقّت من الالوهية كلمة الحب الاولى فبزغ الوحيُ فيها شمساً توزعت اشعتها على العالم ، بلادنا التي حفظ ابناؤها من اثر ذلك الوحي بداهة تدرك كلَّ مظهر وتكتنهُ كل معنى – أقول بافتخار اني رأيتُ هاتين الحركتين في بلادنا في احوال شتى خلال هذا الصيف . ولكنني ما رأيتهما اتمَّ واوضح منهما اليوم في بيروت قريحة سوريا الجوّادة وهمتها النهّاضة الجامعة بين قوة الامواج الملاينة وقوة الجبل المنيعة .

اما احدى الحركتين فهي تحرير المرأة الذي هو قوام النهضة العائلية .

تعلمون ، ايها السادة والسيدات ، ان من مسراتنا الكبرى الحصول على موافقة امثالنا والفوز باستحسانهم ورضاهم . على اننا نخجل كثيراً عند ما نسمع منهم كلمات الثناء والاطراء . ولكن احكموا علي بما شئتم ، فذلك لا يثنيني عن المصارحة باني في هذه الجلسة قد انعتقت من قيود الشخصية الفردية . فكبرتُ ونموتُ وتضاعفتُ متعددةً متكاثرة حتى صرتُ النوع النسائي كله في امس الشرق ويومهِ . عندئذٍ لم اعد ارى الفرد الواحد في الخطيب منكم والشاعر ولم يعدِ الكلام موجهاً الى شخص معين . بل خيّل اليَّ ان حجاب الدهور قد أُزيح عن رجال الشرق في الماضي والحاضر ، وتصورتهم يتوحدون والمتكلم ، مستغفرين عما جنوا ضد المرأة وضد نفوسهم وضد الوطن سهواً وجهلاً . والرجل الذي عهدناهُ سيداً ظالماً جائراً مستهتراً – كما يقول الوشاة – انقلب ذلك الصديق الجادّ المثقف . ويدهُ التي اعتادت اشارة الضغط والسحق والاستخفاف – كما يقول الوشاة – انقلبت فجأةً يداً كريمة ترسم تلك الاشارة الانيقة العطوفة المثيرة الحماسة : اشارة ضفر اكليل العز لرأس الفتاة الشرقية . ولئن رأيت في تلك الاشارة تكفيراً عن الماضي فقد رأيتُ فيها كذلك وعدا بمتابعة تعضيد المرأة في سبل النور والعرفان .

بدت تلك الصورة وتلك الاشارة فارتعشت نفسي وتسامى معنى تأثري

وتحوّل الخجل عندي كرامة وقبولاً . فرفعت عينيَّ احدق في الخطيب والشاعر ، وكأن المرأة المظلومة منذ ابتداء الدهور كانت تقول لهُ بسكوتي : « ايها الرجل ، لقد احسنت ! احسنت لانك كفّرت ، احسنت لانك انصفت ! »

ايها السادة الرجال ، لقد سمعتم هنا اخواتي الاديبات السوريات فعلمتم ان بيانهن العذب وعواطفهن الرقيقة ، وافكارهن النيرة تحفظ مكانتها قرب بيانكم الالمعي الجارف وافكاركم القديرة المستأثرة . ألا فليكن لكم من رقيهن ميثاق وقدوة جميلة ! اذكروا هذا عندما تعودون الى منازلكم وانظروا الى المرأة العائشة في محيطكم وتحت نفوذكم ، انظروا الى الام ، الى الزوجة ، الى الاخت ، الى الابنة نظرةً جديدةً ـ نظرة من انتبه لواجب طالما اهملهُ . ولا تقصروا التشجيع عليَّ انا ابنتكم المارة بينكم مروراً سريعاً بل ظلوا عاملين على تحرير المرأة التحرير المنشود حتى تسمعوا من نفوسكم تلك الشهادة البديعة : « ايها الرجل لقد أحسنت ! أحسنت لانك كفّرت ، احسنت لانك انصفت ! »

اذا كانت الحركة الاولى هي تحرير المرأة فالحركة الاخرى هي تحرير الوطنية .

الوطنية ! يا للكلمة الساحرة المنبهة كل فكر ، الملهبة كل قلب ، الشاحذة كل عزيمة ! لقد كانت دواما عظيمة حتى في معناها الضيق يوم كانت تحسب البلاد كل العالم ، واهل البلاد الشعب المصطفى الاوحد . ولقد كانت في معناها الواسع عاطفة رحيبة امتازت بها النفوس الحرة في كل زمان ومكان . غير انها شاعت وصارت لكل امة ناهضة منذ قرن بعد ان هدم بنو الفرنسيس جدران البستيل ناشرين على حدود الوطنيات أعلام الثورة الفكرية ، وجاعلين الاقطار تتجاوب اصداؤها بتلك الآيات الثلاث المعلنة حقوق الانسان ،

وهي ـ من ذا لا يعرفها ؟ ـ : حريةٌ ، مساواة ، إخاء

ونحن الجيل الجديد في الشرق ، المدرك علاقة الشعوب بالشعوب واشتباك المنافع بالمنافع ، نحن الجيل الجديد المستنير ، المتلظي ، المغتبط ، بالعيشة في هذا العصر المتفرد بصعابهِ وممكناتهِ ـ نحن اتسعت منّا الوطنية وتكيفت فاذا بها مع ذلك الحب العنيد القديم ، قد فتحت صدرها لتشعّ الانوار الجديدة .

وطنيتنا الحديثة طبيعية ، لان الروح اذا هي تاقت الى ملأ أعلى لا يحدّهُ زمان او مكان فالجسد يحب الحدود ، ويشوق الى الجدران ويتعلق بالامكنة والازمنة بتذكاراتهِ وجهودهِ واحزانهِ . وطنيتنا الحديثة عائلية لانها تريد ان تمكن المرأة من انماء مداركها وتأدية وظيفتها ليس بمقاتلة الرجل ومكافحته بل بتعضيدهِ ومساعدتهِ . وطنيتنا الحديثة عملية نشيطة تنكر التواكل والاستسلام مقدّرةً الاتكال على النفس واتقان العمل كائناً ما كان .

وطنيتنا الحديثة عصرية لانها تساير حركة التقدم في العالم ، ومع محافظتها على المحامد العظامية تحتضن كل جديد مفيد منعشةً عندها المسابقة والابتكار . وطنيتنا الحديثة اخوية ودودة لان مساوىء التحزّب والانقسام نخرت عظامنا ففهمنا اخيراً ان عبادة الفرد لباريه لا تحولُ دون التفاهم مع جاره . وطنيتنا الحديثة رصينة مقتصدة لا تطلب من ابنائها التضحية على غير هدىً بل تريد التوفيق ما امكن بين مصالح الافراد ومصالح الجمهور ، لان البلاد لا تكون سعيدة بشقاء ابنائها . وطنيتنا الحديثة مقدسة لانها ارث الجدود والموتى ، حارّةٌ لانها عجنت بدماء الشهداء واختمرت بانفاسهم الاخيرة ، متينة لانها تماسكت اجزاؤها بآلام الاحياء ونبضات قلوبهم . وطنيتنا الحديثة روحانية لانها شرقية تعلم ان الفرد الواحد يلمس الانسانية من جميع اطرافها وان

من خاطب قومهُ بذلك الاخلاص المنبثق من اغوار روحهِ فقد خاطب سكان البسيطة باسرها . الاّ انها تعلم كذلك ان من نصب نفسهُ لخدمة الناس جميعاً اوشك ان لا يخدم احدا . لذلك نحن نعزّز القومية التي تجعل المرء قوة فاعلة في جانب من الجوانب ، نعززُ القومية عالمين ان من ادّى واجبهُ في محيطهِ كان مؤدياً ما عليه نحو الانسانية من واجب عام .

فان انا شكرت لعصبة الادب غيرتها على الادب واحتفاءها بي ، فأني اشكر كذلك جميع الذين ساعدوها على جعل هذا الاجتماع مظهراً فخماً من مظاهر الرقي الفكري والقومي في بيروت . اني سعيدة بان ارى في هذا النادي اخواني واخواتي من مختلف المذاهب والطوائف ، سعيدة باستماع هذه الخطب الجميلة والقصائد العصماء من ذوي الفضل العميم على الادب العربي والنهضة الحديثة ، سعيدة بان اكون الليلة موضوع عطفكم العذب المنوّع ، الذي يكاد لسعته يتعداني شاملاً اهل الفكر والادب من اللبنانيين والسوريين الغائبين .

ان عطفكم هذا يحيط بي مؤثراً كالطربُ مشوقاً كالامل ، مؤاسياً كالذكرى ، قويا كالشباب ولكنهُ ايضاً آمرٌ كالواجب صارمٌ كالمسؤولية.

سأعود الى موطني المصري العزيز وهذه الساعة حيّة فيّ . حتى اذا اهتاجني اسم لبنان فذكرت جمال السحب فيهِ عند الغروب ، وجلال الجبال في زرقة الشفق ، وروعة البحر تحت الظلام ـ حتى اذا اهتاجني ذلك الحنين الوجيع اليه رأيتني بينكم مرةً اخرى وامامي السبيل التي عليّ ان اسلكها ـ اذن ساهتف بما يهتف به كل واحد منا ساعة اليقظة والتحمس للعمل قائلة : وطني يحتاج اليّ احتياجهُ الى كل فردٍ من ابنائه وبناتهِ . وطني يحتاج اليّ وعيون اخواني ترعاني . اريد ان ابعث حبي لابناء وطني لهيبا . اريد ان

اسكب نفسي في نفوس ابناء وطني كوثراً . اريد ان انسى صغائر الحياة وظلم الحياة وقيود الحياة لارتفع فوق ذاتي فاضاهي ابناء وطني رفعة وجمالاً . اريد ان اتعب فاتقن عملي واسير وابناء وطني في سبيل التقدم خطوة . اريد ان احيا ـ اريد ان احيا رغم الجراح والآلام لاكون في حياة وطني الناهض حياة .

« مي »

دروس من الصحراء

ألقت هذه المحاضرة في الجامعة الأميركية ببيروت في ٣٠ مايو ١٩٢٥ ـ بدعوة من جمعية : « تهذيب الشبيبة » .

المورد الصافي ج (١٠)عدد حزيران ١٩٢٥ ص : ٣٣٦ ـ ٣٤٢ .

حمل الدكتور فياض قيثارتهُ وأنشد فاثار في الاوتار زوبعة انغام والحان وحرّك في النفوس كوامن النزعات والاشجان . وما اتى على نشيده الا وقد حطم القيثارة وقطع الاوتار فلم يترك لاحد بعده ان يرسل زفرةً او ينغم لحناً .

الاّ انه بانشاده قد شدّ من نفوسنا الاوتار وهيأها للاصطفاق علَى وقع كل شدوٍ وكل تطريب . وكانت اولى نتائج سحره المعجزة التي شهدنا : لقد ابصر الاعمى وثاب متشائم المعرّة الى الخالق والى الخلائق . وهو الذي ألفناه يهجو الحياة ، ويحلُّ مشكلتها بامنية اليأس والعفاء ، ويمقت بني الانسان فيقول في نفس واحد :

فـأف لعصريهم نهار وحنـدسٍ ... وجنسي رجالٍ منهم ونساء

فاذا به يتوب توبة علنية خالصة على يد كليم الله في هذه الحفلة ، كاهن بيت المقدس الخوري المقدسيّ .

وكان عليَّ ان احتفظ بالنسب أنا كذلك . فان لم يكن ثمت توبة أعلنها ، او كلمات كتسبيح الموسيقى ارسلها ، فصمتٌ عبقريّ مبين .

غير اني خطوت من القارة السوداء الى القارة السمراء لأتكلم . واراني هنا للمرة الثانية بعد الحرب التي عمدتنا معمودية الالم والقلق والادراك فيفيض الحنين في جوانحي وتتسابق التحياتُ الى شفتيّ :

فسلاماً ايتها الجامعة الكبيرة التي ضممتنا لتشعرينا مرة اخرى بانك كنت ولا تزالين حصناً متيناً من حصون اللغة العربية ، وانك كنت ولا تزالين تزهرين من شبيبتنا ربيعاً بعد ربيع وتنشئين من رجالنا جيلاً بعد جيل ! سلاماً ايتها الجمعية الناهضة رئيساً واعضاء وعاملين ! انك لقائلة بان الشرق يدري متى واين تصبح الاريحية واجباً ، وتقولين للنابغين ان النور لا يخبووان المعطي والآخذ يتساويان في افق العلم والانسانية ! سلاماً ايها الليل المنسدل على الشط الفينيقي القديم ، على الجبال وعلى السهول ، على مدائن سوريا وعلى قرى لبنان ، على الاضطراب وعلى تشعُّب الشؤون ، على الابرياء المظلومين وعلى المجرمين في السجون ، على اجداث الموتى وعلى قبور الشهداء الخالدين ! سلاماً ايها الجمهور الذي تحسب نفسك هنا مصغياً مترقباً وما انت الاَّ الخطيب البليغ لانك تحمل الينا نحن الباحثين عن وطننا المتناثر بلاغاً من نداء الاوطان ، وتستنطقنا بلغة الاوطان ، وترسل الينا نفحةً من روح الوطنية وشرارة !

ايها السادة والسيدات

الآن أُمسك كلمات الحنين لأنظر قليلاً في معنى الاسم الذي تعرف بهِ هذه الجمعية « تهذيب الشبيبة » دون ان اتقيد بغايتها . بل لأتساءل « لماذا تهذَّب الشبيبة ؟ »

اذا كانت الطبيعة صالحةً وكان كلُّ ما خلقهُ الله حسناً فهذه الناشئة بعض برايا الباري، وغرائزها من مواهب الطبيعة التي تغنّى بحمدها روسووانصاره ومعنى التهذيب هو التزيين والتنقية والتطهير، فكيف يُنقّى الخالص وكيف يُطّهر مالم يصبهُ تلوُّث ولا تشويه؟

نعم نحن من برايا الباري والطبيعة صالحة. ولكنَّ الباري اخضع البرايا لناموس التطوُّر. وصلاح الطبيعة في الفرد هو الصلاح في شلاَّل الماء وفي النهر الفائض لا بدَّ ان يتناوله نظام الري والتوزيع ليكون أمناً لا خطراً، وحياةً لا موتاً.

واخطأ روسو يوم قال بصلاح كل ما تصنعهُ الطبيعة وبفساد كل ما يصنعهُ الانسان، لانه وقف عند اول حكم من احكام الحياة ولم يأبه لما يلازمه من قوانين التطوُّر والصقل والتهذيب الشائعة في جميع اجزاء الكون.

التهذيب في معناه باللغات الغربية education من اللاتينية ex ducere، اي الاخراج من طورٍ الى طور آخر. هو في الواقع انتقال وتحسين وتهيئة الفرد لتبادل المصالح والمنافع مع اخوانه. حيث المجتمع والحضارة هناك الانظمة والروابط. وهناك وجوب تنشئة الفرد على غايات محيطهِ واساليبهِ وحاجاته مع احتفاظ الفرد بحريتهِ وجميع مواهبهِ الشخصية.

وما كان اسهل «تهذيب» الناشئة بالامس لاننا لم يكن لنا من مصالح ومنافع نتبادلها مختارين ولم يكن لنا من مثل اعلى نشرئبُّ اليه. لفتةً الى حياتنا منذ خمسين عاماً! نجد هناك شخص عبد الحميد، وانما عبد الحميد يمثل جميع العتاة والمهووسين الذين يجهلون ان الحكومة من الشعب وللشعب وليس الشعب بآلةٍ للحكومة. وكانت حكومة عبد الحميد أليق ما تكون بمولاها، يتناوبها الظلم والحق والرشوة والاستبداد. وما فتىء الفَردُ حيواناً

اجتماعياً كما يقول فنيلون ، وحيواناً سياسياً ، كما يقول أرسطو . فهولذلك متفاعل حتماً وما يحيط بهِ او يسوسهُ من جماعة وما يقيدهُ من نظام وقانون فيعامل من هو دونهُ بمثل ما يعاملهُ من هو فوقهُ . كما يكون الحاكم والقاضي كذلك رب البيت في عائلتهِ والمعلم في مدرستهِ . كان الملك يضغط على الحاكم ، والحاكم يضغط على المحكوم ، والمحكوم يضغط على ابنائهِ وتلاميذهِ . فما هم جميعاً الاّ آلات إذلال وإخضاع وإرهاب بعضهم لبعض ، ليس في الشرق فحسب بل في جميع الامم خلال عصور الارهاق . فكانت غاية التهذيب كغاية الحكم والسياسة تكييف عبيد يمتثلون خانعين بلا تذمر ولا شكوى . والعبيد من الحكام والآباء والمعلمين كانوا يفلحون في سبك النفوس الصغيرة في قالب العبودية والظلام الذي ضوئلت فيهِ شخصياتهم . صمٌّ بكمٌ لا يعقلون يسبكون في قالبهم صماً بكماً لا يعقلون !

ألا فلتشرفي ذكراً ، ايتها المدارس الغربية لانكِ حملتِ الينا بشير الحياة وغصن الرجاء ، فتعلمنا عن طريقك معاني الحرية والمسؤولية والكرامة !

ان اغراض الحياة ، ايها السادة والسيدات ، ابعد من مطامع الحاكمين ، وحقوق الامم ابقى من افتئات المعتدين . جاءنا الشعاع عن طريق الغرب وكان لدينا شعاع آخر يحتجب ولكن لا يغيب في اشخاص افرادنا الممتازين ، من اولئك الشرقيين اللذين عرفوا امراضنا فحاولوا ان يعالجوها ويحطموا منا الاغلال . من اي المدن هم ؟انهم ليكتظون امامنا في فضاء هذا النادي مقبلين من بيروت نفسها ، من لبنان ، من دمشق ، من طرابلس وحمص وحماه ، من مصر ، من العراق ، ، من جزيرة العرب ، من الاناضول ؛ من كردستان وافغانستان ، من الاستانة ، من مختلف الطوائف والاديان ومن جميع انحاء ما كان يدعى بالامس مملكة بني عثمان .

وما اسمهم ؟ وما حاجتهم الى النعوت والالقاب ؟ كلمة واحدة تطبع عَلَى ذكرهم علامة لا تمحي . اسمهم الاحرار ! احرار العرب ، احرار

الشرق ، احرار الانسانية ! الغرب حمل الينا الشعاع وهؤلاء حملوا امامنا المشاعل . الغرب علمنا النظرية ، وهم جعلوها بمثلهم عملية تطبيقية فارسلوا في دمائنا قطرة متوهجة فوّارةً هي قطرة الحرية !

تهذيبنا بالامس أضعف رجولة الرجال وجعل المثل الاعلى من المرأة ان يكون لها فم يأكل — أجلّكم الله يا سادتي — دون فمٍ يتكلمْ . اما اليوم فقد انكسر القالب القديم في السياسة والنظام والحكم فانكسر بالتبع في المجتمع والمدرسة والعائلة . ففي اي قالب تهذيبي نسبك الان ، وعلى اي الاغراض القومية تنشأ شبيبتنا ؟ ما هي صورة الحكومة لترتسم على مثالها صورة المدرسة ؟

اطمئنوا بالاً ، يا سادتي المشفقون ، لن اتكلم في السياسة لاني غبية لا افهمها في تعقدها البارع وتلوّيها الحاذق ، ولاني لا انسى مطلقاً اني هنا يجب ان اكون تلك التي لها فمٌ . . . الى آخرهِ !

* * *

اجتزت قنال السويس مساء امس الاول . وهنالك عند عتبة الصحراء امام القطار المزمع على الرحيل كنتُ اتحدث عن يقظة الشرق مع عالمٍ اجنبي مسافر . فاصغى اليَّ طويلاً وهو متردد بين التصديق والارتياب . ثم قال «كلٌّ هذا حسن . ولكني انا ادرّسُ علم الاقتصاد السياسي منذ اعوام . وقد راجعت تواريخ الامم القديمة والحديثة الكبيرة منها والصغيرة فوجدتُ لتيقظها ورقيها وكرامتها مقياساً واحداً لا شذوذ عنهُ . هو قوة الانتاج في جميع فروع النشاط الحسيّ والمعنويّ . من الميسور ان نعلم ما تستهلكون انتم الشرقيون في يقظتكم هذه ، ولكن ايّ الاغراض من الحياة تطلبون ؟ وهل تنشئون شبيبتكم على معرفة هذه الاغراض والعمل لها ؟ ما هي الاعمال التي يزاولها شبانكم ؟ واذا صح ان يقظتكم هذه بدأت بعد الحرب فحدّثيني عما فعلتم منذ الهدنة . لا اسأل عن الشركات العظيمة ، والمشروعات الناضجة والاعمال المالية العائدة بالارباح الباهظة ، ولكن

حدّثيني عن تجاربكم ، عما حاولتم القيام بهِ في حياتكم الصناعية والزراعية والمالية . انكم تستهلكون وتستهلكون ، فماذا انتم منتجون ؟ ايها الشرقيون المتيقظون .

واقبلنا على المفاوز واقتحم القطار مملكة الرمال طول ساعات الليل . وفي تلك الصحراء المترامية بين قارتي آسيا وافريقيا بشكل حيوان يتحفز للانقضاض على البحر تواريخ وحوادث تشترك فيها اديان ثلاثة وحضارات مختلفة وشعوب شتى . ومن جهات كثيرة من هذه الصحراء اقبلت عليّ مواكب الماضي متعاقبة بلا ترتيب ولا استطراد تاريخي ، مملوءة بالعبر والدروس والحكم .

من هنا ، بعد مجاعة بلاد كنعان ، مرَّ يعقوب وذريتهُ الى مصر يحتمون بحمى يوسف الذي كان بالامس قد نبذه اخوته . من هنا مرّ قمبيز العاتي ونبوكد نصر ذو الصفحة التاريخية المدلهمة . من هنا مرَّ سيزوستريس المصري بعد فتح اورشليم وهيرودس الذي تولى الملك بكلمة واحدة من انطونيوس . هنا في العريش قضى بودوان الاول ملك اورشليم نحبه ، وهنا كذلك دوّنت المعاهدة القاضية بعودة كليبر وجنوده الى فرنسا بعد معارك الاهرام . هناك في غزَّة انهار شمشون الجبار بالانفعال الذي يصرع الرجال عند اقدام النساء . من هنا مرَّ الاسكندر قاصداً الى حيث يشيد على شفة البحر الابيض مدينة هي اعظم انتصارته واخلد جميع فتوحه : الاسكندرية . من هنا مرّ الطفل العذب الوديع هارباً مع ابويه الفقيرين ، هو الذي سيكون في الغد اعظم رسولٍ للرحمة والمساواة ، ويعلمنا كيف تثور النفس الكبيرة وهي ممتثلة ، وكيف يموت العظيم لاجل مبدأ عظيم . ومن هنا ، او من هناك ، مرَّ بعد ستة قرون الفتى البدويّ الاسمر متوجهاً الى دمشق ، هو الذي عما قليل سيقترن اسمه باسم كتاب ينال في ستين عاماً انتشاراً لم ينلهُ كتاب سواه ، وسيكون عنواناً لحضارة تصل بين ماضي الانسانية وحاضرها . وهنا يمرّ

الان هذا القطارمحدثاً بمقدرة الانسان الذي غلب العناصر وأخضعها وسطا على اسرار الطبيعة ونبش دفائنها وعرف ان يستخرج الخير من الشر والثروة من الفقر . هذه المزجيات التي جعلتها الحرب والاطماع آلة للربح ووسيلة لقهر الشعوب ها هي تقرّب المسافة بين البلدان وتوحي الى الفرد الضعيف ان الارض جمعاء ملكه وان جميع البشر اخوانه .

هذا بعض ما خطر لي في وحدة الليل بالصحراء . ولكن كلمات الرجل الغريب لبثت ترنُ في نفسي كدقات ناقوس ملازم . ومن غرائب الاتفاق اني حضرت من حيفا في سيارة واحدة مع ثلاثة من فضلاء المتخرجين من الجامعة ومن اعضاء تهذيب الشبيبة فعالجوا في احاديثهم كثيراً من المشاكل التي يثيرها سؤال الرجل الغريب . وبعد ان الموا بحالة البلاد ، وذكروا منها العيوب والاعذار ، كنتُ انا جمهورهم الصامت اكرر على نفسي تلك الاسئلة التي سمعتها في الليل «ما هو غرضكم من اليقظة والتعليم والتهذيب ؟ طالما انتم عالة على الغرب في كل ما تستهلكون ؟ نعرف ما انتم تستهلكون ، فماذا انتم منتجون ؟ »

ايها السادة والسيدات

يتكوّن تاريخ الامم والافراد من عوامل ثلاثة ثابتة في خطوطها الكبرى متطورة في التفاصيل والاجزاء .

اول تلك العوامل العامل الطبيعي اي موارد البلاد الطبيعية من تربة ونبات وحيوان ومعادن ومياه وموقع جغرافي يعيّن العلاقات التجارية . والعامل الثاني هو العامل القهري او الجبري الذي يكتسح مشيئة الشعوب والافراد كالحروب مثلاً والطوارىء والزلازل والاوبئة .

والعامل الثالث وهو اهمّ العوامل لانه مكوّن حيوية الامم ، هوالعامل الفعلي اوالعملي ، اي نشاط الامة ومجهودها ، وابتكارها ، وانتظام الشعور والادراك فيها ، وحكمتها في الاستفادة من مرافقها وممكناتها وفي

معالجة ما يجب ان يعالج وعلى الوجه الذي يجب ان يعالج به.

وجميعنا نعلم ان مصادربلادنا ومواردها ليست دون ماتملكه كثيرمن البلاد الاخرى . ونعلم ان العامل القهري يتخذ عندنا شتى الصور والاشكال . ولكن اترانا نهتم بالعامل الثالث العامل الاختياري الفعال ،كل الاهتمام ؟ اتجهد مدارسنا ان تنميه كل النمو في نفوس شبابنا وفتياتنا ؟

اذكروا بعض بلاد ايطاليا ، اذكروا مصائب اليابان واذكروا كيف تنهض تلك الامم دفعة بعد دفعة ترمم بعمل الاعوام والاجيال ما افنتهُ الطبيعة في لحظةٍ واحدة . فهل لنا نحن مثل هذا النشاط ومثل هذا الاحتمال ؟ ايذكر كلٌّ من شبابنا ان الارض تناديه لتحييه وتحيا ، وان الصناعة والزراعة تطلب ذكاءه ومجهوده لتنمو وترقى ؟ أيسأل شباننا انفسهم : تستهلكون انتاج الغرب ايها الشرقيون ، فماذا انتم منتجون ؟

ولكن الانتاج وحده على خطورته لا يكفي ولا بد من تنظيمه والربط بين اقسامه بتلك العاطفة التي توحي الامل والصبروالحماسة والثبات ، لا بد من عاطفة الوطنية . لا بد ان تقود اعمالنا غاية الوحدة القومية .

في اثينا بلاد الرياضة البدنية والجمال الجسدي كانوا يقيمون حفلات سنوية يجري فيها المتسابقون وبايديهم شموع متقدة . فالفائزمن سبق والمشعل في يمينه متقد كشارة الانتصار. وليتسنى لهم ذلك كانوا يجدون في مراحل متعددة من ميدان السباق مواقد تتلظى فيها النيران وينطلق منها اللهيب فيشعلون منها شموعهم المنطفئة ويستأنفون السباق وقد تجددت منهم الحماسة والنخوة ، وحدا بهم رغم العناء والتعب طلبُ المجد والانتصار.

الا فليكن هذا شأننا في مجهودنا الجديد لحياتنا الجديدة ! ولتكن الحماسة الوطنية وفكرة الوحدة القومية مراكز نور وحرارة نجدد عندها ما تراخى من عزائمنا لنمضي بعدئذ متسابقين الى حيث تحقق الشعوب آمالها وتقوم بما فرض عليها في موكب الامم الحية الناهضة !

نداء إلى الدروز(١)
إلى الزعيم سلطان باشا الأطرش
ودروز الجبل عموماً

إخواني ،

أنست لدن مروري بدمشق منذ ثلاثة أعوام بلقاء كبير من كبرائكم فدعاني إلى زيارة جبلكم حيث أكون بين أهل وإخوان . ولما كانت الفرصة ممتنعة عليّ رغم رغبتي في انتهازها أجبت أن تلك الدعوة في تقديري تستمر موجهة إليّ وذلك حتى يتيسر لي أن ألبيها فاقصد إلى حماكم وأرغد بما هو مأثور عنكم من الفضل والكرم .

وها أنا ذي اليوم مقبلة عليكم ، إن لم يكن بالجسم فبالفكر والروح . أسير إليكم مسوقة بالشعور معكم آسية على كل قطرة تراق من دمائكم متفجعة لكل ما ينزل بدياركم من الرزايا . وأول ما ينطلق به لساني هوالتمني أن تكفوا عن القتال . ألا حبذا التهاون والتفاهم في هدوء وأمان ! ألا إدخروا قواكم فنحن بها ضانون ! احقنوا دماءكم فهي غالية علينا لأنها تيار الأريحية والحياة .

وبعد فإني أخاطبكم قوية برعايتكم للضيف فتحققون له كل رغبة . بل قوية بما هو أعظم من ذلك . قوية بما في طلبي من الشرف والواجب وبما فيكم من نخوة ورجولة .

إلى البطل سلطان باشا الأطرش وأعوانه الشجعان أوجه كلامي : الا

(١) نقلاً عن « المقطم » عدد ١١١٤٥ تاريخ ١٩٢٥/١٠/٢٨ .

اذكروا تقاليد توارثتموها وعادات درجتم عليها في صيانة الأعراض . كونوا انتم ايها البسلاء كما كنتم دائماً حماة النساء والبنات ولا توقعوا العادية بجيرانكم واخوانكم ولاتجوروا على الأبرياء !

ولئن أنا استنجدتكم وأنتم في تجالد وتطاعن تحدق بكم المخاطر والنيران فاذكروا ما أنا الساعة ذاكرة من ان همم الرجال إنما تمتحن في الشدائد وان اصدق ما توزن به اقدارهم إنماهو ما يبدو منهم عند البلايا والمحن.

أطلب منكم الجري على عاداتكم القومية من صون النساء في وسطكم الشرقيات والغربيات منهن على السواء . أطلب مسالمة لجميع المقيّمين في جواركم والذين قد تنزلون بينهم بداعي اجراءتكم الحربية . وأطلب نشر هذه الروح الشريفة بين جميع رجالكم ورجال القبائل والعشائر والجماعات الموالية لكم .

اخواني !

اشكركم على ما يهزني من فخروأنا أخاطبكم بهذه السطور. أشكركم على شمم فيكم يمدني بالشجاعة لأخاطبكم ، وبالفخر لأثق أنكم ملبّون انتم الذين لا تخيفكم المدافع والشظايا إنما تمتثلون لفتاة تخاطبكم باسم الشرف والعدل .

لقد نظمت جمعية الأمم في الغرب دائرة من دوائرها لحماية النساء والبنات . فاثبتوا أنتم أنكم تغارون على المرأة في دياركم أياًكانت الجنسية منها والعقيدة ! اثبتوا للعالم أنكم بحق أبناء هذا الشرق شرق الرسل والانبياء والابطال . اثبتوا أنكم « رجال السويداء » وأنكم أهل نخوة كما انتم اخوان شجاعة ! واعتزوا بتحقيق مطلبي لأن هم الرجال الذين يمتثلون للصوت الضعيف يوم يذكرهم بالشرف والحق والواجب .

وأنتم الرجال الرجال .

«مي»

المقتطف
ونداء لجنة الاحتفاء بيوبيله الذهبي

المقتطف اقدم مجلة عربية تصدر في العالم العربي الآن ، مضى عليها نصف قرن في ميدان العمل وهي راسخة العزم في خدمة العلم ، تنقل الى أبناء اللغة العربية في مشارق الارض ومغاربها اسمى ما جاد به الفكر الانساني من علم وفن وفلسفة . وقد صدر منها حتى الان ٦٧ مجلداً في نحو. . . ٥ صفحة ، دُوّنت فيها المكتشفات والمستنبطات وآراء النوابغ وسيرهم ، في كل عصر من عصور التاريخ ، باسلوب عملي دقيق ، على ما يقتضيه هذا العمل من الجهد في وضع المصطلحات العلمية العربية ، والشجاعة الادبية في نشر الآراء الجديدة والاحاطة بفروع المعارف على تعددها وتشعب مسالك البحث فيها .

هذا اول عمل من نوعهِ في الشرق ، قليل النظير في الغرب ، قدّرهُ ابناء العربية فقاموا يحتفون بيوبيل المقتطف الذهبي . وقد عقد الاجتماع التمهيدي في منزل حضرة الياس افندي زيادة صاحب جريدة المحروسة .

فدعت كريمته الكاتبة النابغة الآنسة المبدعة مي لفيفاً من صفوة اهل المثالة والفضل للبحث في تكريم مجلة المقتطف بمناسبة بلوغها اليوبيل الذهبي في اول السنة المقبلة والمناقشة في جعل هذا التكريم مظاهرة ادبية كبيرة في الشرق باشتراك الامم الشرقية فيه . فلبيّ دعوتها عددٌ كبيرمن رجال العلم والسياسة والادارة فالقت الآنسة ميّ فيهم الخطبة الاتية .

حضرة صاحب المعالي(1)

مجلة المورد الصافي ج (١١) عدد كانون الأول ١٩٢٥ . ص. ٩٠-٩٣ .

ايها السادة

بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن والدي اتشرف ان ارحب بكم في هذا المنزل الصغير ، في هذه الغرفة الضيقة بمساحتها ولكنها الساعة ارحب واعظم ماتكون بحضوركم فيها . فكم من اجتماع زاهر عقد في هذه الغرفة ، وكم من مناقشة بين اهل العبقرية من الشرقيين ومن الغربيين حركت في هذا الجو المحدود رواكد وكوامن مما حجبته الحياة عن الابصار والبصائر. وكم ذكرت هنا اسماء كتابنا ومفكرينا ، وكم محصت هنا آثارهم في الادب والعلم والاجتماع . فانتم الان اذن في جوكم المألوف ، وهو رحيب زاخر بالتيارات الفكرية التي تتعارض فيه وتتلاقى .

اعلم ان بعضكم ترك الان عمله ، وان بعضكم ضحى بنزهته في سبيل هذا الاجتماع . فاحيي فيكم الهمة الناهضة والعاطفة المستعدة دواماً لتحية الفضل وتقدير الفاضل ولا عجب فانتم من لباب اهل الفضل وانتم

(١) مشيرة إلى محمد توفيق رفعت باشا وزير المعارف العمومية المصرية سابقاً

بمواهبكم العالية وجهودكم الادبية انما تمثلون الحلقة الثمينة التي تصل بين الماضي والمستقبل .

ولما كان من عادة المجالس النيابية ان يتولى الكلام فيها بدياً اقل الاعضاء شأناً فهذا ما اقوم به انا في هذا الاجتماع ـ حيث ينوب كل منكم عن جماعة من اهل العلم والادب ـ ريثما يتولى الكلام ذوو الشأن الخطير.
وللمطالبات بحق الانتخاب ان يرين في هذا ـ اذا شئن ـ بعض الفؤول الصالحة المنبئة بفوزهن في القريب العاجل .

انما نجتمع ايها السادة ، للتداول فيما يحسن عمله للاحتفاء باليوبيل الذهبي لمجلة المقتطف ، الذي يقع في شهر يناير سنة ١٩٢٦ . فقد مرت خمسون عاماً وهذه المجلة تصدر بلا انقطاع ناشرة ما طوي من مآثر الشرق وعلوم الشرق ناقلة ما حسن من مآثر الغرب وعلوم الغرب ، مماشية حركة التطور في العالم ومنوهة بما تتباهى به نهضة بني الانسان . انها ما فتئت تالدة بتعزيز النفيس المفيد من القديم ، طريفة بتعزيز النفيس المفيد من الجديد ، بسيطة صادقة بلغتها السهلة المباشرة متفرغة لتلك الابحاث الجليلة في جوعلمي هادىء بعيداً عن العواطف والانفعالات ليتسنى لها ان تعمم خدمتها وتبقى في ذلك الافق الانساني النبيل حيث يتلاقى الجميع ويتفاهمون .

وكان لهذا الوسط المصري اثر فعال في نشأتها لان النبتة الصالحة لا تنمو وتزهر الا في التربة الندية الخصيبة . لقد تأثرتْ بالمحيط المصري نصف قرن كما نتأثر به نحن ابناء اليوم . فاخذت من مصر واعطت ، وامتزج اسم المقتطف باسم مصر كما امتزجت يقظة نفوسنا الفردية بيقظة مصر الناهضة ومضى المقتطف يحمل رسالته الى أقطار الشرق العربي ، الى الشرق الاقصى الى العالم الجديد في اقطاره الشمالية والمتوسطة والجنوبية حيث ضرب المهاجرون من الشرق خيامهم ناقلين مع رجائهم ويأسهم وافراحهم واحزانهم مفردات هذه اللغة المحبوبة .

لذلك كان حقاً لاولئك الاخوان البعيدين ان نذكرهم في مثل هذا الموقف الحرج فنبكر في تأليف اللجنة لنوصل اليهم خبر اجتماعنا وندعوهم الى الاشتراك معنا في هذا اليوبيل الذي هو الاول من نوعه في تاريخ المجلات العربية . واما الاحتفاء باليوبيل فتقرره طبعاً على ما تستحسنه اللجنة التي ستؤلف لهذا الغرض فيكون لها في ذلك الرأي الاعلى .

يتهمون المرأة بانها تحب ان تكون لها الكلمة الاخيرة دواماً . فدفاعاً عن بنات جنسي قلت انا الكلمة الاولى ، بل لثغت اللثغة الاولى ، ولتكن الكلمة المحكمة الحصيفة النهائية لحضرتكم ، ايها السادة الرجال .

بيد اني قبل الختام اكرر لكم الشكر على تشريفكم . اشكركم جميعاً . ولكن لا شك عندي في ان السوريين سواء منهم الحاضر والغائب ، انما هم ينضمون في اسداء الشكر الحار الى حضرة صاحب المعالي رفعت باشا الذي حملته عواطفه النبيلة الرقيقة على تشريف هذا الاجتماع والى سائر المصريين الكرام الحاضرين . شكراً ايها السادة المصريين ! دوموا كما انتم سباقين الى كل مكرمة ! دوموا انتم منارة تستضيء بها اقطار الشرق وطليعته في جادة الرقي تفتح السبيل فيتبعها ابناء الشرق اجمعون !

وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق والاعجاب الشديدين وبعد ان تكلم عددٌ من رجال العلم والفضل بهذا الشأن تألفت لجنة تنفيذية يرأسها حضرة صاحب المعالي محمد توفيق رفعت باشا .

(المورد) لا شكَّ أنه سيكون لنداء لجنة الاحتفاء بيوبيل المقتطف شيخ المجلات العربية احسن وقع في نفوس نصراء الفضل . فإن هذه المجلة جاهدت بأمانة خمسين سنة في تنوير الأذهان ولا تزال مستمرة في جهادها فاكرامها بهذا اليوبيل الذهبي يعد إكراماً لمشروع من أكبر وسائل العلم والتهذيب في بلادنا الشرقية فاطال الله بقاءها في خدمتها النافعة .

نشيد الى ينابيع روما

الهلال : ج (٣٤) عدد اول يناير (كانون الأول) ١٩٢٦ ص
٣٤٣ ـ ٣٤٦ .

تفيضين من كل صوب ، يا ينابيع المدينة الخالدة ، وتهزجين من كل ناحية ، وتنادين بالنابه والخامل على السواء ، ولك مساجلة مع المحروب والمحبور ، وصوتك يأبى إلا المضي في اصطحاب محكم مع جوق الاجيال التي تمر وتنقضي ومع البيان الناطق في آثار التاريخ وأطلال الحدثان !

على مقربة من المعابد والبيع المحاريب وفي المساحات والميادين والحدائق ، عند أبواب المتاحف وتحت أروقة القصور ، في جانب مدافن العامة والدهماء

كما لدى ضرائح الآلهة والقياصرة والابطال ومضاجع البابوات والقديسين ، والشهـداء ، على ضفتي نهر « التيبر » الاشهب كما في غياض الهضاب السبع المحدقة بواديه ، في جوار انقاض الماضي وعلى مشهد من الاعمدة والرتائج والافاريز وأقواس النصر التي يزعم شاعرها أنها ما زالت منتصبة في انتظار مواكب ظفر جديدة ـ ؛ أنت ، يا نوافر روما ، حاضرة في كل مكان ، متفجرة منبجسة في كل مكان ، شادية في كل اين وآن !

للاشادة بصنيعك وتمجيد حسنك وتفخيم قدرتك عمدت يد الفن الى مقالع الرخام الملون ومناجم المرمر الشفاف . ودرست عبقريات العصور خصائص الجمال والحب والحزن والحماسة والبطولة والطغيان ، واحكام القدر ومظاهر الطبيعة واحتجاب الروح الشاملة . فصاغت لها جميعاً نفيس الشخوص والدمى والهراكلة والكواسر والضواري والانصاب ، واقامتها عند فوهاتك وعلى حفافيك ، تمثل للاجيال اختلاج الكائنات ونزعات الارواح .

أنت بعثت في تلك التماثيل نسمة الحياة إذ لامسها تيارك العذب . وها هي على الدوام تتلقى فيض أمواهك من احشاء الارض لترسلها في الهواء شكولا من الجمال وانغاماً من الطرب . وانى توجهنا جابهناك ، يا ينابيع الفن والالحان ، فاذا أنت في الجو البديع أعمدة من النور الراقص أو حزم من البلور المصحون ، لهب وشهب من الرغو المتضامن أو بروق ونبال من الكوثر المتناثر ، شراع وألوية من السناء أو شجيرات وأدغال من الضياء .

وما تجول أطيافك جولتها في الفضاء حتى تنقض مهرولة في الاجران ، والاحواض . ومن هناك تنتظم شلالا دافقاً في الخبائب لتعود من حيث أتت فتتقمّص في صور جمال جديد !

* * *

كم ذا طلب عطشي الارتواء من المثول لديك ، يا عيون روما ، وكم ذا سألت خريرك ان ينسيني نفسي الجريحة !

كم ذا تمليت أوضاع تماثيلك وملامحها ، وأنا أحسبها سعيدة بامتصاص روحها من روحك وارتباط نصيبها بنصيبك في خدمة الفن وتمجيد العبقرية !

ولكني أراها تمتثل حزينة وتؤدي وظيفتها المحتومة وهي ساهية غائبة . شأن من يقف من أهل المقامات أبياً كريماً في موقف العز والفخار على أن في جنانه نقرة فاجعة وصدعة قارحة .

أترى يشجيهن ذكرى الجبال البعيدة حيث كانت هذه التماثيل هاجعات في كتلة الهيولى قبل ان ينقشهن ازميل الحفار؟ أتراهن يتلهفن على الحرية الماضية ولذاذة الغفلة ؟ أتراهن يشكين هذه الوتيرة الواحدة في نسيج الليالي والايام ، وان طرزها تقلب الحوادث بوشي الدم والخراب واللهيب ؟

أم هن مللن عبء الجمال وأبهظتهن مسؤولية العبقرية ؟ أم تراهن وقد شهدن جميع مواكب التاريخ في الانتصار والانتحار ، تعبن ، تعبن ، تعبن من هذه الحياة وما لا تفتأ تطويه وتنشره من تنوع الاضداد ؟ أم تراهن وهن منتصبات أو منحنيات ، مشرئبات أو ملتفتات ، انما هن ذاهلات عن الوقائع لا يعنين الا بنجوى القلوب القاصدة الى هنا تطلب الراحة والسلوان عند الماء الشادي ؟ أتراهن يصغين الى نجوى هذه القلوب فيحزنهن العطف ويأتين بهذه الاشارات ذات الهيبة والبلاغة التي يخلدها الرخام في قلب عاصمة العالم ؟

* * *

تأملتك في الصباح والاصيل وعند انتصاف الليل ، يا ينابيع روما ، وسمعتك قرب الصروح الشامخة وبين الاخربة الدارسة تسوقين في نفس لا ينقطع معاني الضحك والبكاء ، والعبث والتفجع ، والتهليل والنحيب ، والمجون والحكمة ، ففهمت منك ان نسيج الزمان كنسيج المياه متماسك متناثر ، وان ركبه يمر ويبقى ، وان كل بداية تتلوها نهاية وكل نهاية تعقبها بداية ، وفهمت انك أنت من أصدق الصور للازمنة المتدافعة في المسافة ،

أبداً في ابتداء وانقضاء ، أبداً في انقضاء وابتداء .

يا لفخامة الأسماء التي تمر في جوك بهدير المدافع ولعلعة الصواعق ! إن ذاكرتي لتسردها اسماً اسماً وترى لكل ذي اسم ما التصق به من الخصائص . أترى رأت مدينة أخرى مثلما رأت روما من فعال الآلهة والابطال والطغاة المستبدين ؟ في المياه الصافية المغرية المحضرة الأرواح كمرايا السحّار ، أرى المواكب تتهادى الفارس منها والراجل ، السيد والعبد ، القائد والاسير ، الفيلسوف والخطيب ، الامبراطور والشارع ، الظالم العاتي ، والشهيد القديس. روما ، روما ! انك العظيمة حقاً !

انك العظيمة حقاً . لان العظمة الصادقة كالحب الصادق تذهل المرء عن نفسه ، وفي الوقت ذاته تلفته الى نفسه وتجعله أتم معرفة بها فتنمو أمامه وتنجلي ظهوراً .

وأنا الساعة أنظر في مياهك على وقع شدو النوافر فانفصل عن نفسي وأنسى اسمي ورسمي . انظر في مياهك فيفارقني الكرب الذي لا يفارق ، ويجفوني الالم الملازم العنيد ، فلا أذكر بعد إلا اني مقيمة فيك ، وان ينابيعك حولي مترنمة ، وان آثارك على مقربة مني قائمة ، واني في قرارة هذا الحوض الجميل أرقب مواكب تاريخك المتتابعة .

نسيت نفسي ، يا للرغد ويا للهناء ! لكني أعود فاذكرها ويشتد عطشي الملهب العميق . فأتلقى بيدي من مائك ، يا ينابيع روما ، وأشرب شربة لها في فمي طعم الترياق والكوثر .

لحظة ليس غير ! لقد رجعت إلى حالي فما ارتويت بقطرة الا كانت لهيباً في الأوام الذي لا يرتوي ، وما فزت بفهم جديد الا كانت الخاطرة المستحدثة وقوداً لعذاب فكري وطمعه إلى توسيع حدوده ، وما نعمت بنفحة عطف إلا كانت زكـوة لعاطفة الحنان التي لا تشبع فيّ ولا تكتفي ! لحظة هنـاء ليس غير ! فعادت نفسي الجبارة أشد شكيمة وامنع جبروتاً

فاذا بها وروما سواء . فيها مثل روما خلود وجمال ومجد وتاريخ وأقواس نصر ومتاحف آثار ونضارة واطلال . فيها نهرأشهب يجري فخماً بين التلول الشجراء . وفيها مثلك أيتها الينابيع الشادية في ظل اشارات الشخوص . وفي قرارتها حجرة بداهة وشعور وإدراك هي عاصمة العالم !

مي

كيف أريد الرجُل أن يكون[1]

جمعية الشبان المسيحية في القاهرة من اصلح الاندية التي يختلف اليها الشبان المصريون اذ يجتمع لهم فيها ما يروض اجسامهم ويرقي عقولهم ونفوسهم . فمن مختلف الالعاب الرياضية خارج النادي وداخلهُ الى الرحلات العلمية التاريخية الى المكتبة التي تحوي طائفة من خيرة الكتب والمجلات الى الخطب والمحاضرات العلمية والاجتماعية التي يلقيها في منتداها افاضل الغربيين والشرقيين امور اقل ما يقال فيها انها اركان لتكوين الرجولة الحقة والخلق المتين . وقد دعيت النابغة الآنسة (مي) الى القاء خطبة اجتماعية فيها مساء يوم الجمعة في ٢ يناير سنة ١٩٢٦ فاختارت «كيف اريد الرجل ان يكون » موضوعاً لخطبتها . وقد حضر هذه الخطبة النفيسة جمع غفير من السيدات والادباء والصحافيين والطلبة حتى غصّ المنتدى بالحضور واستغرق القاؤها نحو ثلثي الساعة . وقوطعت مراراً كثيرة بالتصفيق الحادّ وهذا نصها]

أيها السادة والسيدات

لئن انا أثنيتُ على هذه الجمعية النبيلة التي تسعى للتفاهم والاخاء بين مختلف الشعوب ، وتحسن إلى الشبّان فتُقدّم لهم الاصدقاء والوسط والمنزل أينما حلوا ـ فاني كذلك اشكرها لدرجها اسماء النساء في سجلّ خطبائها ولأنها مكنتني الليلة من مناجاتكم والاتصال بأفكاركم ومساجلة عواطفكم .

نحن ابناء الجيل الحائرين وراثة الماضي ، ومشاكل الحاضر ، ومهاجمة

(١) عن المقتطف ج (٦٨) عدد فبراير ١٩٢٦ ـ ص : ١٧٧-١٨٣ .

المستقبل، نحن نحمل في نفوسنا نفحة العطور، وطهارة اللهيب، وحرارة الشباب وغموم الشيوخ. فما أحرانا بالاجتماع وتبادل الآراء لنسمو إلى ما فوق هذا الافق المفعم بالارتباك والضوضاء إلى حيث نستمد وحياً وقوةً ونشاطاً!

عندما دُعيت إلى محادثتكم في هذا المساء قيل لي ان وقفتي هذه بمثابة التدشين لهذا المنبر من الجانب النسويّ. وان هذه القاعة الجميلة التي تعالت فيها اصوات كثيرين من فضلاء الشرق والغرب لم ينطلق بعد بين جدرانها بلاغٌ من امرأة أوفتاة. كذلك فهمت ان اللجنة تفضل مني اليوم الموضوع الاجتماعي على أيّ موضوعٍ سواهُ. فكأنَّ جميع المؤثرات تعاونت على تشجيعي لأُرسل هذه الصيحة التي هي في صيغتها المبهمة دون شرح ولا تعليق إنما هي عنوان لعهد جديد. صيحة عظيمة هي خطبة في ذاتها لانها تقدّم وإعلان واستحثاث ومصافحة واستفهام وجواب «كيف اريد الرجل ان يكون».

هوذا الرجل في ضلالهِ وغوايتهِ (ليس انتم)... في ملاهيه وملذاته، في خصوماتهِ وجهلهِ. ها هوذا على موائد الميسروالشراب والمخدّرات، وها هوذا في تلك السبل المظلمة المتلوِّية التي يعرفها هو ونجهل نحن كيفية وجودها... هوذا الرجل الذليل الاحمق (ليس انتم) السخيف الجاحد الخائن الذي هوحشرة مضخّمة تبهظ البشرية وتمتصّ دماءها. هوذا من ناحية أخرى الرجل، ذو الشمم والاباء والعزّة والاخلاص، ربّ الحكمة، وربّ القوّة، ورب الابداع وبطل الجهاد الذي يثير الاعجاب والرجاء ويشرّف بني الانسان!

انظرالى هاتين الصورتين فتتولّد فيَّ اطياف التمنيّ وبينهما اقف انا وانتم وكل باحث واودّ ان استجلي الصورة امامكم وامام نفسي فأعلم كيف اريد الرجل ان يكون.

لعلّ هذا البيان الموجز يرضي الذين منكم ينعتون موضوعي بالجريء المتطرف ، اولئك المتشائمين من تحرير المرأة المتأففين من إطلاق العنان لفكرها وقلمها . وربما كان بينكم من يقول : لقد رضينا بالموضوعات التهذيبية والاخلاقية والادبية والوطنية . وسكتنا عن تلك الموضوعات المزعومة بالسياسة وماهي الاّ مماحكات ومشاحنات يصيح فيها الجميع ولا يفهم احد شيئاً . وأصغينا متفكّهين الى الكلام عن المساواة الجنسية ، وعن الجلوس في مقاعد النيابة ، وتقلد الوظائف والنطق بالاحكام . وشجعنا ما هو فوق ذلك جميعاً ، اي الموضوعات العمرانية والعلمية والنظرية والفلسفية. أفما بقي للمرأة الاّ ان تجيء فتصوّر الرجل وتحدّد شخصيتهُ وتنبئهُ بما عليهِ ان يكون ؟ أليس هنا مجال الاستشهاد بالمثل القائل :

«قلنا لصاحبنا البيت بيتك ، قال طيب اتفضل سعادتك اطلع منهُ » ؟

وجوابي ، ايها السادة ، ان هذه الكلمة كانت خلاصة حياة المرأة سواء اكانت عالمة بأنها تقولها ام كانت جاهلة . انّ كلّ امرأة قالت لكلّ رجل كيف تريد ان يكون . قالت ذلك في حديث فرديّ جليّ اوفي الفاظٍ مبهمة غامضة ، اوفي اعمالٍ وامثالٍ وإغراءٍ وايحاء . قالت لهُ ذلك قريبة وغريبة ، محبوبة وممقوتة ، محترمةً ومحتقرة ، مخلصة ومخادعة ، راقيةً ومتقهقرة . تمرّ المرأة بالرجل فتلقي اليهِ بالنظرة التي تمتحن نسيج مواهبهِ وخصائصهِ فتقول لهُ «كن ! » فيكون . هي التي اثارت حرب طرواده وهي التي كان لها يدٌ في النهضة بعد القرون الوسطى بالهام دانتي وبتراركا وتهيئة نفوس الاقوام . هي التي دفعت بلوثير الى اثارة الحرب الدينية . هي التي أفهمت هملت كيف تكون الامومة والزوجية خائنة غادرة فسلحت يدهُ بسيف الانتقام . هي الأم التي ملأت قلب ميرابو يأساً ، وهي الحبيبة التي رفعتهُ بعدئذٍ وخلقت منهُ رجلاً جديداً . وجميع هؤلاء الرجال الذين يسوسون الشعوب ويديرون شؤون العالم ، وجميع اولئك الرجال الذين يقومون بالاعمال الوضيعة ،

والمجرمون في الليمانات والسجون ، والثوّار والفوضويون والمتآمرون كلهم ، كلهم ، فتّش وراء أعمالهم عن المرأة تجد امرها نافذاً وتأثيرها فعالاً .

بل قد يكفي ان تعرف ايّ رجل لتعلم ابن ايّ امٍّ هو. لستُ اعني امّ الجسد فحسبْ فتلك قد يتفلت من تأثيرها إذا كان ذا شخصية حيوية فعّالة ، ولكن عنيتُ امهُ بالمعنى . إذ في كلّ امرأة تعطف على الرجل شيء من الامومة . ويكفي ان ترى سلوك رجل لتعلم ايّ نوع من النساء خالط وإلى ايّ التأثرات هو استسلم .

كلُّ ذلك كان إلى اليوم خفياً محصوراً في دائرة معيّنة . وقد آن الوقت لتقول المرأة كلمتها صريحةً عالية . فالرجل ينتقدنا ويمتدحنا ، يهجونا ويدلّلنا ويبدي رأيهُ في زينتنا وفي ثقافتنا وفي تربيتنا وفي شعرنا المجزوز ، ما فتىء يصوّر لنا شخصيتنا منذ ابتداء العالم . يفعل ذلك شاعراً وناثراً ، مشطراً ومخمساً ، عالماً قانونياً وعالماً اخلاقياً ، رجلاً عادياً وسوبرماناً عليّا . فلماذا لا يكون لنا نحن كذلك رأينا الصريح في اخلاقهِ وأساليبهِ وسلوكهِ وهندامهِ ؟ لماذا لا نبدي لهُ ملحوظاتنا فيما يتعلّق بكلماتهِ ونظراتهِ ، وبالدبوس الذي يضجُّ في ربطة عنقه ، وبالمنديل الذي تشرئبُّ زواياهُ الحادّة الاربع من الجيب الصغير الانيق أو غير الانيق ؟ إنّ رجل اليوم صنيعة المرأة في الاجيال الماضية ، ورجل الغد سيكون خلاصة جميع هذه الاجيال مصقولاً بتأثير الحاضر . ولئن كان أثر كثيرات من النساء المسكينات الجاهلات مهدّماً لشخصيات الرجل ، غاضاً من كرامتهم ، فهذا لا ينفي أن الجيل بأسرهِ توّاق إلى صوت المرأة يحدوشادياً ، ونستحثُّ بتحمساً ، ويسوق في السبيل الموصلة إلى معارج الارتقاء .

* * *

ايها السادة والسيدات ،

منذ اربعة وعشرين قرناً طاف فيلسوف يوناني احياء اثينا يبحث عن رجُلٍ ليس على نور الشمس المشرقة ولكن على نور مصباح يحملهُ بيدهِ. ذلك كان ديوجينوس اشهر اهل مذهبِ الذين بلغ احتقارهم للنوع الانساني واللياقة الاجتماعية انهم نعتوا نفوسهم بالكلبيين نسبة الى الكلاب. والمصباح يدلُّ على انَّ في ذهن الفيلسوف صورةً للرجل الامثل لا يستطيع ان يعثر عليها بين صنوف البشر المعروضة امامهُ. واذكروا ان هذا السخر بالطبيعة الانسانية واشهار افلاسها حدث في القرن الرابع قبل المسيح ، اي في العصر الذي ازدهرت فيهِ حضارة اليونان فبلغت أوجها في فنون السياسة والتشريع والحرب والآداب والفنون والفلسفة.

على ان اليونان كانوا أبداً متصعبين في تعريف الرجل الامثل. فانكم تذكرون ان بين الاسماء العظيمة التي كانت ومازالت اقوالها وآراؤها توحي الى العالم ، لم يجودوا بنعت الحكيم الأ على سبعة من رجالهم لانجد بينهم اسم سقراط ولا اسم فيثاغورس ، ولكننا نجد صولون المتشرّع وواضع قواعد الدستور الدمقراطي الذي تفرَّع منهُ بعدئذٍ شتى النظم الدمقراطية المعروفة. وعليهِ يكون جميعُ المتحدّثين اليوم بالدمقراطية والدستور، مدينين لذلك الحكيم القديم ، ووجب عليهم ان يهتفوا الوقت بعد الوقت لارهاف قرائحهم وتشديد عزائمهم : فليحيَ صولون !

امَّا انا فابلغ صورة اعرفها للرجال واقدارهم ومراتبهم اجدها في اللغة العربية. وهي صورة خالدة لانها لا تقتصر على الرجل في جيلٍ دون جيل ، بل يتطوَّر معناها مع تطوُّر الجماعات فيتسع او يضيق ويظلُّ دواماً محك صادقاً بليغاً.

فقد قالت العرب انَّ الرجال ثلاثة : رجل هوكلُّ الرجل ، ورجل هو

نصف الرجل ، ورجل هو لا رجل . واردفوا هذا التلخيص البديع بهذا البيان البديع : فالرجل الرجل هو الذي يعلم ويعلم انهُ يعلم ، والرجل نصف الرجل هو الذي لا يعلم ويعلم انهُ لا يعلم ، والرجل لا رجل هو الذي لا يعلم ولا يعلم انهُ لا يعلم .

لست أدري هل هذا ما قالتهُ العرب بالحرف ، ولكني مستعدَّة ان انتحل هذا القول وان أزيد عليه بأن العلم هنا ليس بمعنى العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها . بل هو يجمع في تقديري بين المعرفة المطلوبة في وسَط الرجل وبين مقدرة هذا الرجل على تطبيق معرفتهِ على حاجات وسطهِ واستثمار تلك المعرفة بأكرم الاساليب وأَلبق المساعي لخيرهِ وخير محيطهِ جميعاً .

ومع التسليم بأن هذه الصنوف الثلاثة وما يتخللها من مختلف الشخصيات ضرورية لتشكيل النوع الانساني وليكون هناك مجال للتحسن والتقدم والتطوُّر ، فانَّ كل إعجابي وعطفي يتجه نحو الرجل الذي هو كلُّ الرجل ، الذي يعلم ويعلمُ بسيطاً سعيداً انهُ يعلم يحقق علمهُ في عملهِ . الرجل الذي تمتزج فيهِ مواهب العقل ومواهب الشعور ومواهب التنفيذ . ليس هو بالرجل الذي يبحث عنهُ ذلك الكلبيّ الساخر ، ولا هو سوبرمان نيتشه ، ولا هو بالمعصوم من الزلل ، فالكمال مستحيل في الطبيعة البشرية . ولكنهُ الرجل الكامل كمالاً نسبياً في ذاتهِ ، الذي تكفّر محاسنهُ عن مساوئهِ لانك اذا احصيتَ لهُ نقصاً وجدت لهُ فضلاً يقابلهُ . الرجل الذي يكون فعلهُ حلاً للمشاكل لا عقدة فيها ، نوراً في الظلام لا ظلاماً في النور ، تعزية في الالم لا ألماً في التعزية ، نشاطاً في اليأس لا يأساً في النشاط . الرجل الشهم الكريم الجميل جمال الرجولة المهيب . الرجل المرىء الحصيف ، وفي نفسهِ ذلك الحنان الواسع الذي ليس من خصائص الضعفاء كما يزعمون ، بل هو من أنفس مواهب الاقوياء . الرجل الذي يمرُّ في زمانه وقومهِ فينتفع بجميع الممكنات المقدَّمة لهُ ، ولكنهُ يترك على ذلك الزمان وذلك القوم طابعهُ المبين !

كلٌّ موهبة من مواهب الرجل الرجل يستغرق بسطها وشرحها ليس محاضرات ومؤلفات ضخمة فحسبُ ، بل حياة ذلك الرجل في مختلف اطوارها . لانهُ لا يفتأُ يصقلها وينميها ، وكلٌّ منها ممتدٌّ وتتسع حتى تمتزج بالمواهب الاخرى . على اني لا بدَّ ان اذكر أنَّ فكرة الرجولة في نفسي كفكرة الانوثة ، بل كفكرة الانسانية ، قائمة على محور أخلاقيّ لا استطيع تعريفهُ . ولكنه ككل سحرٍ وكل عظمةٍ وكل فنٍ ، نهتدي اليهِ بالبداهة إن خانتنا الشروح ، ونعلم انهُ المصدر الذي تستوحيهِ الانسانية المخلصة في سنّ أنظمتها وقوانينها . وانَّ ذلك المحور ، ذلك الاساس الاخلاقي هو كالحقيقة في تطوُّرٍ متتابع . ليس في الجوهر ولكن في الاعراض . فيظلّ متعدّداً ، متنوّعاً ، متلوناً في كلّ عصر وكلّ جيل وفي كلّ امة !

إنَّ فكرة الخير والشر التي هي الفارق الاوَّل في الجوهر الاخلاقي ليست بالفكرة الجلية . إنها مستحيلة على كثيرين وهي على الجميع عسيرة . فكم من مرَّةٍ في حياتنا لا يكون رأينا في الاخلاق خيراً من رأي ذلك الآكل لحوم البشر . وبيان ذلك انَّ احد المبشرين أقام اعواماً بين اولئك القوم يتعهَّدهم بعطفهِ ويحاول توسيع إدراكهم ما استطاع . واذ مضى يوماً لزيارة احدهم وسألهُ عن زوجتهِ ، أجاب الرجل انها غير موجودة . فقال المبشر : مفهوم انها غير موجودة ولكن اين هي إذ لا بدّ لي ان أراها . فقال الزوج الامين : لقد تعشيتها البارحة ــ وكيف تعشيتها ؟ ــ فقال الزوج : كنتُ على شيءٍ من التعب ، لا ميل لي الى الصيد ، فشويتها واكلتها . فقال المبشر مشمئزاً حانقاً : ولكن هذا شيٌ رديٌ ! هذا شيٌ ممقوت ! فأجاب الزوج المنصف : كلا ! لم أُلاحظ شيئاً من ذلك . بل بالعكس كان اللحم في غاية اللذَّة !

هذا هو ايها السادة والسيدات ، رأي الرجل الذي هو لا رجل ، وهو ليس بالنادر بين بني الانسان . ومن اسخف مظالم الحياة ان تضع العلاقات

بين مثل هذا العقل وبين الطبائع الحارّة النقية الجميلة ،بل وان تجعل لهُ عليها الامر وحق السيطرة

* * *

وهنا يعترضنا مشكل كبير ، لا بدَّ انهُ يجول الآن في خواطركم ـ ذلك اننا كثيراً ما نرى ان النجاح وما يحالفهُ من ثروةٍ وجاهٍ وهناءٍ واحترام واكرام ليس دواماً من نصيب أهل الأخلاق والضمائر . فاذا قُدّر النجاح والظفر للكذب والمراوغة والاحتيال وقلب الحقائق بينا قُدّر الفاقة والشقاء وربما السخرية والاحتقار ايضاً ـ للفضل ، فكيف لا ينزعُ الفاضل الى تغيير خطتهِ ؟ وهل حالتهُ هذه تشجع المقتحمين سبل الحياة فيختارون الصدق والاستقامة ام هم يتجهون الى حيث تكون جهودهم مزهرة مثمرة فتكون الواسطة مبرَّرة بالنتيجة ؟

اكرر ان هذا مشكل خطير. لاننا ان نحن احتقرنا اولئك المتطفلين الخاملين الذين لا يأتون عملاً بل يترفّهون على حساب العاملين فاننا نعترف بحق المجاهد والموهوب على ان يُكافأ بمواهبه وجهودهِ . والنجاح مرهف للعزائم العظيمة ، منشط للطبائع الصادقة الحارّة بل اقول اننا لا نتصور الرجل الأَ في هالة من النجاح والظفر ، لاننا قلنا انهُ يطبق معرفتهُ وخبرتهُ وبراعتهُ على الاحوال المحيطة بهِ فيستثمرها خير استثمار . فحلُّ هذا المشكل إذن هو من بعض مواهب الرجل الرجل . ومع الاعتراف بان للحظٍّ يداً قويةً في تكييف الاحوال ، وانَّ الدهر امواجٌ والحياة اطوار ، فاننا نقرّر للنجاح ابواباً كثيرة وصوراً عديدة . والرجل الرجل هوالبارع القوي الذي يتشدَّد في الانحدار ويخلق من الشجاعة والكرامة والتدبير مظاهر جديدة ، بينا أنصاف الرجال وارباعهم يباهون بنجاحهم الحائل الضئيل . إن النجاح المالي والاجتماعي زينة المسرح واثاث التمثيل ، ولكن النجاح الاخلاقي والادبي ثروة الانسانية الخالدة تطمح اليها بكلّ قواها وراء الظواهر الخلابة

التي يطلبها جميع الافراد وجميع الشعوب . وقوة الرجل الرجل تستمدُّ من قوة تلك الفكرة الابدية العظيمة ولها منها حصن حصين .

ايها السادة والسيدات ،

منذ ثلاثة اعوام وقفت مثل هذا الموقف تقريباً في الجامعة الامريكية ببيروت وذلك في منتدى « وست هول » حيث تشرَّفتُ بان اكون على منبره اوَّل فتاة تكلمت في الاجتماع الذي يضمُّ الاساتذة والطلبة كلَّ اسبوع . يومئذ حدَّثتُ شبابنا هناك عن كولمبس مكتشف اميركا وناديتَ ان يكون كلٌّ منهم كولمبساً في بابهِ مع مراعاة مواهبهِ وممكناتهِ . إذ ليس لاحدٍ ان يتخطّى حدود شخصيتهِ ولكنَّ لكلٍ ان يهتدي اليها ويتبين معالمها .

واليوم القي بمثل ذلك الصوت لاقول ان ذلك الذي يكتشف نفسهُ وسط المجتمع الصاخب ، ويتغلب على آلام اليأس والانفراد ليهدي الى العالم ثمرة معرفتهِ واختيارهِ فذلك هو الرجل الرجل .

ولكن لستم وحدكم ، ايها العاملون ! فكم من مرَّةٍ حيال ثمرة الرقي والانتاج نقول لنفوسنا : هذا العمل يشبه وجهاً ينجلي الآن في نفسي وكان من قبل غامضاً . وهذا الصوت شبيهٌ بصرخةٍ كانت تفطّر وجداني وظلَّت الى اليوم بكماء . وهذه الشجاعة العظيمة إنما هي التحقيق الذي يطلبهُ قلق شبيبتي المعذَّبة الحائرة !

اننا اليوم في حاجةٍ إلى الشخصيات الكبيرة لتنهض بنا وتلقي علينا من حكمتها وأنوارها . لم اصوّر لكم صورة كاملة وذلك عمل لا يفيد اذ للنفوس اقاليم وامزجة وممكنات هي سرٌّ بين الفرد ونفسهِ . ولكن حسبي ان اكون قد ذكَّرتكم بذلك ليكون فلاحي عظيماً . حسبي ان اكون قد بثثتُ فيكم الرغبة في البحث عن مواهب الرجل الذي هو كل الرجل ، واثرتْ بينكم ، ايها الرجال والشبان ، موضوعاً تراجعونهُ في اجتماعاتكم ومنتدياتكم لأكون

قد قمت بأَجمل قسط من دوري النسوي . فعلى المرأة ان توحي وتُستحث وعلى الرجل ان يبحث ويحقق . ورائدي في كلّ ذلك رأْي الحكيم الصيني القائل : لئن حملتُ فرداً واحداً على البحث في موضوع يرفع نفسهُ . ويرهف اخلاقهُ ويتعدَّى فيهِ حدود شخصيته المألوفة ، فذلك خيرلي الف مرَّة من ان اخضع ملايين الشخصيات لرأْي واحدٍ ومذهب فرد . لان اخضاع الالوف عبودية . اما كسر قيود الفرديَّة فثروة وعظمة وحريّة !

ميّ

الغرائز السيكولوجية الثلاث[1]

المقتطف : ج (٦٨) ـ عدد ابريل ١٩٢٦ .

ايها السادة والسيدات ،

اقف لاوّل مرة على هذا المنبر متسائلةً اين أنا ، فاذا بالاجوبة تتوارد في خاطري . أنا في نادٍ شرقيّ سوريّ جمع نخبةً من أبناء قومي . أنا في نادٍ يُحيي السهرات العائلية والاجتماعات المأنوسة ، وينظم الرحلات التاريخية والزيارات المشوّقة والاسفار التي تروض العقل والجسد جميعاً . أنا في نادٍ ان هو اهتم بحفلات السمر والطرب والانشراح لانها من خصائص الشباب ومن اسباب الهناء ، فهو كذلك لا يغفلُ أنبل وجوهِ الحياة فيعقدُ في قاعتهِ هذه الوقت بعد الوقت اجتماعات جليلة غرضها البحث والمذاكرة في سبيل النهوض الفكريّ والاجتماعيّ .

أقف على هذا المنبر وانظر اليكم .فأرى في مقدّمتكم آباءنا الروحين ، وحضورهم هنا دليل على ائتلاف الانس والفضل اللذين هما في اتمّ وجوههما حليفان لا ينفصلان . وارى بينكم وجوهاً تذكّرني باني منذ شهور قلائل سرتُ في قافلة جمعت كثيرين من حضراتكم نساءً ورجالاً . فجلسنا معاً الى مائدة واحدة ، وتقاسمنا بفعل اهتزاز الامواج الافراح والاتراح على ظهر الباخرة « جيانيكولو » التي كان الاب ابو حديد نقطة التشريفات المركزية فيها وكان مونسينور بيرو شاعرها الغرّيد وبلبلها الصدّاح . واشتركنا في غفرانات

(١) خطبة للنابغة الآنسة ميّ زيادة القيت في النادي الكاثوليكي للشبيبة السورية مساء الخميس ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٦ .

العام المقدَّس ومشاهدة آثار روما وكاتدرائياتها ومتاحفها الخالدة . تذكارات هنيئة بريئة تزيد عذوبة ونفاسة كلما طوى عليها الدهر يوماً من نسيج ردائه . فأنّى وجَّهتُ نظري وفكري في موقفي هذا تلقَّاني ما يقول لي بأني هنا لستُ بالغريبة. واذ أهمُّ باسداء الشكر إلى رئيس هذا النادي وأعضائه الكرام على دعوتهم اجد كلمات الشكر وقد انقلبت بين شفتيّ تحيّةً حارّة ممّن تلقى نفسها في دارٍ هي دارها ، وبين قوم هم اهلوها.

يخيَّل ، ايها السادة والسيدات ، ان اندية القاهرة أجمعت في هذه الآونة على وجوب تدشين منابرها من الجانب النسوي . كانما هذا الجيل المتيقظ أصبح ، في لهوهِ وقلقه ، معطاشاً إلى أحاديث غير هذه التي حيكت كالاسطوانات منذ أجيالٍ ودهورٍ .كأنما هو أصبح توّاقاً إلى صوتٍ جديدٍ ينادي من على الاندية ومنابر الطروس مشيراً الى نقطةٍ من الحياة منسيَّة . فما وقفتُ على منبر في هذه الايام الأ وشعرتُ بالتفاف ارواح الجمهورحول روحي تمدُّني بالقوّة والشجاعة ، وتوحي اليَّ الكلمة المجنَّحة المطلوبة . فترتفع نفسي بفعل هذا الوحي الى افقٍ عالٍ حيث تتعرَّف بذاتها قبل ان ترسل الوحي الفاظاً الى مسامع الحاضرين.

ومع تقديري لهمتكم وعطفكم ، ايها الرجال ، فان اهتمامي بعطف النساء عظيم . أنتم اوقفتموني هنا . ولكن نظرةً الى النساء تروا ان كلاً منهنَّ ترقبني لترى هل انا أُحسنُ القول كما كانت هي تحسنهُ مكاني ؟ وهل أنا افوز في التعبيرعن آرائهنَّ وافكارهنَّ خلال موضوعي ليجوز لي ان امثلهنَّ الليلة امامكم ؟

فباسمكنّ يا سيداتي اقف هنا مدشنةً هذا المنبر للآتي سيرقينهُ من بنات هذا الجيل وممهدةً السبيل لبنات الاجيال التالية ان صحَّ ان اوَّل خطوة هي اعسرخطوة . واعلن اني على اهبةٍ لكسر زجاجة الشمبانيا ليستكمل التدشين جميع شروطهِ ــ على طريقة سادتنا الرجال ــ فلا يقبل بعدئذٍ طعناً ولا نقضاً

امَّا زجاجة الشمبانيا فهي هنا رمزية . اي انها الخطاب الذي يظهرانهُ سيجمع بين ما فرَّقتهُ الطبيعة. فمن المعلوم ان الذي يكسر زجاجة الشمبانيا يتغافل عن فتحها ، وان الذي يفتحها لا يفكرُ في كسرها . امَّا انا فسأفتحها اولاً وبعدئذ اكسرها ، فاكون محققةً مبدأ التناقض والجمع بين الضدين الذي يحبُّ الرجال ان ينسبوهُ الى النساء .

وفتح الزجاجة هو عبارة عن شرح عنوان الخطاب . لأنَّ حضرة السكرتير الهمام اتحفني بمناقشةٍ تليفونية ترمي لى تغيير العنوان . « فالغرائز» وصلت اليهِ الغرائب ، والسيكولوجية اقترح ان تكون بسيكولوجية ، أمَّا كلمة الثلاث فسكت عنها منةً وكرماً . فالغرائز جمع غريزة ، يقابلها بالفرنسية كلمة « Instinct » من اللاتينية « Instinctus » سامحوني على هذه الكلمة الآتية رأساً من القاموس ـ ومعناها ما غرزت عليهِ طبيعة الانسان ممّا قد تتكَّيف مظاهرهُ وتتنوّع وتتطوَّر ولكنهُ في صميمهِ اصلٌ راسخ لا يتلاشى. اما الثلاث فجمع ١ و ٢ و٣ من الغرائز الاساسية التي أريد ان ألمع اليها . اما السيكولوجية فهي طبعاً مشتقة من كلمة Psychologie بالعربية علم النفس وبالانجليزية Psychology فاستعملت لفظها في العربية على الطريقة الانجليزية لاني لوجعلتها « بسيكولوجية » لانبرى لي استاذنا زكي باشا بحقٍ وألقى عليَّ درساً بأن الساكنين بالعربية لا يتجاوران . وان لامني سعادتهُ ولمتموني حضراتكم لاستعمال السيكولوجية بدلاً من « النفسية » أجبتُ ان السيكولوجيا في اوربا ، بعد ان كانت فرعاً من الفلسفة النظرية وما وراء الطبيعة ، أصبحت منذ نصف قرنٍ تقريبا ، لاسيما في الاعوام الاخيرة ، علماً مفصلاً منظّما قائماً بذاتهِ ترجع اليهِ جميع العلوم الاجتماعية والجنائية والتاريخية والعمرانية . فدرّس جوستاف لوبون سيكولوجيات الشعوب والجماعات والمهن ، ودرس علماء الاجتماع من الفرنسيين والانجليز والالمان والنمسويين والروس والطليان سيكولوجيات الامم والمراتب ، ودرس

الاطباء الحاذقون سيكولوجية المرضى والامراض ، ودرس رجال الشرع والقضاء سيكولوجيات الجرائم والمجرمين ، حتى التاجر عمد الى سيكولوجية زبائنه يعالجها بالاعلان والترغيب ويسيطر عليها من اقرب جهاتها منالاً : وما ذلك إلّا لادراك هؤلاء ان العلاقة متينة بين الجسد وبين ما نسميهِ النفس ، ذلك الجوهر الغامض الكامن في الجسد والذي هو مصدر الاحساس فيهِ والحياة . كذلك لاحظ جميع هؤلاء ان الجماعات الخاضعة لاحوال واحدة ، المواجهة في الحياة تجاريب متماثلة ، تتكيف شيئاً فشيئاً في صورةٍ واحدة وتتربّى فيها ملكات واحدة كوّنت مع الوقت « سيكولوجية » تلك الجماعة وأبرزت طابعها الخاص . ومن هنا عرفنا نفسية الجاني ، ونفسية العالم ، ونفسية الطبيب ونفسية المحامي ، إلى آخرهِ . ومن ثم اطلعنا على ما اكتشفهُ علماء الاجتماع ورسموهُ من سيكولوجيات الشعوب وما تشترك فيهِ فيما بينها اوتتفرّد بهِ من الغرائز . ومن الغرائز المشتركة بين الجميع ، هذه الغرائز الثلاث التي هي موضوعنا وقد وصلنا اليهِ اخيراً من اطول السبل بعد ان اديتُ شبه امتحانٍ أرجو ان اكون قد نجحتُ فيهِ ، وهوفتح زجاجة الشمبانيا التي جاء وقتٌ كسرها.

* * *

أيها السادة والسيدات

الغرائز الثلاث التي يشترك فيها الجميع مع بعض الاختلاف المحتوم بين الجماعة والافراد وفقاً لمزاجٍ كلٍّ منها ، هي اوّلاً غريزة « الأنا » اوالفردية ، والغريزة الوجدانية ، والغريزة الاجتماعية . وهذه الغرائز الثلاث هي محور الوجود البشري والاجتماعي وهي في تماسكها وتسلسها السبيل المنطقيّ الوحيد للنموّ والتطوّر والحياة .

عندما نقول « انا » ندركُ إجمالاً ما تعنيهِ هذه الكلمة من تعريف الشخصية الواحدة وتعيين حقوقها الشرعية على الوسائل الضمينة بالوجود والصحة والهناء والحرية . وهذه الوسائل هي في بادىء الامر من نوع الحاجة ،

ايّ انها عند الطفل ، وعند الجماعات غير المتحضرة ، وعند الافراد العاديين ، حسيّة كثيفة تكاد تقصرعلى مواد الغذاء والكساء والمسكن والوقاية والدفاع عن الروح وحب الانتقام والرغبة في السيطرة الفظّة الخشنة دون دقةٍ ولا تنوّعٍ ولا صقلٍ.

ثم تتولّد في الفرديّة صفات ونقائص وميول ورغبات وفروق بين المعاني والاشياء والاعمال والمدركات فيتوغّل الفرد في عالم الفهم والشعور، ويرقى صعوداً الى حيث يجابهُ معاني الحرّية والعدل ، ويتمتع بالعبقرية فيخضع قُوى الطبيعة ويسيطرعلى العناصر ، وتتناوبهُ الانفعالات والمسرات والآلام والتجاريب فتميتُ كلَّ يوم منهُ قديماً وتخلق فيهِ جديداً . ولسنا محتاجين الى من يعلّمنا حب انفسنا فذلك اعرق شعورٍ فينا وهوشرعيّ عادل مقدَّس . اقول انهُ مقدَّس ولا استدرك ، اذ ايُّ شيءٍ احقُّ بالاعزاز والتقديس من هذه الحياة التي تلقيناها من جود الباري ؟ وايُّ عدلٍ اعدل من الاحتفاظ بها وصيانتها وانمائها واحترامها وحبها وإسعادها ؟

وهذه الفرديّة الصحيحة الحرَّة انما هي نسيج المجتمع ولا يكون المجتمع قوياًّ عظيماً الاَّ عندما تكون فرديَّاتهُ قوية عظيمة ، مالئةً كلّ مكانها الطبيعيّ . قلتُ كلَّ مكانها ، فحسبُ ! وربما علَّق كثيرون منكم على قولي بأن ما يشكو منهُ المجتمع الآن ليس تضاؤُل الشخصية وانكماش الفردية بل نقيض ذلك ، اذ كلُّ فردٍ لا يرضى ان يكون اقلّ من امة ، وكلّ امةٍ لا ترضى ان تكون اقلّ من الانسانية . وانا اجيب ان هذه هي الدمغة الدالة على ضعف الفردية . والاَّ فليجبني السادة الاطباء : عندما يتضخَّم القلب ــ او ايُّ عضوٍ من الاعضاء الاخرى ــ ويطغي على الاعضاء المجاورة فيحتلُّ مكانها ، اهذا من الصحة ام من المرض ؟ ان معارفي الطبية قليلة ولكني اعلم ان التورُّم علامة المرض وتضاؤُل الحيوية . وتضخم الفرديَّات هو هذا ما نمقتهُ ونسميه غروراً وحمقاً وطغياناً وافتئاتاً . هي وضع النفس في مكان ليس لها ، وانتحال المرء ما ليس

فيهِ ، وادعاء ما لم يخلقْ لاجلهِ . هي تجاوز حدود الفردية واغتصاب حقوق الآخرين التي يجب ان تكون حدوداً لحقوقنا والقوة التي يجب ان تتهيّب حيالها قوّتنا . وعندما نذكرُ التضحية والتفادي انما نعني في الغالب هذا الغرور ، هذا التضخُّم الذي لا بدَّ من بعضهِ عند كلّ منّا . اما التنازل عن الحق الطبيعيّ الصميم فلا يكون الاّ طارئاً استثنائياً . اما التنازل عنهُ بتتابع واطّراد فذلك مستحيل لان الفرد انما بذلك يجحدُ عطايا الباري فينكر نفسهُ ، وينكر علّة وجودهِ ، ويسرف في تبذير قوته الحيوية فما هو الاّ المنتحر . ولو انكر كلٌّ نفسهُ في سبيل الآخرين لكان شأن الجماعات شأن من يبني البيت ابتداءً من السقف ويجعل العرض يقتل الجوهر . التطوُّر في الطبيعة يبدأ من ادنى الكائنات الى اعلاها . والتطوُّر في الانسانية يبدأ بالفرد ، فالاسرة ، فالجماعة ، فالمهنة فالامة ، فالجنس ، واخيراً الانسانية . وارقى ما ترمي اليهِ دساتير الامم وقوانينها هو الحرص على راحة الافراد واستقلالهم لانهُ السبيل الوحيد لسلامة المجتمع وتقدُّمهِ وهنائهِ .

وحسبنا لاعلاء شأن الفردية ان نذكر تلك الشخصيات العظيمة التي ساقت العمران دهراً بعد دهر الى رقيهِ العلمي والاجتماعي والفكريّ والروحي . الغريزة الفردية اوجدت المكتشف والمخترع والمصلح والعبقريّ والقديس والرسولِ ، وكلا من هؤلاءِ الذين ينيلوننا اجنحة ننهض بها من خمول الحياة المألوفة والعادة اليومية ، فنمضي نحو غايات المستقبل ورحبات الرجاء . بل حسبنا ان نذكر السيد المسيح الذي تجرَّد من كلّ رابطةٍ بشرية ليظلّ فردية نورانية تسير في طريقها الى المجد ، الى الصليب ، الى الموت . وليس من ظرفٍ تثبتُ فيهِ اهمية الفردية المطلقة كالموت . ففي الموت يترك الفرد الجميعَ والجميع يتركونهُ . وكما يموت المرءُ وحدهُ فكذلك يحيا وحدهُ صميم حياتهِ في الآلام والمسرات في النعمة كما في النقمة !

ومع نموِّ الغريزة تنمو غريزة اخرى تلازمها ، هي الغريزة الوجدانية

العجيبة التي ترجع اليها ـ خصوصاً ـ اسباب الشقاء والهناء . الغريزة التي تكيف الطبائع وتعجن الشخصيات حتى انك لا تستطيع ان تتصورَّ المجد والجمال والعظمة والسعادة الاَّ بها ومعها . بل لا تستطيع ان تفرق بينها وبين النبوغ واعظم مواهب الانسان . فما تخيَّلت التفوق في امرىء الا وتوسمت لهُ شعوراً اقوى منهُ عند الآخرين ومن نسيج اثمن وانفس من نسيج عواطفهم . « الا المس قلبك في صدرك » ، يقول الفرد ده موسه في قصيدةٍ من اجمل قصائدهِ ـ « فهناك محراب العبقرية ! » .

ما هوسرُّ العواطف يا ترى وما هي غايتها ؟ مثلاً لماذا يتعلَّق الفرد بأمهِ فيراها فريدة بين الناس اجمعين ؟ لماذا تظلُّ شخصيتها مقدّسةً في نظره ، ايًّا كانت منها الشوائب والعيوب ، ويظلّ ذكرها ، حتى بعد مماتها ، يشجّعهُ ويعزّيهُ ويحبب اليهِ الحياة ويعلّمهُ الرأفة بالناس والإغضاء عن مساوئهم ؟

ألأنها حملتهُ في جسدها كما يقولون وغذَّتهُ بدمها قبل ان تغذيهُ من لبنها ؟ كلاًّ ! ليس للمرأة من فضلٍ في ذلك ولا هي فيهِ مخيَّرة اومتفرّدة . بل تشاركها في ذلك حشرات الارض ، ومنها من تضحي بحياتها في سبيل ذريتها وليس من يشكرها على ما تفعل .

ألأنها أرضعتهُ وسهرت على راحتهِ ومرَّضتهُ وهوضعيف قاصر؟ إن من المراضع والمربيات من يقمن بهذا مأجورات وهنَّ أتقن لعملهن من كثيرمن الامهات .

ألأنها تهيئُ لهُ وسائل العيشة وأسباب الراحة ؟ إنَّ صاحب أيَّ فندق يقوم بذلك نحو أيَّ غريب مقابل دريهمات معدودة متفق عليها .

إذن تحبُّ الامّ لأنها والوالد تعمل وتقتصد وتجاهد وتدّخر لتنيل ولدها هذا المال الذي يزيل من سبيله جميع الصعاب ويفتح امامهُ جميع الابواب ؟ ولكن قد ينالُ المرءُ احياناً ألوفاً من الجنيهات عن طريق أوراق اليانصيب فلا

يتعلّق بمدير المصرف وموظفيهِ، وقد يظفر بالمال وراثةً من قريب مجهول ممقوت فيزيد مقتهُ لهُ بالاستيلاء على ثروتهِ . فضلاً عن ان الابوين غير مخيَّرين في تنشئة ذريتهما ، بل هما مرغمان على القيام بنفقتها على قدر طاقتهما بحكم الحياة وحكم الاحوال وحكم القانون .

والابن البار يحبُّ امهُ الصالحة وهي عاجزة مريضة فقيرة منبوذة من المجتمع فيسعى جهدهُ ليقدِم لها ثمرة عملهِ وينير حياتها بابتسامة التعلل والرجاء .

إذن ما هو سبب التعلُّق الذي يدهشنا ؟ سببهُ أيها السادة والسيدات ، ان الأُمّ الصالحة هي الرمز الأعلى والاصدق والابقى للحبّ ، وما قيمة اعمالها ومساعيها الاَّ بما تفيضهُ عليها من تلك الروح المحبَّة المحيية . ألا فلتزلزل الارض زلزالها ، ولتتفجر البراكين ، وليفتك الجوع والوباء ، ولتنقضَّ الصواعق ، وليكشّر المجتمع عن انيابهِ فيحكم على الجاني بميتة العار ! ان الولد ليعلم دواماً وسط النوائب واليأس ان هناك قلباً يحبُّهُ ويشعر معهُ ويلتمس لهُ الأعذار ، ويُظلِّل عارهُ وألمهُ واندحارهُ بجناح العطف والمحبَّة والغفران ، وذلك هو قلب امّهِ . من اجل ذلك فقط نحبُّ الأُمّ ونقدّسها ونجعلها مبدأ الحبِ على الارض وفي السماء !

ولذلك نشفق على اليتيم الذي ليس لهُ مثل هذا الكنز الذي لا يثمن . واوجع من اليتمِ عن طريق الموت اليتم الذي تحكم بهِ الحياة . أي عندما تكون الأُمُّ والدة ليس الاَّ ، لا تشعر بعواطف الحنان ، ولا تدرك ما هو مجد الامومة ! يقولون « الدنيا امّ » وفي ذلك عين الصواب . فان الذي علَّمتهُ امهُ بعطفها وحصافتها الثقة يكون في الحياة عريقاً اصيلاً . وأمَّا اليتيم لنقص الامومة عند والدتهِ فيرى الدنيا حَيَّةً رقطاء تتقلب حواليهِ لتغدرهُ وترديهُ !

ومن حبّ الامّ تتطوَّر العواطف فتشمل الاب والاخوة والاخوات والاقارب والمعارف ، حتى اذا شبّ الفرد واتضحت ميولهُ لم يرضَ بالذين يسايرونهُ بحكم الرابطة الدموية والقرابة ، بل اختار اصدقاءهُ وعشراءهُ

واحبابهُ من الذين يشاطرونهُ ذوقهُ وميولهُ وافكارهُ ، او من الذين يتوسمّ لديهم ما يرفعهُ ويصقلهُ ويجعل عندهُ للحياة قيمة غير قيمتها المألوفة . ومن ذا الذي يستطيع ان يعيش بلا حبٍ وحنان ؟ وايُّ شخصية تعظم وتعلو ان لم يكن لها عين الحبّ ترقبها ، وبسمة الحبّ تغذيها ، وتلك العناية الرقيقة ، وذلك الوحي الفيَّاض الذي لا يصدر الأّ عن القلب الدافق بالحبّ والحنان ؟

ومن الغريب ان ما نسمّيه اخلاقاً طيبة وشيما كريمة ، وحكمة واستقامةً وصدقاً ووفاءً وعزَّةً وإباءً وذوقاً وفصاحة ، كلّ ذلك ليس بناتج عن العقل والذكاء ، بل كلّ اولئك اشعة شمس افقها القلب الكبير الحساس .

وهنا كذلك الصحة يهدّدها المرض لان كلمة الحبّ في بعض دوائر المجتمع لا تعني في الغالب الأّ العواطف الشاذَّة المعربدة والفوضى في السلوك التي لا يعرف بعض الناس غيرها ولا يتصوَّرون ان النورغير الاوحال . فيكون اسم الحبّ والعاطفة في شرعهم مرادفاً لمعنى التقهقر الاخلاقي . ولكنَّ اوَّل شرطٍ عندي لتقدُّم الشخصية وارتفاع النفس هوسمُّو معنى الحبّ في تلك النفس وتقديس جلال العاطفة !

وتتشعَّع القلوب بالحب وتنمو الشخصيات فتحتاج الى الخروج من ذواتها كالبذرة تشقّ نفسها وتشقُّ الارض لتبرز حياة على العالمين . عندئذ تبدو الغريزة الثالثة ، الغريزة الاجتماعية التي تبتدىء بعد الغريزة الثانية قليلاً . وتظلُّ في نموٍ واتساع وانتظام طول الحياة ، باساليب تتوافق والمجتمع الذي تعيش فيهِ وتخضع لانظمتهِ .

تذكرون تلك الكلمة القديمة التي قالها ارسطو ليعرّف ابناء عصرهِ ووطنهِ ، قال الانسان حيوان سياسي . ومرَّت القرون فاذا بفنلون يُعرّف اهل فرنسا في عصر لويس الرابع عشرفقال : الانسان حيوان اجتماعي . وكلاهما صادق في تعريفهِ لانَّ الانسان حيوانٌ سياسيٌّ واجتماعيٌّ في آنٍ واحد .

من ذا يستطيع ان يعيش بلا اصدقاء ومعارف وايُّ الاعمال يمكن ان

تقوم وتنجح بدون اشتراك في المصالح وتبادل في الاخذ والعطاء ؟ ان كلَّ بأس السجين في وحدتهِ ، والسجن الانفراديّ الذي استبدلت بهِ ايطاليا الحكم بالاعدام على كبار المجرمين وسفاكي الدماء ، يفوق جميع صنوف الموت قساوةً وعذاباً . ايها الغرباء ! كم من مرةٍ اناالتني اصواتكم التعزية ، وكم من مرة استقيت الشجاعة وحبّ الحياة من ابتساماتكم ونبرات اصواتكم ! وكم من مرَّةٍ باركتكم لذلك وانتم لا تعلمون !

ان اول دوائر المجتمع للطفل هي عائلتهُ وعائلة امهِ وابيهِ ، فالمدرسة ، فاهل مهنتهِ ، فأهل مرتبتهِ وذوي العلاقات بمصالحهِ الاجتماعية ، والمالية والوطنية والقومية ، الى آخر ما هنالك . فهذا المجتمع الذي ينشر لنا منذ نعومة اظفارنا جمالهُ ودمامتهُ ، ويقيم في سبيلنا العراقيل كما يمهد لنا السبيل ، ويقسرنا على المثابرة والعمل والجهاد وحفظ النظام ، وينيلنا وسائل التعزية واللهو والسمر والانشراح ، هذا المجتمع هو كالمادة ، كالهيولى ، في الظاهر اصل كل شيءٍ واليهِ مرجع كل شيء . لا تعزية ولا حياة لمن يعيش وحدهُ . ان الغريزة الفردية تقوّي المرء وتسلحهُ ولكن الغريزة الاجتماعية تصقلهُ وتنعّم زواياهُ الحادّة . والذي يستطيع ان يرضي ويجذب الناس اليه ، فذاك بلا ريب سعيد وموهوب . بين هؤلاء الغرباء لكلّ منّا اخ خير من كل اخ ، وصديق وحبيب يبادل وسائل الحياة ومنافع الوجود . ولكن لا ننسين ان المرتبة الاجتماعية لا تكفي لتبرير المخالطة وتوليد المحبّة والميل ، وكلما ارتقى المرء بأفكارهِ وعواطفهِ زاد تصعباً في اختيار اصدقائهِ وخلصائهِ . لذلك قالوا ان اصدقاء المرء أدلُّ الدلائل على اخلاقهِ وميولهِ ، حتى اننا لنجد في كلّ لغةٍ من لغات العالم مثلا يقابل هذا المثل العربيّ الجميل : « إنّ الطيور على اشكالها تقع ».

وناديكم هذا ، يا اهل النادي ، من تلك الدوائر الاجتماعية الصالحة المفيدة التي هي كالحياة نفسها جامعةٌ بين الفضل واللطف ، بينّ الجد والسمر . واسمحوا لي في الختام ان أتمنى ان ارى على مقربةٍ منهُ ناديا آخر مثلهُ للسيدات

فتتمُّ من حيث الاندية المساواة للرجال والنساء .

* * *

أيها السادة والسيدات

ترون ان الموضوع كاد ينتهي ، وانهُ كان عليَّ ان اغادر هذا المنبر شاكرة لكم دلائل عطفكم وانتباهكم وحسن إصغائكم . ولكن حضرة مرشد هذا النادي الاب الجليل ثيوفانوس شارّ ، قال لي عندما شرفنا بزيارتهِ لنتذاكر في شأن هذه المحاضرة والموضوع الذي يحبّ حضرتهُ ان اكلمكم فيهِ ، وبعد الثناء عليكم جميعاً والشهادة بأنكم راقون ناهضون ، قال لي : أيًّا كان الموضوع الذي تتخذينهُ ارجو ان تفتحي منهُ ساقيةَ صغيرةَ فتقولي . . . فتقولي كذا وكذا ! أريد ان أُعرب عن احترامي وطاعتي للاب الجليل ، ولكني لا أُريد ان اغضبكم . فهل توافقون حضراتكم على ساقية أبينا ؟ أُخطركم بأن الموضوع موضوع انتقاد ، فهل تقبلونهُ سلفاً ؟ وهكذا بعد ان فتحنا زجاجة الشمبانيا في العنوان ، وكسرنا الزجاجة في المحاضرة عن الغرائز الثلاث ، ها نحن نفتح ساقية أبينا شار .

لقد شاءت الطبيعة ان يكون لكل فصيلة من الكائنات ، وكل جماعة من الناس طابع خاص لا يقيّد حريتها بل بالعكس يوسعها ويطلقها في أرحب حدودها الممكنة على ان تستبقي لها شبه وجهٍ وشبه هيئة . ففي الولايات المتحدة مثلاً ، عشرة ملايين من الاصل الالماني اعتنقوا نهائياً الجنسية الامريكيّة واندمجوا الى الابد في الامة الامريكية بحكم ظروفهم ومصالحهم . وهم رغما عن ذلك ما زالوا يتعلَّمون اللغة الالمانية مع لغة البلاد الامريكية .وهم الذين بنفوذهم اخَّروا الحكومة الاميركية مدَّة ثلاثة اعوام عن خوض الحرب إلى جانب الحلفاء . كذلك اذكروا الالزاس ـ لورين فان الوحدة الفرنسية عند اهلها ظلّت عنيدة متعصبّة لأصلها ولغتها الفرنسية مدة نصف قرن ، رغم السيطرة الالمانية ورغم ما كانت عليهِ من رخاءٍ ماليّ . بل اذكروا ما تراشق بهِ في الأسبوع الماضي من الخطب

السنيور موسوليني الطلياني والهرّ اشترسمان الالماني بشأن الاقليات ذات الاصل الالماني التي سلختها ايطاليا من النمسا . ايطاليا ـ ككل دولة غالبةٍ ـ تريدُ ان تصبغ تلك الاقليات بصبغتها . وتلك الاقليات ، ككلّ جماعةٍ قوية الحيوية ـ تريد ان تحتفظ بقوميتها الاصلية ولغتها ومشاربها وعاداتها .

ان الجماعات الصغيرة التي يسميها القانون السياسي « اقليات » مهما خضعت للتطوُّر العام واقتبلت جميع وسائل الرقي العمرانيّ ، فانها تحتفظ بالحنين القديم الى لغتها واصلها ، تلتفت الوقت بعد الوقت الى ماضيها السحيق ، الى الارض التي احبَّها الآباء والجدود ، وجدود الجدود ، الى الازياء التي ارتداها السلف القديم ، الى الكلمات التي اعربوا بها جيلاً بعد جيل ، عن آلامهم وافراحهم وأملهم ويأسهم . وفي ذلك جوهر نسيجها الذي يزيد مع الوقت قوة وجمالاً بانضمام العناصر الجديدة المنخوبة اليه . وتعلمون يا سادتي ، اننا ضعفاء جداً من هذا الجانب مع اننا نسكن مصراً حاضرة الشرق الادنى اليوم ، وعاصمة النزعة الشرقية الصميمة ونعيش على مقربة من اخواننا المصريين المتمسكين بقوميتهم ، الذين يعطوننا كل يوم من شرقيتهم العريقة مثالاً جميلاً .

نحن في ذكائنا ، من اسرع الشعوب اقتباساً ومن اكثرهم إتقاناً للتقليد . ولكننا مع الاسف من أقلهم حرصاً على ذخيرة الماضي وعلى ما يجب ان نحتفظ بهِ لتكوين شخصيتنا الجديدة . نحن من أقل الشعوب غيرةً على ثروتنا النبيلة ومن أقلهم اهتماماً بلغتنا العربية الجميلة . لنا على ذلك أعذار اعرفها وافهمها ، ولكني أجاهر بأنها لا تكفي .

نصغي إلى احاديث جماعاتنا رجالاً ونساءً فاذا بهم يتكلمون لغات الاجانب كأبنائها ، ولكنهم يسيئون لفظ العربية ويفاخرون بأنهم يجهلونها . نذكر رجالنا فاذا بهم يدعون ادمون وفرننـد وهنري ويجب ان نفتش على

نورالمصباح لنجد من يدعى سليماً وحبيباً ونجيباً وخليلاً . والبنات اسمهن هورتانس وروز وبلانش ونونا ونينا الى آخرهِ ، وليس من تُدعي ليلى ونحلا وسلمى واسمى وميّا وهنداً . بيننا المتفرنس والمتنكلز والمتطلين والمتأمرك والمتألمن ، الى غيرذلك ، وليس بيننا المتعرّبِ والمتشّرِق .

فهذا هو ما اريد ان أُلفتكم اليهِ لتكون ساقية ابينا ثيوفانس الدلتا التي يصبُّ فيها نهرالخطاب ـ ان جاز هذا التشبيه ـ في بحرالانسانية : كونوا شرقيين قبل كلّ شيء !

تعلّموا ما شئتم من اللغات ، ولكن عزّزوا لغتكم اولاً ! تعلموا فنون الشعوب وعلومهم واطلعوا على اكتشافاتهم ومعارفهم ولكن اذكروا ما سبق اليهِ قومكم من المعارف والفنون والعلوم ! انشدوا اناشيد الغرب وارسموا رسومهُ ، واعزفوا على آلاتهِ ولكن لا تنسوا الناي والعود وأبا الزلوف والعتابا والميجانا ! استشهدوا بمفكّري الغرب وبشعرائهِ وكتابهِ وحكمائهِ وترنموا بشعر هوغوموسيه ولكن لا تتجاهلوا مثلاً ديوان خليل مطران .

يوم يقول الغربي أنا ابن الغرب ، قولوا : وانا ابن الشمس ، لغتي اللغة العربية ، وقوميّي القومية الشرقية . وان كان في هذه القومية إبهام وتفكك واضطراب ، فاني افاخر بطرح صوتٍ واحدٍ في سبيل تعزيزها وتوطيدها ، افاخر بأن اكون حلقةً في سبيل حبكها ، افاخر بأن اكون لساناً يردّد الفاظاً من مفرادات لغتي فيوسعها إنعاشاً وحياة .

قولوا : اني جيل جديد وأريد قومية جديدة حرّة نبيلة ، رغم الآلام والمعاكسات والمصاعب !

اقتبسوا ما شئتم من خيرات العمران ولكن اسبكوها جميعاً في قالب الشخصية الشرقية فتكونوا عاملين على إيجادها فتنتسبوا إليها في اقطارالشرق والغرب فتباهوا ولا تخجلوا .

انموغرائزكم الثلاث غرائزالفردية والوجدان والاجتماع ولكن على ان تتطوَّرجميعاً في وحدةٍ شرقية مهذَّبةٍ كريمةٍ لا تظلّ عالةً على الشعوب تعيش من فضلات ما تقتبسهُ عنها ، بل تجاهد لتقوم بذاتها وتقف على قدميها دون ان تجهل الآخرين ، بل تعطيهم كما تأخذ منهم وتتعاون وايَّاهم على تكوين جوقةٍ انسانية بديعةٍ في مسرح العمران العظيم !

«مي»

أتعرف الشوق والحنين ؟

الهلال : ج (٣٤) عدد أول مارس ١٩٢٦ ـ ص : ٥٦٨ ـ ٥٦٩ .

انقضى من الشتاء أكثره ، وتململت الارض لتستيقظ ،
واتضحت خطوط الافق كأنما هوتلقّى من روح الخليقة هيئة ونظرة واشارة،
وسرت فيه اللواعج فاذا بقبته حافلة بحضورنفس عظيمة تهتزوتنبض
وتشرئب الى ناحية معينة باسطة ذراعيها في لهفة واستعطاف .

* * *

الفأس بيد الفلاح شقت قلب الارض فتحركت فيها رواكد الحياة وفاحت رائحة البذورالتي زرعت هنا موسما بعد موسم وانتجت غلة تلوغلة ،
وتقلبت فيها كوامن الالم الابكم والكد المحتوم ،
وانتشر أريج الازهار على سياج الأسوار وعبق شذا النبات والريحان في الحدائق وذاعت رائحة النيل الذي يجرف الاوحال المحسنة والتراب النفّاح من أعالي السودان .
واشتعل لهيب الشمس فتضوعت رائحة النضج في الغصون .
واختلط عرف النمو الجديد وطفولة الحياة بعرف الجذوع الراسخة وشيخوخة الاصول . وهتف النسيم العابر ينثر عطور الربوع القصية والازهار المجهولة .
كل ما على الارض يحدث عن عاطفة مركبة لا توصف ولا تحد

وجميع العطور والمشاهد والاصوات تولد الشوق والحنين .

* * *

هاك السور يقطع المسافة ويعلن حكمة القيود والحدود .

والافنان تعرش عليه ناسجة من وريقاتها المتلازة سدولا متحركة في السكون

وبين البساتين المنسقة والرياض الغناء واسراب النخيل تنتصب الصروح والقصور ، وعلى جدرانها العارية ترقص أطياف الظل والنور .

وشريط النيل الازرق منوع الاشكال في توزيعه الري والنعمة ، فهو هنا يطوّق جزيرة ، وهناك يدفق شلالا ، ويجري من بعد نهراً تائقاً الى البحر .

وتتلألأ وراءه الضفة الاخرى بارزة المنازل بين طاقات النضارة ، وتحمل في أقصاها كتلة المدينة العظيمة تعلو فوقها قامات المآذن ، ويخفرها جميعاً حصن صلاح الدين .

وتساندت وراءها الآكام الجرداء في ألوان باهتة من الصخر والرمل والتراب المتجمد .

وامتزجت في الجوكل أصباغ السماء وأذواب الياقوت والفضة والزمرد ، مدرجة في مهاد من النور الفتي ، كأنما نحن في الساعة الاولى اذ خرجت البرية مجلوّة من يد الباري .

كلّ ما هنا رؤى متجسدة متبلورة ترى ولا تدرك

أَخبَرت الحنين الذي يحدثه مشهد ما يتحرك ويتغير كما يحدثه ما يبقى على جموده المملوء معنى وتصميماً !

* * *

أَعَرِفْتَ الشوق وقد ثار وفار ،

واطلق من وجدانك شخصاً مجهولاً منك يطمح في وجع وتفطّر الى البعيد السحيق .

أعَرِفْتَه تنبهه المحسوسات ، وتزكيه المدركات ، وتؤججه الذكريات

أعَرِفْتَه يرعى في كيانك فأنت روح تلوب ، وصوت يلهج ، ويد تلتمس ، وجوانح تضطرم ، وجنان يتسعر ، وضلوع تتفجر؟

* * *

ان أنت عرفت مرة الشوق والحنين ، وشعرت بالانكماش الاليم يملأ صدرك غماً وكرباً .

وان أنت كنت مرة ضحية الكلاّبة التي تعض على القلب بنابها القاسي ، وفريسة المطارق التي تطرق فيه بلا رحمة فتدغدغه وترضضه دون أن تقوى على تحطيمه وملاشاته ،

اذن فاعلم انك في تلك الساعة متمتع باستعداد الخالق القادر ، تضطرم في فؤادك الشرارة التي سرقها الانسان القديم من نادي الارباب الاقدمين

لأن هذا العالم انما هو ابن الصبابة والجوى ،

وما برأ الباري هذه الاكوان إلا عندما شاء عطفه أن يعرف الشوق والحنين.

ميّ

مات صرّوف

كلمة الآنسة « مي » التي تليت في المدفن

المقتطف : ج (٧١) ـ عدد اغسطس ١٩٢٧ ـ ص : ١٨٩ ـ ١٩١ .

مات صروف ، يا آل صروف ! فجعنا واياكم فيهِ ففقدناهُ من حظيرة بني الانسان. فهل رأيتم خطباً تجمعت فيهِ خسارات اكثر من هذه الخسارات ؟

مات صروف يا زوجة صروف ! فهل في جماله وكماله من قرين احوز لما يليق بك من جمالٍ وكمال ؟

مات صروف ، يا ابناء صروف واخوانهُ واقاربهُ واصدقاءهُ وتلاميذهُ ! فقولوا هل من أب وأخ وقريب وصديق واستاذ أحق من هذا بالاكبار والاجلال ؟

مات صروف ، يا ابناء الجيل القديم ! فتعالوا وأشهدوا الجيل الجديد على التفوق فيكم ، واعلنوا باجراءٍ بيان وافصح لسان ان في مثل صروف أعلى مثل يحتذى في الكفاءة والجد والتسامح والاستقامة !

مات صروف يا سوريا ! فهل بين احرارك الذين شردهم الظلم والضغط والاضطراب والشقاء من هو اطهر جناناً ، واعف لساناً ، واسمى امتيازاً ، واحصف فكراً ، واصدق نظراً وحكماً ؟

مات فتاك ، يا لبنان ! فتعال بقممك وغاباتك وارزك وهدير انهارك وقف حيال هذا النعش مسائلاً بأصواتك المختلفة « أليس بين افذاذ الامم مكان هذا الذي انجبت » ؟

مات صروف ، يا مصر ! مات هذا الذي حلّ منك في وطن هنيء كريم بعد وطن على المتنورين ضنين . فقولي هل بين الذين رحبت بهم وحبوتهم بنعمتك الحسية والادبية من هو اسخى من عقله وروحه وقلبه منحاً ؟ وهل بين العاملين لليقظة والتقدم من كان اجود واخلص في العلم والنور والتحرير الفكري عطاءً ؟

مات صروف ، أيها العالم العربي ! فهيا بمختلف مللك ونحلك واحزابك وقل هل في وسعك ان تقدم للغرب من هو أكمل تمثيلاً لجملة مواهبك وسجاياك .

مات صروفنا ، أيها الغرب ! مات الذي كان ينشر كنوز قومه وينقل إلى قومهِ خير ما تكتشف مدنية الغرب وتبدع . فكان بذلك من انبل الصلات بين الشرق والغرب ومن احكم الساعين الى محو الفروق الثانوية والتوحيد بين بني الانسان .

مات صروفنا ، يا علماء العالم . انتم الذين تعرفونهُ وانتم الذين تجهلونهُ . اعلموا انهُ اضطجع لينام نومة الابد . نصارحكم نحن الذين ننعيهِ اليكم ، ان رحيله يحدث ثلمة في صفوفكم . انهُ فذٌّ بين افذاذكم في علمهِ واستقامتهِ واخلاصهِ وهمتهِ التي لا تعرف الوهن والكلال . انهُ فذٌّ في الخلق القويم العالي الذي يجب ان يتصف بهِ امثالكم . خلق نذكرهُ اجمالاً فيقرهُ كل من عرف صروفاً . واذا ما عمدنا الى التفصيل رأينا امامنا ثلاثة ارباع القرن تامة كريمة في اعوامها وشهورها وايامها وساعاتها جميعاً .

مات صروف ، أيتها الحقيقة ! مات الذي كان من أنزه وادق من يستقرئك ويجري خلفك ويبحث عنك وراء مظاهر الخير والشر ، والاصابة والخطأ ، والفضل والنقص ، والحركة والجمود ، والدمامة والجمال ! فان تيسر أن تقفي لحظة في سيرك الخطير المتتابع فامثلي أمام هذا النعش ، نعش صروف الكبير وقولي قولك الصادق :

« هذا هو ولدي ! وهو من صميم ابنائي » .

* * *

مات صروف في الشهر الذي ولد فيهِ وقبل عيد ميلادهِ بعشرة ايام . فهو يحمل في نعشهِ سر الولادة وسر الموت ، ومعجزة الوجود والفناء في الصور والاشكال ليتم للجوهر الخلود .

مات البارحة والبدر سادر في الفضاء يلقي على الظلام غلالة الضياء . فكان ذلك رمز الخدمات التي أداها إلى اللغة والعلم والشرق والانسانية . وها هو ينزل لحده والشمس جانحة الى المغيب وهذا دليل على ان الخادم النبيل أدى كل واجبهِ ، ودليل على ان الزارع الجليل نثر لقومهِ جميع الحبوب التي جمعتها الحياة في قبضة يدهِ !

* * *

لا تبطئوا في ايداع جثمانه اللحد ، أيها المشيعون والمودعون ! فالارض المصرية التي عاش عليها عزيزاً كريماً ستحضنهُ برفق ولين ، لانهُ من اخلق الناس بعطف تربتها السخية ، ومن خير من أخذ منها وأعطاها .

لا تريثوا في انزال جثمانه اللحد بعد ان عادت روحه الى باريها . . أجل . ان الشرارة المنبثقة من الشعلة الدائمة رجعت الى اصلها . ونثرة النور المتطايرة من الشعاع الخالد غادرت هيكلها الانساني منقلبة الى مصدرها الازلي السرمدي .

فلا تبطئوا في ارجاع المادة الى مربضها لئلا يتململ الفيلسوف فيلقي عليكم من هذا المنبر درساً في ان النظام الابدي لا بد ان يستهلك حقوقهُ ويتمَّ اعماله وغاياتهِ !

ولكن قبل ان تفعلوا زودوهُ بالخيال ، بغصن من الارز وسعف من النخل ، وبشتيت من الاصوات والعطور والذرات والصور والاشكال ،

وبذخيرة من لوعة القلوب ومضض الاحزان ودموع الفراق. اجعلوا من كل ذلك للفيلسوف زاداً يتخذهُ موضوعاً لمتابعة أبحاثهِ ! زودوهُ بصور النجوم، ودقائق الكيمياء، ومشاكل الرياضيات، ودوران الفلك، وتلبد المجرة، وتقلبات الاقدار ليحللها جميعاً ويبسط لنا معانيها في رسالة وحيٍ ينفذها الينا بوسائل لا يعرفها الاّ الموتى المحبون. علنا نصير ابعد فهماً، واوسع ادراكاً، وارحب صدراً، واوعب لمعاني الحياة والموت.

أيها الصديق! ايها الاستاذ! أيها الكاتب والخطيب! ايها العلامة الحكيم! يا رجلاً فاضلاً الفضل كلهُ! أيها العظيم بوداعتك وبساطتك عظمتك بعملك وامتيازك! انت بجمودك وسكوتك تقولُ «وداعاً أيها الاحياء!» ونحن نقول بتفجعنا ودموعنا قولنا باعجابنا وشكرنا «الى اللقاء في حضن الله!».

الجزء الأول من المقتطف
بعد الدكتور صرّوف

المقتطف : ج (٧١) ـ عدد نوفمبر ١٩٢٧ . ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢ .

صدر الجزء السابق من « المقتطف » بعد وفاة الدكتور صرُّوف بنحو ثلاثة اسابيع . صدر مخططاً بالسواد حداداً عليهِ . وأُفردَت صفحات من ذلك الجزء لتلخيص ترجمة حياتهِ وتأبينهِ والتحدُّث عنهُ . على ان بقية الصحائف كانت مستمدة من وجوده ، طافحةً بنفثات قلمهِ ، ناشرةً آثار جدّهِ وإجتهاده .

وهذا الجزء هو الاوَّل بعدهُ ، الاول من مرحلةٍ جديدة ستجيء خالية من نفثات قلمهِ وثمرات بحثهِ وعلمهِ ... كالخيال مرَّت تلك الشخصية الكبيرة العاملة في هدوءٍ ورزانة ، المنعكسة في مرآة هذه الفصول وهذه المجلدات خمسين عاماً متوالية بلا توانٍ ولا انقطاع .

ان صورة الخيال في المرآة صورة قديمة مألوفة . ولكنها كبعض الاستعارات الفريدة التي اهتدى اليها الاقدمون ، كلٌّ من ناحيته ، في اكثر اللغات ـ بليغة صحيحة لا يستعاض عنها بغيرها لتمثيل الحياة الفردية الزائلة . وكلما جرت على يراعةٍ بشرية أو خطرت في فكر بشريّ برزت كأنها بنت ساعتها وباكورة مبدعها .

ذلك لانَّ من الاسماء والمسميات والاستعارات ماهو بعيد الغور بمعناهُ

وبمذخرهِ يقتضي استفهامهُ واكتناهه كلما ورد لنا ، حتى ولو تكرَّر ذلك التوارد كلَّ يوم مرات وعرفنا تلك الكلمات والتشبيهات منذ أقصى عهد الطفولة.

وفي مقدمة تلك الاوضاع فكرة الموت وما يكنى بها عنهُ . الموت الجمّ الالغاز ، الغزير الاسرار. . . الذي نزعمُ انهُ خيالٌ في مرآة الحياة في حين ان الآجال خيالات في مرآتهِ ...

* * *

تكاثر التساؤل بعد وفاة الدكتور صروف عن معتقده الدينيّ عموماً ، وبوجه أخص عن رأيهِ في العالم الآخر . ووجَّه بعضهم طائفة من الاسئلة إليَّ ، وهم مرتابون في ان يكون لديهِ رأيٌ من هذا النوع . بل كانوا يميلون الى ان هذا العالم الرياضي النشوئي كان يقصر همهُ تحت ما يقعُ تحت الحسّ ، ولا يذهبُ بيقينهِ الى عالم الغيب ، هذا إن لم يكن من جاحديهِ على الاطلاق.

وجواباً على هذا أقول ان عالمنا العظيم كان يعتقد بوجود عالم آخر وكان شديد التشوُّق إلى ولوجهِ من باب الموت . وقد ابدى هذا التشوق مرات عديدة امام محادثيهِ وأقرانهِ في العلم والادراك ، وبسطهُ في بعض رسائله الخصوصية ، كما ألمع اليهِ بلهجاتٍ مختلفة خلال أبحاثهِ في « المقتطف »

وهاك شيئاً من ذلك في احد خطاباتهِ الخصوصية :

« ولا ادري لماذا لا نقنع انفسنا ان الدار الدنيا مرحلة من مراحل الابدية ، اننانجهل ماضينا تمام الجهل ولا نعرف مستقبلنا معرفة يقينية . ولكننا نود ان تبقى عقولنا وان ندرك بها ما نعجز عن ادراكه هنا من غوامض هذا الكون . انا اتوق الى ذلك وامني به نفسي كل يوم وكلما وجدت في بحثي مشكلاً يتعذر عليَّ حله .

« مرضت مرة بالتيفوئيد وقطع الرجاء مني ولما علمت ذلك فرج عني وتجردت عن الدنيا بعد ان ودعت زوجتي الوداع الاخير ورتبت امر معيشتها ومعيشة

اولادي . وصرت اتوقع الانتقال ساعة بعد ساعة وانا اتوق اليهِ . ولم يخطر ببالي الا انني سأتمكن من معرفة ما وراء الغيب ومن حل ما اشكل عليَّ في هذه الدنيا . ولو عاش الناس كلهم في هذه الدنيا منتظرين الاخرى لانتفى اكثر ما فيها من الشرور والآلام وانكسرت شوكة الموت » .

هذا رأيه في الموت من اغمض نواحيهِ . اما هذا « المقتطف » الذي كان شغلهُ الشاغل مدة نصف قرن ، فكثيرا ما كان يفكّر في ما سيصيرُ اليهِ بعدهُ كما يتساءل احياناً عن حكم الاجيال التالية فيه .

وهذه جملة في هذا الباب وردت في رسالة خصوصية :

« لا ادري ما يكون حكم الاجيال المقبلة على العمل الذي قمت بهِ . أينظرون اليهِ بالعين التي تنظرين اليه بها فيغتفرون زلاته أو لا يرونها ويشيدون بحسناته او يطرحونه في زوايا النسيان . ان عاشت العربية فالراجح عندي انه يقوم اناس منصفون يغتفرون العيوب ويقولون انني فعلت ما ينتظر مني كله أو أكثره .

* *

واجب نشر هذين الرأيين من أدائهِ في الجزء الاول بعده . ومرجوّي ان يتاح لي ان اقدّم بعدئذ صورة حية صادقة ، بلا غلوّ ولا انتقاص من الدكتور صرّوف ولا حاجة في تصويرها الى غير ما خطتهُ يدهُ في ابحاثه ورسائلهِ .

لنقدّر عمل صروف يجب ان ننقلب عائدين الى الوقت الذي انشأ ينشر فيهِ العلوم الرياضية والطبيعية والتاريخية منذ خمسين عاماً ، يوم كانت العلوم في مجموعها بيننا كلاميّة بيانية لا بحث فيها ولا تحقيق ولا تمحيص . ولنقدر عملهُ يجب ان نذكر انهُ كان يكتب أبداً بانشاء الايجاز والإحكام ، دون التغاضي عن لفظةٍ واحدة الا في تحتمها لاتمام الموضوع أو لجلاء المعنى . وذلك يوم كان الانشاء كله استعارات ومغالاة وإعجاز في البيان والبديع

فكانت هذه البذور الحيَّة النفيسة التي نتلقاها اليوم من يدهِ ومن مجموعة « المقتطف » في عهدهِ . ونحن ننظر الى مستقبلها بعين الثقة والرجاء لانَّ صاحبها هو الذي اختار من يكون أميناً عليها ، عاملاً على استغلالها وإنمائها والتصرف فيها والسير بها في طريق فتحهُ مجدها القديم ، واوسعت فيهِ احكام التطوُّر والحياة المتعاقبة المتجددة .

* * *

هذه كليمات تحتم إرسالها في هذا الجزء من « المقتطف » بعد الدكتور صروف وقد حاولتُ ان أحبّرها بصفاء ذهن وتغلب على العاطفة ، إذ لا يجدر التحدث عن هذه الشخصية العلمية إلاَّ بهدوء وتبصر .

ولكني في الختام لا يسعني إلاَّ ان اذكر انَّ بين الجزء السالف وهذا الجزء انفتح هناك في مصر القديمة قبرٌ أودعناهُ عزيزاً . ولا يسعني إلاَّ ان اقرر انَّ هذا شهر نوفمبر ، شهر الموتى ، شهر الذكرى للراحلين .

لا يسعني إلاَّ ان اذكر ان بيت الدكتور صرُّوف خلا منهُ ، وان تلك السيدة النابهة ، قرينتهُ المتسربلة بالوقار والكمال ، وان ابناءهُ واخوانهُ واصحابهُ ما أداروا الطرف إلى مكانه الفارغ إلاَّ ليبحثوا عنهُ وهم قانعون في حزنهم — انهُ ليس فيهِ .

لا يسعني إلاَّ ان اذكر انهُ كان الصديق العاقل الوديع الطيب العطوف ، في هذه الحياة التي كثر عندها اسم الصداقة وندر معناها الصميم .

أذكر انهُ لن يأتِ بعد إلينا بالجسد فلم يبق لنا الاَّ محاولة المضيّ اليهِ بالاذكار .

اذكر اننا لن نرى بعد وجههُ الصالح الباسم ، ولن نرغد بعد بوجوده المحسوس ومظاهر عطفهِ فننقلب هؤلاء الناس الضعفاء الذين تخنقهم العبرات ..

« مي »

هجع جبار الوادي(1)

إلى أم الشعب الحزينة الباسلة . إلى السيدة صفية سعد زغلول .
اقدم هذه الكلمة باحترام .

« ميّ »

في « كلمات » قاسم أمين التي جمعها ونشرها أصحابه بعد وفاته كلمة شائعة بين الكاتبين وهي أنه « في ١١ فبراير ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق . وكانت المرة الأولى يوم دنشواي » .

هذه الكلمة تلخص فيها تاريخ وجيز حصيف . ولو شئنا اليوم أن ندون كلمة من نوعها دون علو ولا استسلام عصبي للحزن الشامل لقلنا أن سعداً سيطر على قلب مصر ثمانية أعوام متوالية . فكان مولى ذلك القلب يثير فيه ما شاء من إنفعال وحماسة ويبعث فيه ما أراد من رضى واستسلام .

ثمانية أعوام هي صفحة تاريخية وهاجة وقصيدة حماسية رائعة ، وعلواء جليلة باقية في عمر أمة كان سعد شاعرها وبطلها ومنشدها وموقّعها فطرب لها المصري وغير المصري على السواء ، وتأثر بها الموالي والمعادي فقال كل قولته وعزز كل فكرته . ضرب سعد علي وتر حساس جوهري هو وتر الوطنية والقومية والحرية والاستقلال فتحركت معه عديد الأوتار وتنبهت في الأمة الاستعدادات والمواهب والمطالب .

(١) افتتاحية « الأهرام » عدد يوم السبت في ١٩٢٧/٨/٢٧ .

ثمانية أعوام كنا نتصفح خير مثيلاتها في تواريخ الأمم السابقة واللاحقة فنغبط أهلها عليها ونتساءل هل لشرقنا أو لقطر من أقطاره أن يعرفها في أدواره الحديثة ، فإذا بسعد يخلقها في مصر خلقا وإذا بصوته العجيب يشيع في أجوائها فيوجد الروعة رهيباً ، ويبعث الحمية عاصفاً ، ويطبع القلوب على اليقين متصلباً ، ويطلق على الشيوخ والشبان حياة واحدة دافقة من كل صوب في تنوعها . إن عمد ذلك الصوت الأخاذ إلى التريث والترفق تمددت منه اصداء تلتصق بقلوب النساء فتثير فيها مع حب الأوطان ظمأ التحنان وتهتاجها لاستماع كلمات الولع والهيام .

ثمانية أعوام هي اعوام اليقظة . حقاً إن سعدا شاعر اليقظة ، وبطل اليقظة ، وخطيب اليقظة ، وزعيم اليقظة وفي اليقظة جميع عوامل الحياة وآمالها وشعائرها وأسرارها .

أهو الذي حبا مصر بهذا الفيض الحيوي ، أم هي التي أمدته به فقوي بقوتها ونطق بلسانها وسطا بسلطانها ؟

أهو الشاعر يأتي للسامعين بالوحي العجب فيستهويهم أم هو الجمهور ينفث في الشاعر بما يصبو إليه ويتطلبه ليذوق النشوة ويحلّق مع مبدعها ؟ .

لا ريب أن الأمرين مترابطان متفاعلان . فللجمهور ارادة صامتة ، وأماني راكدة ، وحياة تريد أن تنجلي وتتوزع في سبل الخير والنفع والجمال . على أنه في حاجة إلى شخص فرد يدرك مقاصده ويلمس ممكناته فيحسن تكيفها وينشرها أمامه جلية واضحة . ولذلك الفرد بعدئذ أن يظل مستوحياً تلك الآمال ، مستنداً على تلك الارادة التي هي ميدان تصرفه ، وممرح اقتداره . وحذق سعد كل ذلك واعتلى منصة الزعامة فإذا بالفلاح الصغير وقد أصبح معبود الأمة وقائدها ، وإذا بمنزل الرجل المصري الواحد وقد انقلب « بيت الأمة » بأسرها .

وسرعان ما تناول العوامل المحيطة به فاستغلها خير استغلال

وأرسلها إلى قومه مشاعاً ممتزجاً في حياتهم اليومية .فالعلم المصري الذي غرس مصطفى كامل حبه في أبناء جيله صار في عهد سعد شعاراً نابضاً اشركته الأمة في أحزانها وأفراحها ، وكان للعلم المصري دور خطير مثله في هذه الأعوام .

والقومية المصرية التي كان أحمد لطفي السيد (الذي نتمنى له العمر الطويل والهناء الكثير) أول كاتب مصري دعا إليها وقال بتجردها من الصبغة العثمانية على أن تجمع بين العنصرين المصريين المسلم والقبطي ، تلك القومية كانت يد سعد عاملة على توثيقها كما كان صوته خطيبها القدير .

وتحرر المرأة الذي نادى به قاسم أمين فأثار تلك الزوبعة الهوجاء ، حققه سعد في إشارة واحدة ، وأيده لسانه في خطب كثيرة ، كما قدم منه مثالاً مهيناً في شخص المرأة الواحدة التي تعيش في ظله ، في شخص حرمه المصون السيدة صفية زغلول .

° ° °

لم يكن هذا الرجل يوم مصرعه بأعظم منه في أي يوم من أيام هذه الأعوام المتلظية . إن قصيدة « اليقظة المصرية » متماسكة متكافئة في جميع مقاطعها ، كل مقطع وفقاً لطبيعته وأحواله ، فكانت الخاتمة منها خليقة بالمطلع ، ومثله زاخرة بالآمال والأحزان والهتاف والعبرات .

ولقد أحسن مجلس الوزراء ، بل هو قام بالواجب في ما قرره بالأمس لتخليد ذكرى الفقيد تخليداً « حكومياً » (إن صح الوصف) على الوجوه التي ارتآها . فتمثال سعد يجب أن يكون قائماً في ميدان عظيم في كل من القاهرة والاسكندرية ولا بد أن يقوم كذلك في مسقط رأسه . ويجب أن يعالج المرضى في مستشفى سعد ، وأن تسمى المدارس والملاجئ باسمه والبيت الذي ولد فيه « بيت الأمة » يجب أن يكون في عداد الممتلكات العمومية والآثار الغالية ، وإن يجمع فيه كل ما تداولته يد سعد في حياته على

على أن تبقى كل أداة في موضعها ، وأن لا يتغير شيء في مكتبه وغرفته عما كان يوم وفاته .

هذا بعض ما يصنعه المحبون للراحل المحبوب اذ على يد سعد ظهر من قلب مصر ما هو أنفس من التقدير والاحترام والإكرام ظهر الحب والتعلق والعبادة . ان مصرا « تحب » زعيمها كما قالت « الأهرام » في افتتاحية الأمس ، وسعد هو الرجل المحبوب . ولا يوقظ هذا الحب الحار الطويل العنيد في قلب كبير الا من كان ذا قلب كبير يملك أن يحب حباً طويلاً حارا عنيداً .

إن سعدا هو فتى مصر المحب المحبوب في حياته وفي مماته .

غدا يتناول أساطين القلم والتاريخ عمل سعد السياسي والدولي بالتمحيص والتحليل بعد أن شغلوا بهذا الموضوع أخذا وردا ثمانية أعوام تترى . أما أنا التي كان لي منها حظ ابناء جيلي ، حظ اليقظة ، أنا التي لم أكتب عن سعد زغلول جملة واحدة في حياته ، أود اليوم أن أذكر له ثلاثة أفضال لا غنى عنها في يقظة شعب يفتح عينيه لنور الحياة ، فقدّر لها أن تتم بهذه السرعة على يد سعد العظيم .

أني كنت من أول المتأثرين بحمية هذه الأعوام . ففيها نشأت ادرك معنى الكلمات الحيوية وأفهم مصاعب الشرق ومصائبه . فيها شعرت باحتياج إلى وطن وتألمت لعاطفة الغربة الوجيعة وإن كنت لا أخشى التكرار فأذكر اليوم لسعد زغلول هذه الأيدي الثلاث فلان في كل منها حرية أعظم من الحرية السياسية وأفعل . ولأن ما في مصر في البلدان العربية الأخرى من ارتباك وسوء تفاهم ومعالجة هذه المشاكل هنا بإرادة الزعيم الأعظم جعلتها أقل عسراً في غيره من الأقطار .

الأمر الأول هو الجمع بين عناصر القطر بلا تفريق في العقيدة والطائفة ومزجها في قومية مصرية واحدة . فسعد المسلم المصري الصميم كان ارحب

ادراكاً وأشمل تقديراً لمعنى القومية بمعناها العصري الذي هي صائرة حتماً إلى إنمائه مع الزمن ، وجمع الأمة كتلة واحدة في يقين واحد وأغراض متشابهة للجميع .

الأمر الثاني هو تحريك الطبقات وفتح السبيل لمن كانت السبيل مغلقة في وجوههم وتمهيد الطريق لبروز الشخصيات التي لولاه لظلّت مجهولة في المرتبة التي ولدت فيها . ففعله من هذا الجانب فعل نابليون على ما بينهما من بون شاسع الذي حرك قوى الفرنسيس وقلب نظام المراتب فخلق الشخصيات الجديدة ويسّر الظهور لغير الظاهرين المعروفين .

والأمر الثالث هو تحرير المرأة . فبإسم سعد اجترأت المرأة المصرية على رفع صوتها ، وتحت لوائه سارت مواكب النساء في الشوارع وهتفت بحياة الوطن والحرية والاستقلال . وفي ظل سطوته تلقى الجمهور اسم المرأة وهتافها وتعود أن يستمع لمطالبتها في تهيب واحترام ، ولولا ذلك لكان زارياً واجماً وهل من عامل أقدر على تقدير المرأة من أن الزعيم العائد من المنفى تلك العودة الفخمة المنصورة ــ يستهل خطابه في فندق سميراميس شكراً على احتفاء عظماء قومه به فيقول « سادتي وأرجو أن أبدأ خطابي في محفل قريب بقولي « سيداتي وسادتي » لأن للمرأة المصرية قسطاً من الفخر في جهاد الأمة » فيقابل هذا الكلام بالتصفيق الحاد المتواصل .

وهل من عامل أقدر على السفور من أن يدخل الزعيم سرادق السيدات بعد عودته من المنفى فيأبى البقاء فيه إلا إذا أسفرت السيدات المجتمعات لإستقباله . وسابقت يده لسانه في ما أراد فمد يده ضاحكاً يرفع الحجاب عن وجه أقرب السيدات إليه . فكان ضحك ، وكان تصفيق ، وكان تهليل وأسفرت الحاضرات بعد ذلك التحجب فكان ذلك اليوم عنوان تحرير المرأة . وفهمنا منه قول قاسم أمين في تقديم كتابه « المرأة الجديدة » إلى صديقه سعد زغلول .

« منك وجدت قلباً يحب وعقلاً يفتكر وإرادة تعمل. أنت الذي مثَّلت إلي المودة في أكمل أشكالها فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها » .

وكانت حرم سعد أولى من تجمع حولها قلب الجمهور فألف تقدير المرأة في هذه الأعوام فخرجت فيه غير مرة خطيبة ، واعلنت عليه البيانات موقعةً باسمها ، وكان يوم سفرها للاجتماع بزوجها المنفي لا يقل حماسة عن أي يوم من أعظم ايام الانتصار لمصر في ايامها المشهودة ، وسفرت في صورتها فرأينا مثالاً من السفور الكريم والجلال الذي لا يلجأ إلى تظاهر أو تنطع أو دعوى .

* * *

اليوم يوم النفي ، يا زوجة سعد ، اليوم يوم الوحشة . اليوم يوم الإغتراب الطويل . هجع الجبار العذب القاسي ، هجع جبار الوادي . وبقيت أنت قيمّة على اللهيب الذي اذكاه ، وتلقيت أنت من ذكره ذلك المغناطيس الذي كان وسيظل مستولياً على القلوب ، فعالاً في النفوس . كل هذه الأعوام كانت فجراً وسيعقبها نهار وهاج محتوم . فكوني أنت المرأة التي نعهد تضم إلى قدرتها الشخصية قدرة القدير الهاجع . وارفعي في هذه الأمة صوتك لتذكريها أنها سائرة إلى الحياة رغم الخطوب الجسام والخسارات الفوادح .

الشعب يتيم يبكي أباه ، ولا يخفّف الجوى إلا صوت الأم الحنون . فاستبسلي يا أم الشعب الباسلة ، وهمهمي في مصابك بكلمات حلوة رقيقة . كلمة العزاء يجب أن تأتي من المرأة وأنت اليوم تلك المرأة لأنك أنت أنت ، لأنك زوجة الفلاح العظيم والمصري الصميم ، لأنك سيدة بيت الأمة لأنك في قلب مصر الجريح القلب المتفطر الدامي .

ألقي في النفوس بسحر الجبار الهاجع وارسلي على الجماهير روعة

صوته وقولي لأبنائك أن سعدا واحد منهم ليس غير فعليهم أن ينشطوا ليكون كل منهم في الطليعة ! قولي كلمة المؤآساة ، أنت التي تتهافت القلوب لمؤآساتك ، أنت التي فقدت فيه الأب والأخ والزوج والولد جميعاً ! تكلمي من صميم تفجعك لتشحذي الهمم وتشددي عزائم الرجال وتقوي قلوب النساء ! قولي بوجوب العمل وقولي باتحاد العناصر ، وتآلف الأحزاب ! قولي إن الوقت خطير يحتاج إلى الشخصيات القوية والحب والإقدام والجهاد ، وقولي ان الوادي يجب أن ينجب ألف ألف سعد على كر العصور ، وأخيرا قولي هذه الكلمة العظيمة التي ستجيْ منك أوقع ما تكون :

« ليس كل مجد الأمم قائماً بعظمائها الأحياء ولا بد لها مع جهاد هؤلاء من قبور عظمائها الهاجعين لتستمد من جوانبها النور والعزم والشجاعة » .

« ميّ »

حياتنا الجديدة
يجب أن تكون مليئة بالثقافة والنشاط

المقتطف : ج (٨١) ـ عدد يناير ١٩٣٢ ص : ١١ ـ ١٢ .
مهداة إلى المجمع المصري للثقافة العلمية بمناسبة انعقاد مؤتمره الثالث .

تتوارد الأسماء عديدة في خاطري عندما أتوق إلى التفكير في مُثُلٍ عُليا للحياة المليئة النبيلة . ولكني اذكر بوجه خاص يعقوب بوهمه (Bœhme)، الفيلسوف الألماني الروحاني الذي عاش في القرن السادس عشر . كانت المهنة التي يتعيش منها وضيعة حقيرة ، إلّا انه مع ذلك عكف على الدراسة والتفكير فحصل منهما على أكبر قسط يفوز به عالم ، وكانت حياته النفسية زاخرة واسعة فياضة بتلك العوامل التي تخلق من الفرد العاديّ شخصاً متفوقاً هو في الواقع من ابهى الأنوار الانسانية .

إن قابلية اصطناع الثقافة والانتفاع بها في تكوين أفرادٍ ممتازين لا تحصر في حرفةٍ ولا في مرتبة .هي ارث انساني عام .نجدها باديةً بين العبيد في شخص ابكتتس العبد الروماني الذي صار بعدئذ من أعظم فلاسفة الرواق،كما نجدها في زميله الرواقي ، ماركس اوريليوس انطونيوس ، القيصر العظيم سيد روما في القرن الثاني قبل الميلاد ، الذي خاض المعارك ورفع من شأن بلاده وحارب ضد البرابرة المهاجمين امبراطوريته فانتصر . على أن نشوة النصر

وأبهة الملك لم تحل دون ثقافته الفكرية ونموه النفسي . فكان هو أيضاً في طليعة فلاسفة الرواق . و « أفكاره » التي سجلها لبني جيله وللآتين بعده تعدّ انفس صفحة خطها صاحب عرش وتاج .

قد يكون المرء من أوسع الناس ثروة ونفوذاً ومن ارغدهم عيشاً ومن اوفرهم خلاّناً وهو مع ذلك يعبر الحياة شبحاً ويقضي شبحاً . أما اذا كان ذا ثقافة نيرة وحياة نفسية واسعة فلكل من كلماته مغزًى ، وفي كلٍّ من أعماله مثل ، ينثر النور حوله في حياته حتى إذا قضى تجمّع نوره لتتسع بهِ وراثة النور بين ظلمات بني الانسان .

ومن أظهر الفروق بين الأجيال الغابرة وجيلنا الحاضر أن الثقافة والعلم حتى الطب كانوا في الماضي محصورين في فئة خاصة من الكبراء والكهان ، لذلك كانوا يحسبونه « سحراً » . ولم يكن ليقتبس العلم من الصغار وبني الشعب غير الذين كانت مواهبهم اظهر من أن تتوارى وأقدر من أن تُغَلّ . أما اليوم فالعلم ميسور للجميع ، وانتشار الثقافة وسهولة التحصيل من أهم مميزات عصرنا .

وللثقافة العصرية ميزة أخرى لمن يريد اصطناعها واستغلالها . فهي ليست نظرية صرفة تسجن صاحبها في « برج من العاج » ، ولا هي عملية صرفة تهبط بصاحبها إلى دركة العمل الآليّ والإنتاج في غير انتباه . بل هي تتناول النظريات لتوسع بها الفكر وتصقل الملكات وتغني النفس ، ثم تطبّق تلك النظريات على الواقع وتحققها في الأعمال اليومية كبيرة وصغيرة فتثبت أن أجمل صيغ الحياة وأجلّها وأنفعها هي التي يمتزجُ فيها نبلُ المثلِ الأعلى وجدوى العمل المحكم .

لا رقي للمجموع إلّا بواسطة رقي الأفراد . ولا رقيّ للأفراد إلّا إذا تجمعت فيهم شتى العناصر الصالحة التي تنشدها الانسانية من رشاد وتفكير وعمل ونشاط وصلاح وإقدام . العمل بدون ثقافة حركة بغير بصيرة ،

والثقافة بدون عمل بصيرة مشلولة ، فلا بدّ من امتزاج هذه بذاك لتصبح النفس مليئة بالحبّ ـ ذلك الحبّ الذي يرهف الذكاء ، ويولّد الحماسة ، ويذكي النشيط ويقوي ثقة الفرد بنفسِه ويفرض عليهِ العمل الرشيد في سبيل الخير لجماعتِه .

كثيراً ما نسمع ونقرأ كلمات المباهاة بالماضي . ولكن علينا أن نذكر إن ليس للأجيال الحاضرة في ذياك الماضي يداً . ولا نفع لذكرى الماضي إلاّ إذا كانت حافزة لاستئنافِهِ في الحاضر لاعداد المستقبل ، لأن الشعوب لا تعيش على ماضيها ، بل الماضي يحيا في نفسه وإن هو كان له صوت فليفرض على الحاضر أن يكون حقيقاً بهِ . وقد استيقظت هذه البلاد باكرا منذ فجر التاريخ فخلقت حضارة اقتبس عنها الغرب ما اقتبس فأنماه إلى حدٍّ بعيد . وبالشرارة التي نستردّها اليوم من الغرب علينا أن نحيي شعلة العبقرية السحيقة لنفهم أوعب معاني الحياة وأجمل وجوه الحياة ولنهتدي إلى أحكم وأصلح ما في الحياة من أسباب ووسائل .

* * *

هذه خطرات هي في الواقع تمنيات لنا جميعاً في مطلع العام الجديد . وهي كذلك تحية لمجمع الثقافة العلمية بمناسبة انعقاد مؤتمره الثالث . إن أعضاء هذا المجمع الكريم رجال جمعوا في حياتهم بين نبل النظرية وإحكام العمل ، كلٌّ في بابه الخاص وبمواهبه الخاصة . وبمؤتمرهم السنوي إنما هم يخرجون من دائرتهم المحدودة ليذيعوا الفائدة في الجمهور . فتحية حارة لأغراضهم النبيلة ومثلهم العالي ! تحية حارة لهذه النواة الحيوية التي يخلقها مجمعهم مؤدياً فيها أجمل مثال من امتزاج النظرية والعمل !

« ميّ »

الفن والأدب

١

في حضارة مصر اليوم[1]

توطئة

المقتطف : ج (٨٣) يوليو : ١٩٣٣ ص : ٨ ـ ١٤ .

ختم المرحوم الأستاذ كليمان هيار المستشرق الفرنسي ، كتابه في تاريخ « الأدب العربي » (١٩١٢) بقائمة للصحف والمجلات التي صدرت خلال القرن التاسع عشر ـ ونقول عرضاً أن تلك القائمة لا تخلو من الخطأ في نسبة بعض الصحف إلى غير أصحابها وفي التاريخ الذي عينته لصدور صحف غيرها . ثم عقب على كتابه الهام بكلمة مجملة نقد فيها الأدب العربي كما كان قبل ثلاثين عاما وأشار إلى بعض ما ينتظر منه في المستقبل . فقال فيما قال :

« عرضنا في الصفحات السابقة صورة لآداب شغل ازدهارها ونضجها وانحطاطها ثلاثة عشر قرنا ، منذ مطلع القرون الوسطى إلى يومنا هذا . ثم أنسنا في الجذع القديم تجددا بفعل الأفكار الحديثة وبفضل انتشارها ، ووجدنا أن طائفة من فروعه حملت أزهارا ـ فضلا عن ذلك الغصن العارض الذي تطعم به ، أعني الصحافة الدورية . فأي مستقبل يتهيأ لهذه الثقافة

(١) كتاب « حضارة مصر اليوم » عني بنشره قسم الخدمة العامة بجامعة القاهرة الاميركية والتزمت طبعه المطبعة المصرية بمصر .

المتجددة ؟ أنجيءٌ محضٍ تقليد للعصور المدرسية (كلاسيك) ؟ أم اللغة ، وقد أرغمت على التحوّل والتطوّر لتترجم عن أفكار طريفة ، ستغنم من فتيّ التعبيرات ما يحرّك رواكد المستودع القديم باعثاً فيه نسمة الحياة ؟ .

« يخيل لأول وهلة أن أوساطاً للنشاط الأدبي كالقاهرة وبيروت ، لهي جديرة بإخراج أدباء يتابعون الحركة التي بدأت على يد أسلافهم في القرن التاسع عشر ... وبأي الأدوار تقوم اللغة ؟ أتتحوّل وتنمو فتصبح اوفر وضوحاً وأقرب الى جماهير أنصاف المتعلمين المتخرجين من المدارس الابتدائية ؟ .

« الجواب لمن بحث هذا الموضوع لا يستطيع أن يكون إلاّ نفياً ، لأننا لا نلمح في قطر من الأقطار ما يشبه تلك الحركة التي تناولت اللغة التركية إبان الثلاثين عاماً الماضية فجردتها من بيانها العتيق . ما فتئت اللغة العربية غارقة في الاستعارات القديمة وهي لا تستعمل بالتبع سوى جمهرة من التعبيرات التي لا يتأتى فهمها إلاّ لأهل الثقافة ... مما يحول دون اتصالها بالعامة لتحدثها في ما يهمها من الشؤون إن مقالة سياسية « تحترم نفسها » (كذا) لا يمكن أن تكتب بغير النثر المسجع . وبلاغتها التافهة العقيمة ، ومرادفاتها الرامية إلى محاكاة مقامات الحريري إنما هي للقاريءُ المثقف أفكوهة ليس إلاّ ...

« أما ما نود أن تأخذ بهِ اللغة العربية في المستقبل فهو جلاء التعبير وبساطة الأسلوب . فإذا جاء يوم يحقق هذه الأمنية استطعنا التنبؤ بعهد زاهر للآداب العربية . ا هـ » .

١ ــ اللغة في دور التطور

نقلت هذه الفقرات لأنها تقرير لما كان واقعاً في ذلك الوقت . ولم ينفرد كاتبها بالنقد بل ساهمهُ فيهِ المستعربون من زملائِه الأجانب وكان الألباء من

أدبائنا انفسهم أبعد إمعاناً في تبيان العيوب . وقد تعمدت نقلها لأنها تعيّن حقبة من الزمن نذكرها فلا نخجل . ففي ما يوازي الوقت الذي شهد فيهِ الأستاذ هيار للغة التركية بالتقدم ، أي في ثلاثين عاماً لا غير ، تفلتت العربية من كثير من الحشو واللغو والتلمظ والغلوّ البديعي والابهام الذي كان يشينها في دور الجمود . وهذا تقدم يذكر في نظر الباحث المنصف ، نظراً للوراثة اللغوية الباهظة التي ترهق أدباء هذه اللغة . في ثلاثين عاماً تطورت عندنا اقلام ، ونضجت أقلام ، ونشأت أقلام فكانهما جميعاً أن تعمل كل بوسائلها وفي بابها لتخلق أدباً جديداً . والاعتزام اول مراتب النجاح . بيد أن النجاح في نواحٍ هامة من البيان جاز مرتبة الاعتزام الى دور الانتاج والتحقيق .

ولما كان هذا البحث قاصراً على مصر قلت ان المقابلة ولو السطحية بين طائفة من المقالات نشرت إحداهما قبل ثلاثين عاماً وتنشر الأخرى في هذه الأيام ـ تلك المقابلة كافية ليتضح أن أول ما يسترعي الانتباه في النشاط الفكري الجديد هو أسلوب الكتابة . لقد حررت اللغة في كثير من الكتابات الحديثة ، مما كانت تخفي به افتقارها ا، الفكر الحي والعاطفة الحية . والسجع الذي كان أفكوهة للقارئ المثقف ، بات كبواقي الأطلال المنزوية التي يجب أن تجدّ في البحث عنها لتهتدي إليها ...

أول بواعث التطوّر :

الثقافة الحديثة كانت أول بواعث هذا التطوّر . فهي التي نبهت الأدباء إلى حالة العالم اليوم ، وعلى ضوئها رأوا ماضيهم المنوّع العظمة ولمحوا مستقبلهم كيف يمكن أن يكون . وهي التي لفتتهم إلى ممكناتهم وأفهمتهم أن لا وسيلة لإستغلال تلك الممكنات بغير النشاط والعمل . وهي التي قالت لهم ان الذي يكتفي بما هو فيه قد يكون مومياء نفيسة توحي إلى العلماء الرغبة في البحث والاستقصاء ، ولكنهُ لا يستطيع أن يزعم أنه العقل المولد والكائن

الحي . وبالجملة كانت الثقافة الحديثة المقتبسة عن الغرب أول أدوات التعديل والاصلاح في يد المستيقظين . وإذا استيقظ امرؤ من سباته ظهر في صوته وفي تعبيره ما ينمّ على يقظته من الفكر المنتظم والقول المنسجم والبيان المباشر مع إعراض عن اللغو والتفكك والغموض القمين بالذين يتكلمون في نومهم ... ان كلمة الحياة تختلف عن كلمة الموت .

اللغة والصحافة :

تجرد واندثار من الناحية الواحدة ، في حين اللغة من الناحية الأخرى تزيد كل يوم رشاقة ومرونة وتوسعاً بما تضمه إليها من الكلمات والأسماء والتعبيرات المتطابقة وحاجاتها . والصحافة التي كان الأستاذ هيار يتوسم فيها خيراً – قامت بنصيب وافر في إحداث هذا الانقلاب . فقد تعددت الصحف وتعددت صفحاتها ، وتنوعت أبوابها وأغراضها فحفلت أعمدتها بالمباحث والموضوعات والآراء ، وانتظم تلقيها المتتابع لأخبار العالم وحوادثه العمرانية والسياسية والعلمية والفنية وغيرها سواء أبواسطة التلغرافات العمومية والخصوصية أم برسائل مراسليها من الخارج ، أم بما ترى نقله عن صحف الشعوب الأخرى من المفيد والمفكه معاً . فاضطرت الى اقتباس المفردات الجديدة أو تعريبها أو ابتكارها في كل عدد من أعدادها تقريباً . وكان لها بطبيعتها أن تذيع وتكرر ما تبتكر وتعرّب وتقتبس وتصوغ فجاءت الفائدة مزدوجة : إذ ان المستحدث من الألفاظ والتعبيرات صار في متناول القارئ كل يوم ، إن هو أخطأه يوماً أو أسبوعاً أو عاماً تغلّب عليه حتماً في النهاية فاحتل مكانه من تفكير القارئ ومن تعبيره . وتيسّر كذلك لأهل الثقافة وعلماء اللغة مناقشة تلك الألفاظ والتعبيرات واستبدالها بخير منها في معناها ، إذا استطاعوا . والمجلات الشهرية التي كانت قد مهدت لذلك ساعدت هي والكتب الجديدة في تحقيق هذه الغاية . إلاّ أن القارئ هنا شأنه في سائر البلدان ، لا يتفرغ للكتاب والمجلة الشهرية إلاّ إذا كان من

الاختصاصيين أو من هواة الثقافة ، في حين أن جميع الأيدي تتداول الصحيفة الأسبوعية وبخاصة الجريدة اليومية .

وإلى الصحيفة اليومية يعود فضل تركيز اللغة في مستوى من البيان يرضي الخاصة ـ الخاصة غير المتحذلقة ـ ويرفع إدراك العامة إلى أفق أوسع وأرقى . حتى أَلِفَ أحاديث الصحف ليس خريجو المدارس الابتدائية فحسب ، بل ألفها حتى الجمهور الذي « يفك الحرف » فيفهم منها شيئاً وتغيب عنه أشياء . ويذهب طبعاً في اللحن والتكسير على هواه ، إلاّ أنهُ على كل حال يحذق أهم ما تبغي الصحيفة إيصاله إليه من الأنباء والموحيات .

أثر الحركة القومية في اللغة :

وليس لمؤرخ منصف أن يغضي عن أثر الحركة القومية في تقريب اللغة إلى افهام العامة وفي إنالة الأسلوب الجديد بساطة وحياة . فالحركة القومية التي تلت الحرب الكبرى هزَّت في مصر جميع النفوس ، وحفزت جميع القوى ، وجعلت الأميّ كالمتعلم يتطلع إلى مماشاة الحوادث في سيرها ليكون دوماً على أهبة للاشتراك مع بني وطنه في إعلان العاطفة الوطنية وتأييد المطالب القومية . والكتّاب كالزعماء الراغبين في جمع القلوب حولهم ، كانوا يشعرون بوجوب التمشي على منهج لا يستعصي على أحد فيسبكون أقل ما يمكن من الأفكار الجوهرية في أقل ما يمكن من الألفاظ البسيطة والصيغ المؤثرة لتستقر في الضمير العام بلا عناء فيتخذها الصغير والكبير أنشودة للحماسة والاخلاص . ومن ثمَّ ، أي منذ الحركة القومية ، نشأت تلك العادة التي ما زالت شائعة في هذه الأيام ، وهي اجتماع نوبيّو الدار الواحدة في حلقة حول بواب الدار وأصحابه والمختلفين إليه ، فيتولى أحدهم قراءة الجريدة والآخرون يصغون في اهتمام وانتباه . ولا ينفضّ جمعهم إلّا بعد تبادل الآراء في ما يسمعون ويقرؤون .

وقامت المعارضة السياسية والخلافات الحزبية بدور فعال في تطوّر اللغــة لأن الأدباء والكتّاب الذين اشتركوا بطبيعة الحال في النضال السياسي اتخذوا صحف احزابهم منبراً لدعايتهم ، وكل يبغي التفوق على مناهضيهِ في المناظرة اليومية التي لا تهادن ولا ترحم .. ومضوْا يلتمسون أساليب حية سريعة ملتهبة ، سخرت فيها البديهة الحاضرة وسعة الاطلاع وتنوع الحيلة وبراعة التعبير لإصابة المرمى ،فتمخض كل ذلك عن بيان ليس هو ابن قرون وأجيال ، بل هو وليد يومِهِ ومستوحى ساعتِهِ . وتلك المشاحنات الأليمة ــ على عديد مساوئها ــ كانت دافعة إلى تجنب الرواكد القديمة والاستقاء من الينابيع الحية . وفي ذلك دليل آخر على أنهُ في الإمكان دائماً استخراج الخير من الشر بوجه من الوجوه . .

من الجدل السياسي إلى البحث الأدبي :

قد يقال ان مثل هذه المشاحنات لا تمتُّ إلى الأدب بصلة . صحيح . ولكن الاستعارات الجامدة والمهلهلات القديمة كانت في حاجة إلى هذه العاصفة الجبارة التي اكتسحت عجاجتها في اعوام قلائل ما قد كان يقتضي لجرفِهِ عمل جيل أو جيلين .

وبعد ، فمن ذا الذي ينكر أن النفس الفردية أو النفس القومية إذا هي استفِزّت من ناحية واحدة فلا تلبث عوامل اليقظة أن تتمشى إلى سائر أنحائها ؟

اولئك الكتاب الذين شغلوا بالنضال السياسي في بادئ الأمر ، انتبهوا فوراً إلى أن موضوعهم الرئيسي يرتبط بشتيت الموضوعات ، حتى السلبية في الظاهر ، ارتباطاً وثيقاً . وبنفس الروح الحية التي كانت تملي مقالات المناقشة الحزبية أخذوا يعالجون الموضوعات الأدبية والاجتماعية والفنية والفكرية مما يعلي المدارك ، ويفتق قوى الملاحظة ، ويصقل الفكر ويثقف

الشخصية القومية من مختلف نواحيها . وتبدّى لهم وللجمهور الذكي أن الكتابات التي كانت تعد بالأمس « خيالية » و « شعرية » إنما هي في الواقع دلائل على يقظة نفسية بعيدة لا بدّ من الوصول إليها . في حين أن ما كان يحسب « بلاغة » و « فصاحة » صار لا يحسن إلاّ للعرض في متحف الآثار ...

وافتقار مصر إلى شركات الطبع والنشر بحيث أن الكاتب عندما يشرع في تأليف كتاب عليه أن يفكر أيضاً في كيفية طبعه على نفقته الخاصة ثم في توزيع نسخه على المكاتب ـ هذه العقبة أيضاً كان لها أثرها في تنويع موضوعات الصحافة ، لأن الأديب والكاتب وجد في الصحيفة أضمن وسيلة لإذاعة فكره وترويجه دون خسارة مالية ودون عناء عقيم . وعليه فإن وجهاً من أهم وجوه تطوّر اللغة وتطوّر الأفكار بمصر تجده مدوّناً في الصحيفة اليومية والمجلة الشهرية خلال الأعوام الأخيرة . وأجزم بأنه في هذه وتلك أظهر منه في المؤلفات الحديثة ـ وإن كان لهذه شأنها الخطير وكان بعضها مجموعاً من مقالات ذات موضوعات متناسقة نشرت في الصحف .

صحيح ، ولكن ...

تقرير تطوّر اللغة هو تقرير للواقع ، ولكنه لا يعني أن كل من حمل قلماً يكتب بالأسلوب الذي وصفت ، بل يعني أن خطوة حاسمة تمت في هذا الباب وأن الوقت ضمين بإصلاح العيوب الباقية . ان أنصار القديم كثيرون جداً وهم على درجات : بعضهم يسيرون في حركة التجديد بحذر ، وغيرهم يجارونها في اعتدال ، ويرى آخرون في هذا التجديد الانحطاط كله ولكاس يندبون حظ اللغة العربية ويصنفون لها المراثي شعراً ونثراً لولا أنهم ، لحسن الحظ ، موجودون يجددون بلاغتها القديمة ببلاغتهم ويحرصون على اللهيب الدهري منكرين كل وقود حديث لتغذيته ! وأسلوب المجددين ليس كله من طراز واحد ، ومنهم من لا يفوز بالتخلص من الاستعارة القديمة وإن ابتكر هو استعارته فهي رجع لاصداء غير جديدة . إنما يتسم المجددون

بالسرعة والرشاقة والحماسة والفكر المليّ وإحكام التعبير إجمالاً . ويحرص أنصار القديم على هندسة الانشاء ومتانته ، وينسقون توازن الجمل وإيقاعها ويدققون في معان وأغراض إضافية لا يتسع لها صبر المجددين ولا وقتهم . والمعارك القلمية التي تنشب الوقت بعد الوقت بين هؤلاء واولئك تأتي بالترتيب بعد المعارك الحزبية في الشدة والعنف . ومن الغرور أن نزعم أن الأسلوب الجديد بلغ منتهى الكمال أو أنه خلص من شوائب الجدة نفسها ـ ولكن نزعة الكتّاب حرية بالإعجاب .

وعلام لا نقول أن كلاًّ من الفريقين على حق في الوجود وعلى حق أيضاً في وجهة نظره ؟ فأنصار القديم ـ كأشباههم في كل أمة وكل زمن ـ يخفرون تراث الماضي واثقين من أن الأدب المستحدث لن يأتي بخير منهُ ولا بما يدانيه . وموقفهم لا يخلو من الفائدة للمجددين لأنهُ يحملهم على تمحيص نزعتهم وتهذيبها ، وقد يفيد في إرهاف تلك النزعة وفي تعجلها ايضاً . وبخاصة لأنه لا يندر أن يستوحي المحافظون الأفكار الحديثة التي يقاومونها . أما أنصار الجديد فهم الذين يضيفون إلى السجل القديم فصولاً جديدة بلهجة جديدة ، وهم الذين يستأنفون تاريخ اللغة التي عبرت من قبل عدة أطوار خلال القرون الغابرة ، وفقاً لما كانت تتأثر بهِ من ثقافة وتتصل بهِ من حضارة . أترى أدب الأندلسيين هو هو أدب الأمويين بعينهِ ؟ أوَ لم يختلف أدب هؤلاء نفسهم حقبة بعد حقبة في صفحة تاريخهم ؟

وإلى جانب أنصار القديم وأنصار الجديد طائفة من الكتّاب والصحافيين والادباء جمعت بين محاسن العهدين وهي في الغالب تفوز بتحبيذ هؤلاء واولئك ـ الاّ عندما يهاجمها فريق من ناحية اللغة وفريق آخر من ناحية الفكر...

٢ ـ الأدب الحديث :

ليست هي الألفاظ ولا هو الأسلوب ما يؤبه لهُ في مسألة اللغة الأدبية . للاسلوب قيمة في نفسهِ من حيث هو صيغة فنية ، وما الألفاظ إلاّ تفاصيل في تلك الصيغة . ولكن الشأن الأعظم في العقلية والنفسية التي تترجم عنها الألفاظ ويصورها الأسلوب . والعقلية والنفسية في مصر الحديثة آخذتان في التغير ، وما الأدب الجديد الاّ اعراب عنهما . فهو بجوهره قد شذّ عن تعريف ابن خلدون القائل أن « المقصود منهُ (الأدب) عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فنيّ المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ... » . الإجادة على أساليب العرب ومناحيهم ؟ هذا ما لا يريده الأدب الحديث لأن مثل هذه الإجادة تخلق الأديب الراوي والأديب المقلد ، لا الأديب المنتج المبدع . وليس هذا الاباء ليعني الطعن في اساليب العرب ومناحيهم ، بل بالعكس ترى أن ادباء اليوم يعنون كل العناية بدراسة تاريخ الأدب وبتحليل شخصيات قدماء الأدباء والشعراء وبحث التأثيرات التي أحاطت بهم في بيئتهم فأوحت إليهم . وقد صدرت كتب عدة في هذا الباب ، وعولجت شخصيات الشعراء والناثرين وما زالت تعالج في المحاضرات العامة وفي مقالات الصحف اليومية وفصول المجلات الشهرية ، بدراية وحذق لم نعهدهما من قبل .

ولكن الأدباء يفهمون تلك الآثار على حقيقتها . يرونها حسنة في ذاتها لتوافقها والوقت الذي كتبت فيهِ ، لتصويرها العصر الذي اوحاها ، لكونها قطعة حية من الفكر الذي املاها والشخصية التي رسمت ذاتها فيها . أما إذا قام اليوم فرد يكتب بتلك اللهجة وينتحل تلك العقلية فهو بذلك معلن عجزه عن مجاراة السلف في استعداده للحياة التي هو ابنها ، وفي تلقي التأثيرات الخاصة المحيطة بهِ لتكوين شخصيته وفقاً لعصره .

وقيمة هؤلاء الأدباء الجدد في كونهم حقًّا ابناء العصر الذي ولدوا فيهِ . وأي عصر مدهش هو ، يصطدم فيهِ حولهم الماضي الذي ما زال حيًّا

في بيئتهم بالحاضر القائم والمستقبل المهاجم . في كل بلد من بلدان العالم إجفال من هذه المفاجئات العلمية والاجتماعية والفكرية العاملة على تكييف الأقوام تكييفاً لا يعلم أحد مداهُ ، مع أن تلك البلدان كان التطور فيها متتابعاً متسقاً جيلاً بعد جيل . أما في مصر فقد بلغ الإجفال أشده لاستيقاظ الجيل الجديد وقد باغتت فكره ثقافة مليئة زاخرة مكتسحة . فهو يدرك كل ما يخسره إن لم يأخذ بأسبابها ، ولكنهُ لا يستطيع بالسرعة التي يبتغيها لأنهُ من الناحية الواحدة عليهِ أن يكافح جميع العقبات الداخلية والخارجية القائمة في سبيله ، وهو من الناحية الأخرى لا يريد أن يفقد شخصيتهُ في انتحال الحضارة الغربية بحذافيرها ، بل يريد منها ما يوافق طبيعته وموقفه بين الشعوب ، ويريد أن « يمصر» ما يقتبسه قدر المستطاع . فلئن وجد الجيل الجديد في يقظته شيئاً كثيراً من بهجة الحياة فهو يجد كذلك أن نصيبه من الحيرة والاضطراب والقلق والمسؤولية أكبر . يشعر بالأجنحة تصطفق على كتفيه ولكنه يشعر بالقيود مثقلة يديه وقدميه . ومن مجموع هذه الادراكات والاحساسات تتكوَّن شخصيته الأدبية الجديدة . وهي فوق ذلك شخصية ذات عزم وشجاعة وإقدام ، غير راضية عما هي فيه ، ساخطة من نتاجها الأدبي تشكو أبداً جمود الحركة الفكرية وترجعها إلى شتى الأسباب . وهذه الشكوى أدل ما تكون على ما يصطخب في النفوس من عديد الرغبات والنزعات .

وقد أقلع الأدب عن الموضوعات الكلامية وخاض ميدان الحياة القومية يكتشفها ويحللها وينقدها مشيراً إلى وسائل التجديد والإصلاح في الثقافة والتعليم والاجتماع والاقتصاد وتحرير المرأة وتحرير الرجل أيضاً . الأديب يشعر مع قومه ويتكلم عنهم ، يستوحيهم ويملي عليهم ، يأخذ منهم ويعطيهم ، يتلقى منهم صامتاً الفيض والخصب ويمدهم في كتاباته بالخصب والفيض . ينظر في حاجتهم وألمهم وفرحهم وعيبهم وأملهم فيستلهم حبة قلبه ومجموعة مطالعاته واختباراته ليدلهم على وسائل النهوض . إنه لأدب شائق

متحمس حارغيور. وعندي أن بينا هذا المجهود يكون شخصية الأديب ويمكنه من استغلال قدرته وإنمائها فهوكذلك يقود القارئ إلى استكشاف نفسه ويبعث فيه الشوق إلى استغلال قدرته الشخصية ، ويعينه على تكوين شخصيته الخاصة . وهكذا بفضل الأدب الجديد تتنوع الشخصيات في المجموع ، بدلاً من أن تكون كلها على غرار واحد شأنها في الأمم التي هي في حالة البداوة والفطرة . ويخيل إليَّ أن هذه الخدمة هي من أهم ما يقوم بهِ الأدب الحديث .

« ميّ »

الفن والأدب

٢

في حضارة مصر اليوم

المقتطف : ج (٨٣) ـ **عدد يوليو ١٩٣٣ ص ١٦٤ ـ ١٦٩** .

٢ ـ نظرة عجلى في أقسام الأدب :

الأدب الحديث في جوهره أصح الآن في مصر منه في كثير من البلدان الأخرى حيث شغلوا بمشاحنات لا طائل تحتها حول ما يسمونه المذاهب الأدبية . فلا رومنتيكية عندنا ، ولا رمزية ، ولا مستقبلية ، ولا غيرها . الخصومات تدور حول الجديد والقديم مما سبق ذكره ، وإن نشطت الخصومات في التطرف تناولت موضوعاً طارئاً أسموه الأدب المستور والأدب المكشوف . وفي ما عدا ذلك فالنزعة العامة واحدة رغم التفاصيل الثانوية القليلة .

الشعر والنثر :

الأدب النثري يسبق الأدب الشعري بمراحل . ألصعوبة التجديد في الشعر العربي ؟ لست أدري ولكني أدري أن كثيراً جدًّا من القصائد التي ننعتها كسلاً أو مجاملة بالعصماء قد كان يمكن أن تنظم في أي عصر من العصور الغابرة ، وما زالت قصائد « المدح » شائعة عندنا . وإذا استثنينا فئة صغيرة

من الشعراء المطبوعين الذين يستوحون موضوعات جديدة ويطلقونها في نفس جديد ولو في صيغة قديمة في الغالب ـ فيمكننا أن نقول بأننا لا نلمح في الشعر الحد الحاسم الجلي الذي نراه في النثر ولئن انضجت الحركة القومية عدة مواهب شعرية فإنها لم تخلق شاعراً واحداً تفرد بجبروته الفني فأرسل الصيحة التي تغزو القلوب وتفتح النفوس فتحا مبيناً .

فنحن في هذا والشعوب الأخرى سواء ، لأننا لا نعرف شاعراً واحداً جباراً خلقته الحرب في أية لغة من اللغات ، بل القحط الشعري يبدو في كل مكان . وقد يكون هذا راجعاً إلى روح العصر الذي نعيش فيه . وقد يكون النثر الفني صيغة أوفق لاختباراتنا الشعرية في هذه الأيام .

وانما هناك ملاحظة لها أهميتها الاجتماعية ، وهي أن الشعراء يخاطبون المرأة في قصائدهم بضمير المؤنث ، وقد كانوا من قبل يستعملون في مخاطبتها الضمير المذكر وقد أقلع كبار الشعراء عن الأساليب المألوفة في المدح والمفاخرة ، ولكن قصائد الرثاء تجري أنهاراً كلما غمّض امرؤ عينيه ليمضي إلى باريه . ولماكان الموت على رقاب العباد ... !

أما النثر فهو الذي يبدو فيه الخصب والتنوع والثروة والحياة ، وخلاله ترتسم الشخصيات الأدبية ، وهو الرسالة الادبية العالية التي تبدع ابداعاً في هذا التطور الحاضر . لا أظن أن اللغة العربية في أي عصر من العصور السالفة عرفت مثل هذا التنوع الذي نشهده اليوم . فالموضوعات الأدبية والسياسية والاجتماعية والقانونية والعلمية والتهذيبية والفنية والتاريخية شيء مألوف يقع تحت أنظارنا كل يوم ، ومنها ما يضاهي أحسن ما يكتب في صحف الغرب دقة وإحكاماً في رشاقة ولباقة . والمقالة تفوز بالجائزة ـ لو كان هناك مسابقة ـ بين سائر أقسام الأدب . ويجاري فن المقالة فن الخطابة والمحاضرة فهو اليوم في مصر أرقى ما يكون ، بل قد يبدو لك تدرجه عاماً بعد عام من حسن إلى أحسن . ومن دواعي السرور أن المرأة أيضاً تعتلي

المنبر وتخطب في الجماهير الغفيرة فلا تكون أقل تأثيراً من أمهر الخطباء وأشهرهم ، حتى في موضوعات عصبية ، والمسلمة والمسيحية في هذا سواء . وهناك الكتب المترجمة والمؤلفات العديدة في كل فن وخبر ، تبحث في الاجتماع والتاريخ والأدب والفلسفة والأخلاق والعلوم الفنية .وغيرها وصف جميل للرحلات والأسفار ووصف لعادات الشعوب وخصائصها ووسائل تقدمها . وغيرها ذكريات شجية وترجمات عن حالات نفسية . وغيرها يبتكر أدباً للأطفال يستوحيه المؤلفون من قصص الشرق القديمة وأحاديث رحاليه ، أو يقتبسونه عن آداب الغرب ...والرواية كذلك تحصحص هنا وهناك ، ولكن فن الرواية يتطلب وقتاً آخر للنضج . لأن الرواية تخلق عالماً تاماً مستقلاً في ذاته لهُ خصائصه وسيكولوجيته ووجوه نزعاته وفكرته الخاصة ووجوده المتصل بمحيطه المنفصل عنهُ في آنٍ واحد ، فهو يتطلب من العزلة والسكون ما لا قبل لأدبائنا بهِ في هذا الوقت لانهماكهم في عدة موضوعات في آن واحد ، وعندما ننظر إلى كثرة ما ينهب وقتهم من المشاغل نعجب كيف استطاعوا أن يؤلفوا هذه الروايات على قلتها ونعجب من وفرة ما ينتجون .

أما القصة الصغيرة فقد تقدمت بالعدد أختها الكبيرة . وقد قصر بعض الكتاب نشاطهم عليها فنجحوا خصوصاً في القصة الوصفية ، وستليها حتماً القصة السيكولوجية .

ولا مندوحة عن أن يجاهد الأدباء في وضع الرواية العصرية لوصف هذه العادات وتسجيل هذه التقاليد في مجتمع هو سائر بطبيعة الحال نحو العادات الأوروبية . فالحجاب يتناثر منهُ كل يوم ، ووجوده وحي كبير للأديب المستعد لتلقي هذا النوع من الوحي . وهذا الفن الروائي لو هو وجد بمصر يصبح فريداً في بابهِ بين صنوف الروايات العصرية بسبب هذا الحجاب نفسه وبسبب جميع الحوادث السيكولوجية التي تخلقها في النفس صعوبة اللقاء

بين المحبين ـ ما دام الحب هو « الحبكة » التي لا تقوم لرواية قائمة بدونها ، مع ما يستفزه من خفايا الطوية ويعلنهُ من غامض الأسرار.

كذلك تفتقر إلى النقد وإن كان ما يكتب في النقد غير قليل . ولكن أكثره إما يرمي إلى المجاملة والثناء وإما يبغي الطعن والتحقير . ويندر جدًّا البحث النقدي النزيه الدال على تمام استيعاب الناقد لموضوعه وعلى اكتمال نضج شخصيته من نواحٍ شتى . والغريب أن نفس الكتّاب الذين يجيدون في نقد كاتب غربي وتحليل شخصيته يكونون أقل إجادة وبخاصة أقل إصابة عندما يبحثون شخصية أدبية مصرية حديثة . وعندي أن الناقد البارع روائي على نوع ما ، وان الرواية والنقد إن هما تحاذيا اليوم في تخلفهما فسيكونان كذلك متحاذيين في تقدمهمـــا لأن الكثير من خصائص الناقد السيكولوجية هي نفس خصائص مؤلف الرواية .

الأدب الشعبي أو أدب العامة :

في مصر أدب يجب أن لا يهمل . هو أدب العامة الذي ندر من عني به من الأدباء ، مع أنه قادر على إخراج جنى خصيب طلي لو اهتم كل كاتب بحكايات مديريته واقليمه فدوّن ما يتناشده الشعب الساذج في حفلات الأعراس والمآتم ، وما ترويه الرواة عن أبطال القرون الغابرة . غير أن فرعاً من ذلـك الأدب في ازدهـار ، أعني الـزجـل ، الشعر العامي الجميل الذي يفصح عن الروح المصرية برشاقة وطلاوة وباللهجة المصرية لهجة التخاطب العادي والمحادثة اليومية وقد تألفت حديثاً « رابطة الزجالين » قرب عدة جماعات أخرى أدبية وثقافية ـ أخذ الله بيدهم جميعاً !

إن لكل اقليم بيانه الأدبيّ المروي الذي يترجم عن الروح القديم في أساطير وأناشيد باللغات العامية ، وحكايات تضمنت اعتقادات سرية مقبلة عن أعماق الدهور ، وذكريات حب وحنان وتضحية وتفجع ، ونفثات

شعرية ذات سحر مستغرب حضان . ألحان الشعب وأساطيره وحكاياته تعبر عن خلقه القيم وصبره وإحتماله وتحدث عن عبقريته الفطرية وعن آماله وأحلامه . ومن الخسارة الفادحة أن تهمل تلك الآثار وتلك الألحان لأنها صائرة شيئاً فشيئاً إلى النسيان والفناء .

٤ ـ الفن :

الأدب النثري أرقى الفنون جميعاً وأنضجها وإن كان بعض الفنون أوسع رواجاً في الجمهور وأقرب إلى تذوق العامة . وهاك ترتيب الفنون بموجب رقيها وتقدمها :

١ـ التمثيل . ٢ ـ النحت والرسم والتصوير . ٣ ـ الموسيقى .

التمثيل :

هذا أظهر الفنون في مصر تقدماً . وقد برزت فيه شخصيات موهوبة عرفت أن تكسب الأدوار التي تمثلها روعة وتنوعاً واستطاعت أن تبعث فيها نفحة حيوية غنية .

والتمثيل يرتبط بالأدب وبالتأليف المسرحي وبالحركة الفكرية والاجتماعية وبتطور اللغة . فنطق الممثلين والممثلات فصيح بالاجمال ، وأوضاعهم المسرحية في تقدم محسوس . وقد ترجمت إلى العربية روايات من غرر الأدب المسرحي في العالم فجاء بعضها متطابقاً والأصل الذي نقلت عنه ، و « مصّر » غيرها تمصيراً ليتفق وذوق الجمهور ، ومسخ غيرها مسخاً . وقد عني جماعة من المؤلفين بوضع روايات باللغة العربية فنجح بعضها نجاحاً عظيماً ، وكان للمرحوم شوقي بك الفضل في استيحاء موضوعات قديمة من تاريخ مصر وتاريخ العرب وصوغها في روايات مسرحية شعرية ونثرية . ويمكن القول ان التأليف المسرحي الآن في حالة التكون والنقاد المسرحيون أبرع في ملاحظاتهم وانتقاداتهم من نقاد الكتب الحديثة .

وقام في الأعوام الأخيرة التمثيل السينمائي يسابق التمثيل المسرحي وهم الممثلون في المسرح الذين يسابقون أنفسهم على الشاشة الفضية : فما أشق هذه الجهود وما أكبر هذا الاقدام ! وهم يعنون في إدخال آثار مصر الفرعونية أو آثار الاسلام بمصر وغيرها ـ في كل رواية سينمائية تقريباً مع عرض بعض العادات والتقاليد خلال تلك المناظر المتعاقبة . ولكن الى الآن لم نر رواية واحدة مستكملة النضج السيكولوجي والفني ، بيد أنه يمكن البت في أن التمثيل السينمي المصري لن يقف عند هذا الحد .

النحت والرسم والتصوير :

باستثناء فرائد فنية وموسيقية سبقت التقدم المسرحي من حيث كمال الصنعة ونضج الفكرة ـ يمكن ترتيب المنتوجات في هذه الفنون الثلاثة بعد الفن المسرحي وقبل الفن الموسيقي . في المعارض السنوية الرسمية كما في المعارض الجزئية العديدة تستطيع أن تهتدي إلى شخصيات فنية هي على ثقة من وحيها ومن مقدرتها في اتقان الصنعة معاً ، فترى أنها تتقدم عاماً بعد عام في إحكام الصلة بين وحيها وبين افصاحها عنه .

وعدد المشتغلين بهذه الفنون كل سنة في تزايد. وليس التقدم ليبدو في الكمية وحدها بل في الكيفية أيضاً . يشهد بذلك الذين زاروا معرض أقيم من هذا النوع قبل ١٤ عاماً ، فهم يزورون معارض اليوم فيسبحون الله ولا يبطرون ! ولئن كان الفن إلى الآن يستوحي الصناعة الأوروبية والفكرة الأوروبية فالفنانون يميلون إلى إخراج موضوعات مصرية . وعلام لا تنطلق يوماً الوراثة القديمة الكامنة في فناني هذه البلاد فيبتكرون فنًّا حديثاً هو غير فن الغرب ؟

الموسيقى :

الموسيقى الوترية أرقى من الموسيقى الصوتية . فمن العازفين من يعزف بفطرته الموسيقية وبسليقته الطروبة . ومنهم من يتبع الأساليب الحديثة التي روجها نادي الموسيقى الشرقي من ضبط الألحان بالنوتة وتوقيعها على أصول الثقافة الموسيقية في الغرب ، وهو تجديد لم يعهد من قبل في تعليم الموسيقى العربية .

يتسنى لك أن تسمع من بعض « التخوت » أو جوقات الموسيقى الوترية أو من الأفراد العازفين على مختلف الآلات ـ عزفاً هو في منتهى الجودة والاتقان . لولا أن مجموعة الألحان تستمر غالباً على وتيرة واحدة وليس من الميسور أن تميز الفرق بين القطعة وأختها .فكلهنّ يتشابهن فيما بينهنّ ، مما يثير الملل عند الملم بالموسيقى الغربية الذي ألف فيها التنوع والتفنن والتلوين إلى مدى لا يحد .

أما اقرب الفنون إلى الجمهور الكبير من مختلف المراتب فهو الموسيقى الصوتية ، والناس على اجتماعات الطرب والانشاد أشد إقبالا منهم على أية حفلة فنية أخرى ، ويرون في الحفلات والسهرات نقصاً وجفافاً إن لم يشجها الغناء ويلقي في جوها عاطفة الشجن الشرقي التي لا توصف . إنما ترتكن الموسيقى الغنائية في مصر على صوت المغني أكثر من ارتكانها على فن الغناء . وهنا أصوات جميلة حنونة مؤثرة ، إلاّ أن أحسن ما تنشده في نظري هو الأدوار القديمة بألحانها القديمة بما فيها المواويل والقصائد الغزلية . وأكثر ما يسمونه « تجديداً » في الغناء خير له أن لا يكون . لأن بعضه مقتبس عن الموسيقى الغربية التي لا تعتبر من الفن في شيء بل هي من النوع التافه (musiquette) ، والبعض الآخر تطويل وتباطؤ وإعادة وتكرار . ما زالوا يمدون في الآهات وقتاً طويلاً جداً ويعيدون « يا ليلي يا عيني » في تبسط وتراخ يستحيل معه الصبر لأعصاب تنظمت للطرب المحكم . بيد أن الجمهور

يحب ذلك التطويل المخدر للأعصاب ويستلذه ، والمنشدون يماشون ذوق الجمهور ولكنهم لا يثقفون فيه العاطفة الفنية ولا مقدرة لهم على ازدجار تلك العاطفة وانهاضها من تثاقلها الدهري . وعلى ذلك ما زال العاشق في الأغاني يسهر الليل مناجياً النجوم بموضوع حسرته وجواه ، وما زال قلبُه يذوب وروحه تكتوى بنار الغرام والمحبوب ـ ما أقساه ! ـ لا يرحم المتيم المسكين ! والعذول ـ لحاه الله ! ـ ما زال واقفا بالمرصاد يريد الإيقاع بالعاشقين!

والمغنون يحملون نفوسهم فوق طاقتها لأن كلاً منهم يأبى الاّ أن ان يكون منشداً وملحناً في آن وأحد ، وهو أمر لا يتفق مع قانون تقسيم العمل ولا مع الموهبة الفنية . فالإنشاد شيء والتلحين شيء آخر . وقد يكون الملحن صاحب صوت غير حسن وغير قابل للتوقيع المطرب . ولم يشذ عن هذه القاعدة من كبار الموسيقيين في الغرب الاّ النفر اليسير.

ولكن ما لا ينكر هو الجهود العظيمة التي يبذلها أهل الفن . وإن لم يبد إلى الآن شيء يصح أن يسمى تجديداً بمعنى التقدم في نظر الناقد الخبير فذلك راجع إلى صعوبة هذا التجديد في موسيقى لا قائمة لها إلاّ بالنغم فقط ولا تقبل طبيعتها التطرق إلى فن اصطحاب الأنغام الذي قطعت فيه موسيقى الغرب شأواً بعيداً . مهما ضاعفت الآلات في الأركسترة أو ضاعفت الأصوات في النشيد فأنت لا تكون إلاّ مقوياً النغم الواحد ومفخمه . وهذا مشكل كبير لا حلّ لهُ إلاّ بتنويع النغم تنويعاً بارعاً ينزع عنهُ ما يرافقهُ عادةً من التراخي والملل ، على أن يبقى لهُ النكهة الساحرة ذات العوارض الخفية الدقيقة التي تحتفظ للموسيقى الشرقية بطبيعتها الخاصة . ثم يجب الإكثار من الأناشيد الحماسية في موضوعات مشوقة تستولي على قلب الجمهور وتعلمهُ التجاوز عن الموضوعات الغرامية الكثيرة إلى ما لا صلة له بالعشق والغرام والدلال والنوح .

الخلاصة :

الخلاصة أن الحركة الأدبية والفنية في مصر شيء ذو وجود محسوس ، في بعض نواحيه تقدم وفي بعض نواحيه تأخر ، ونواحيه الأخرى بين بين . غير أن النشاط لا يمكن إنكاره .

الصورة التي رسمتها هنا مطابقة للواقع في تقديري . وأنا لم أعتبر في الأدب والفن إلاّ كونهما تعبيراً عن الروح الجديدة الناجمة عن اليقظة القومية ، هذا التعبير الفني والأدبي الذي هو من أدل الدلائل على ثقافة قوم وحضارتهم وعلى مبلغ ما اكتمل من تكوّن مجتمعهم . والفن والأدب يدلان على أن المجتمع الجديد هو فعلاً في حالة التكون . وهذه الحركة سائرة إلى الأمام بلا ريب بفضل انتشار التعليم وتنوع الشخصيات والاحتكاك المتتابع بالحضارة الغربية والاشتراك اقتصاديًّا وفنيًّا وأدبيًّا وسياسيًّا وعلميًّا في جميع المشاكل الطارئة على العالم .

عندما نقول « قديم » يفهم من هذه الكلمة عهد الفراعنة ثم عهد الاسلام ، وعندما نقول جديد يفهم الحضارة الغربية بوجه عام . ولكن الموضوع في نظري أبعد مدًى وأكثر ارتباكاً إذ ليس من بلد كمصر هبطته جميع الشعوب وضربت فيه جميع الحضارات وانتشرت فيه جميع الثقافات واختلطت دماؤه بجميع الدماء . فمن العناصر الفرعونية إلى العناصر المكدونية إلى اللاتينية فالإغريقية ، فالعربية بتنوعها العديد ، فالتركية وما كان ينضم تحت لوائها من العناصر العثمانية الكثيرة ، إلى عناصر أوروبا الجديدة كلها تقريباً ، إلى غير ذلك مما يحصى ولا يحصى ــ جميع هذه العناصر تتمخض الآن وتصهر في الشخصية المصرية الكبرى . والمصريون الذين زاوجوا خلال تاريخهم الطويل شتى الشعوب ، ما زالوا اليوم يزاوجون الشعوب الغربية ، وهذا الأمر ــ على ما يستوجبه من الانتقاد في بعض الوجوه ــ يصب الدماء الشتيتة في دم هذا البلد القديم . فهنا العالم كله في حالة « التمصر » وقد عرف

دائما لمصر السحر في تحويل ما يقبل عليها إلى جزء منها دون أن تفقد فيه شخصيتها الصميمة . وفي هذه الثروة الزاخرة من الوجهة الأدبية والحسية معاً ما يمكن من تكوين شخصية رحيبة الجوانب ، متعددة النواحي ، غنية نبيلة لا نبالغ في القول انها تستطيع أن تنتج نوعاً خاصًّا من الثقافة تقف حيال الثقافة العالمية فلا تتضاءل .

وترجمان هذه الثقافة المرجوة هو اللغة العربية . ويخطئ الذي يتطلب التجديد في هذه اللغة إن هو أراد منها أن تصبح نسخة من أي اللغات الغربية . إن هذه اللغة تمثل عقلية خاصة في وسعها أن تحاذي العقليات الغربية وتتفاهم وإياها وتأخذ منها وتعطيها ، ولكنها ليست هي ولا يمكن أن تكون لأنها ـ وفي هذا أهميتها ـ مظهر آخر من الحضارة العمرانية وناحية أخرى من النفسية الإنسانية .

« مي »

خطاب الآنسة مي في حفلة تأبين داود بركات

المحروسة ٢٧ نوفمبر ١٩٣٣

أسدي الشكر إلى نقابة الصحافة المصرية التي شاءت أن يتسرب اليوم صوت المرأة إلى ما بين هذه الجدران ، فأنالتني الشرف والحزن أن أكون ناطقة بالكلمة النسوية .

فباسم الحركة النسوية التي أيدتها يراعة داود بركات وروّجت دعوتها ، وباسم جريدة « المحروسة » التي باشر فيها حياته الصحافية ، وباسمي أنا شخصياً أنحني إجلالاً للرجل الذي اجتمعنا اليوم لا لنؤبنه ، فنحن في هذه الإجتماعات نحاول أن نرتفع كثيراً فوق الرثاء أو النحيب ، بل اجتمعنا في ظلّ ذكراه لنقيس ، ولو من بعض النواحي ، الخطوة التي طويناها في سبيل الحياة ونحن مع ذلك نجيل الطرف باحثين عنه في هذا الاجتماع فلا نرى غير مظاهر الحداد عليه ، ولا نظفر إلا بروحه مهيمنة علينا .

أيها السادة والسيدات ،

إذا ذكرنا الجبل الأشم ذكرنا بداهة البقعة التي يشرف عليها . وإذا ذكرنا الشخصية الكبيرة ذكرنا حتماً حقبة الزمن التي تفاعلت وإياها . ولو نحن قلبنا صفحات التاريخ قديماً وحديثاً ما وجدنا حقبة أكثر ارتباكا ، وأمنع حيوية ، وأوفر أهمية ، من نصف القرن الذي انقضى على الشرق الأدنى عموما . ولكني الآن أتكلم عن مصر خصوصاً .

تلك حقبة اليقظة بعد هجعة ثلاثة قرون أو تزيد اذ تفتح البلاد عينيها فترى شمسها ساطعة متلألئة ولكنها تدرك ، في نفس الوقت ، ان ظلام السبات الروحي ما زال دامساً لم ينقشع عنها . تبصر الطير سابحةً في الفضاء تغرّد أغرودة الصباح والهناء ولكنها تشعر ، في نفس الوقت ، بالقيود تُحكم وثاقها ، وبالأغلال تثقل حركاتها . تشعر بحميّا الحياة سارية في دمها تستثيرها إلى النهوض والمسير ، ولكنها تدرك ، في نفس الوقت ، افتقارها إلى رأي تلتف حواليه . لكأن معولاً يرفش تربة الأفكار ويدغدغها ويقلبها جاعلاً على وجهها الحكمة والجنون ، التهور والتروي ، الاستهتار والكياسة ، الخطأ والصواب ، والنية السيئة والنية الحسنة ، الظلم والإنصاف ، الاستبسال والتضحية والمفاداة ، والافتراء والدسينة وسوء التأويل . حقبة غنية بجميع الأضداد شأنها ، بل شأن التاريخ عند جميع الشعوب ذات الحيوية التي لا تقهر .

رأى داود بركات ثورتين سياسيتين سريعتين . ورأى معهما ثورة طويلة متتابعة صاخبة صامتة متفككة مترابطة هي الثورة الفكرية والأدبية والاجتماعية التي ما زلنا نخوض عجاجها ، ونكتوي بنارها ، وهي ستزيد كل يوم تفشياً ونشوباً . ثورة لا بنادق فيها ، ولا حراب ولا مقذوفات . يرعاها اليوم جلالة الملك وتنشّطها الحكومات من جميع الأحزاب لأن فيها الرجاء للتغلب على خمول الدهور ، وبها السير إلى الإصلاح ، إلى التحسين ، إلى التقدم ، إلى الحياة .

هذه هي الحقبة التي عاش فيها داود بركات . عاش لا كفرد من الأفراد يساهم مرغماً أو مختارا في هذه الحركة العامة إلى الأمام ولكنه عاش ومهمته في الأهرام أن ينظم هذه الحركة على نوع ما ، ملخصاً ما جاء به الأمس ، مهيئاً ما سيجيءُ به الغد قدر المستطاع . ومن أهم وجوه هذه الثورة الوجه المتعلق بحركة المرأة وتعليمها وتهذيبها لاعدادها لتكوين الأسرة ، وتكوين

الأمة بالتبع .

أوَ اذكركم بصاحب الإسم الذي لا ينسى ذلك الرائد السابق قاسم أمين ، الذي أرسل صيحته منذ خمس وثلاثين سنة بين شفق القرن الراحل وفجر الفجر المنبثق ؟

والواقع أن دعوة قاسم لم تفهم على وجهها الصحيح . ما فتئنا نسيئ تأويلها إلى اليوم ، ونعلّلها على غير ما أراد . هو أراد تحرير المرأة بالمعنى الجميل العادل المفيد من معاني التحرير ، ولأجل ذلك إذا هو جار على الرجل الأناني الذي ينيخ بكلكله على المرأة فقد كان أشد وطأةً على المرأة نفسها يندد بشرورها وضلالها ، واصفاً الجحيم التي هي تضرم نارها إذا هي جهلت معنى كرامتها ، وأهمية الواجبات التي عليها أن تقوم بها . بل قال إن الحرية معناها الفوضى . بل قال إن الحرية ذات قيود عسيرة دقيقة تختارها المرأة عندما تشعر بأنها كائن إنساني لا يكتسب حقوقه إلا بالقيام بواجباته .

أيها السادة والسيدات ،

من الميسور درس كاتب في كتاب أو في كتب نشرها فنحيط هناك بفكرته ، ونسجل له قسطه من الفضل . ولكن كيف ندرس كاتباً كتب كل يوم طيلة خمسة وثلاثين عاماً ، وكل عام يتألف من ٣٦٥ يوماً . وكيف نستخرج من ذلك العدد الباهظ الفصول التي عالجت تعليم المرأة وتثقيفها وإعدادها لمهمتها الخطيرة ؟

لئن أيّد الأستاذ بركات دعوة قاسم ومضى يستثمرها بقلمه أعواماً طوالاً فذلك ما نعلمه دون أن نطلع على ما كتب فيه . أما في هذه الأعوام الأخيرة فكلنا شاهد بتأييده للحرية النسوية وبارهافها وبإنالتها الشيء الكثير من القبول والإنتشار . كلنا شاهد بأن غرضه من تحرير المرأة هو جعلها زوجةً صالحة ، وأمًّا صالحة ، وسيدة بيت صالحة . وكأني به يقول : إن الذي يظن أن الغريزة وحدها تكفي لايجاد مثل هذا الزوج وتلك

الأم فهو على ضلال ، وإن الذي يظن أن الجدران وحدها كافية لصيانة المرأة فهو على ضلال . وكأني به يقول : إن أمة كريمة تطالب بالحرية والاستقلال حاشاها أن تشيد صرحها على استعباد النساء ، وعلى ظلام الجهل ، وعلى البيوت وقد انقلبت سجوناً .

هذه الثورة الفكرية الشاملة ليس في مصر فحسب ، بل في جميع أنحاء العالم قد بدلت كل شيء ففخمت أهمية الكلمة ، وتناولت بالتغيير حتى معنى الخلود الأدبي . بالأمس كان الخلود نصيب الكاتب الكبير أو الشاعر العظيم أو المصلح الفذ ، وكان خلوده محصوراً في كتاب أو كتب أو أعمال تتداولها الأجيال الآتية فتردد اسمه ، وتلهج بذكره . أما اليوم فالثورة الفكرية والتقدم الآلي وإنتشار الثقافة كلها حولت قسماً كبيراً من الأدب الفعال إلى صحف يومية ، ونشرات دورية ، وانقلب الأثر الأدبي حدثاً اجتماعياً محسوساً ملموساً ، كل يوم يثير الرأي العام ، وكل يوم يستحث التقدم العام .

ولقد تطورت الصحافة ، والكلمة التي يكتبها اليوم الصحافي تلقي شرارة في نفوس القارئين ، وتقدم غذاءًا للجماهير فينمون بها ويتجددون ويحيون . والصحافي العظيم هو الذي أدمج في حركة الفكر وفي حركة المجتمع عنصراً لا يفنى فترك القوم عند رحيله خيرًا مما كانوا عند مجيئه .

ها هي ذي المروج الفسيحة تموج بالسنابل العسجدية التي غدًا تملأ الأهراء قمحاً ، وتفيض على العالمين خيراً . فكيف نتبين السنابل التي قامت بزرعها يد داود بركات طيلة خمس وثلاثين سنة ؟

حسبه خلوداً أننا لا نستطيع أن نبيّن سنابله . وحسبه خلوداً أننا أعجز من أن نحصي البذور التي نثرها في هذه المروج الفسيحة .

وليرقد في أمان وسلام ، فإنه لم يطلب الراحة إلا بعد أن زرع جميع الحبوب التي تناولتها يده من يد الأقدار !

قصة رأس العام

الشمعة تحترق

بقلم الآنسة مي

الهلال : ج (٣٠) ـ عدد يناير : ١٩٣٤ . ص ٢٥٧ ـ ٢٦٢ .

وضعتْ الأُخت يولندا فنجان اللبن الحليب على الطاولة الصغيرة القائمة إلى جانب السرير من ناحية الرأس ، وَحَنَتْ على الرجل النائم تقول بصوتٍ خافت :

ـ صباح الخير ، يا قبطان .

فتح الرجلُ عينيه بشيء من الدهشة لأَنَّهُ لم يشعرْ بدخول أحدٍ عليه . وتململ يحاول الجلوس وهو يبتسم قائلاً :

ـ صباح الخير ، يا أختاه

ـ أما زلت نائماً ونحن في الساعة العاشرة ؟

حرَّكَ يدهُ اليسرى مشيراً إلى الصحيفة التي كان يطالعها :

ـ لستُ نائماً . وإنما تعبتُ من القراءة ومن ضوضاء التلغرافات والأَخبار المنشورة في الجريدة ، فأغمضتُ عينيَّ طلباً للراحة .

ثم استدرك بصوتٍ كصوتِ الأَطفال إذ يحملهم الاستياء على العصيان :

ـ أو بالحري ما زلتُ نائماً لأن ملكي الحارس لم يوقظني في هذا الصباح

أيضاً . كان لي ملك حارس يعنى بي فأهملني الآن ونسيني ، ويقظتي ورقادي عنده سيان .

ــ ملكنا الحارس لا يفارقنا ، يا قبطان . هو دائماً معنا . ولكن علينا نحن أن نبحث عنه بعين الروح لنراه .

ــ أنا ، يا أختاه ، لا أرى إلاّ بعين الجسد .

ــ ليست هي عين الجسد التي نعاين بها وجه الله ، يا قبطان .

ــ أما أنا فحسبي من عين الجسد أنها تبصر بعض ملائكة الله على الأرض ، يا أختاه . أسبلت الراهبة جفنيها على عينيها الدعجاوين ، وكانت أهدابها من الطول والكثافة بحيث ألقت ظلاً على أعالي خديها . وقالت بصوتها الرؤوف :

ــ أتيتك بالحليب الذي اعتدتَ شربه كلَّ صباح في مثل هذه الساعة . فهلاّ شربت ؟

ــ أجل . أشرب .

قال هذا ومدَّ يدهُ اليسرى تعاون يدها على حمل الفنجان في توازن . غير أنه لم يشرب . بل ظلَّ ينظر إلى وجهها صامتاً يتذوّق في سرِّهِ على مهل ما يحسهُ من السرور . ثم سأل :

ــ علامَ لم تأتي لايقاظي من النوم في هذا الصباح ، ولا أمس ، ولا أمس الأول ، ولا الأمس الذي سبقه ؟ علامَ جاءتني راهبة غيرك ، وحملت لي أخرى طعام الإفطار ؟

أجابت تشرح في بساطةٍ ومن غير ما تودُّد :

ــ لا أزورُ في الساعة المبكرة إلا المرضى . والمرضى عندنا كثير في هذه الأيام . والأطباء صارمون في أوامرهم ، فلا بدَّ لي من تنفيذها شخصياً ، أو الرقابة الدقيقة على تنفيذها لأتمكن من تقديم تقريري عن حالة المرضى

جميعاً عند وصول الأطباء في الصباح . أما وأنت في دور النقاهة من الحمى التي أصابتك على أثر الجرح فأيّ أحدٍ يستطيع أن يقوم لديك بالخدمة البسيطة .

ـ إذًا ليت جرحي لم يندمل !

ولمس مكان الجرح من ذراعه اليمنى وقال :

ـ أأفتحهُ لتعاودني الحمّى فأستحق العناية من جديد ؟

ابتسمتْ بذلك التحفُّظ الذي هو دستور حياة الراهبات وقالت :

ـ الحمد لله على سلامتك . ثم لدي في هذا الأسبوع مشاغل أخرى ـ وبخاصة اليوم ـ فنحن نقوم بتنسيق الكنيسة وبالباسها حلل الزينة لتكون جميلة يوم غد عيد رأس السنة . وسيغادر المستشفى اليوم أكثر الناقهين فينصرفون إلى منازلهم ليقضوا الأعياد بين ذويهم . أما العمل في الكنيسة فيظل متتابعاً حتى اليوم السادس من يناير . وهو يوم عيد الغطاس . فهذا الأسبوع موسم الأعياد كما تعلم .

ـ أنا أبقى هنا الموسم كلّه لأن عائلتي بعيدة ولا اصدقاء لي في القاهرة . اتقبلونني يا أختاه ؟

ـ حسناً تصنع بالبقاء هنا اياماً أخرى ، يا قبطان ، لأن المعيشة في المستشفى اتمّ تنظيماً وتوقيتاً ووقايةً منها في الخارج حيث قد تعرّض صحتك للانتكاس . وانت بعد لن تشعر بالضجر ، لأننا نعدّ لمرضانا حفلات صغيرة لطيفة يلهون فيها ويسرّون بغير ما غلوٍّ ولا إرهاق . اوّلا تشرب الحليب ؟

ـ أشربهُ ، أشربهُ .

وإذ همّ بتعديل جلوسِهِ لم يتمالك من التأوّه وإرسال صيحةٍ مفاجئة فأقصت الفنجان عنه قليلا وسألت :

ـ أي شيء ؟ أتتألم ؟

ـ ألماً لا يذكر ، كلّما حركت ذراعي اليمنى بدون انتباه ، ساعة انسى انها جريح ، فلا احملها على الاستعداد للحركة بشيء من المداورة .

ـ هذا يزول مع الوقت . وهل نمت نوماً حسناً ؟

ـ حسناً جداً . أنام كالطفل ، واستيقظ كالطفل ، وكالطفل اعيش نهاري أنظر إلى الحياة بعينين جديدتين . حسنٌ أن يمرض الجنديُّ أحياناً ليشعر بعطف الناس عليه ، بدلاً من أن يروا فيه دواماً القسوة والجفاء والتأهُّب للمهاجمة والإيلام فيقابلوه بالمثل . أليس كذلك ؟

ـ لكل منا واجبه يؤديه في أمانة تحت رقابة العناية الآلهية ، أيّاً كانت النتيجة . أوَلا تشرب يا قبطان ؟ وبعدئذٍ تذهب إلى الحديقة لرياضتك الصباحية فيتيسر للخدم أن ينظفوا غرفتك ويصلحوا سريرك . أنظر إلى هذا النهار ما أجمله ! لن تجد في غير مصر شمساً كهذه مشرقة في مثل هذا الفصل . لكأننا في قلب الربيع ، اشرب وأسرع في النهوض .

استوى جالساً في سريره ومدّ يدهُ اليمنى يعاون يدها على إدناء الفنجان من شفتيه . وكانت يدُها تتحركُ في بطء رفقاً بيده المريضة . وعندما لمس الفنجان شفتيه لم يشرب هذه المرة ايضاً . ظلَّ ناظراً إلى وجهها المنحني عليه . ظل متأمّلاً في جفنيها المسبلين على حدقتين تخفيان أسرارهما . ظل ينظر صامتاً ويتأمل صامتاً . ثم زحزح يده وأدار بها في تريُّث على معصم الراهبة . وأصبعاً بعد أصبع لمست اصابعه يدَها كأنما هو يجرِّب عليها قوَّته . ولما شعر بأن القوة لا تنقصُه ضغط بحرارةٍ على اليد التي لم تتحرّك خوفا من دلق الحليب ورفقاً بيده المريضة .

رعشةٌ طفيفة دبَّت في اهدابها المسبلة . ولكن وجهها ظل ساكناً مطمئنَّ الملامح كأن شيئًا لم يحدث . وبصوتٍ هادىء على عادته قالت :

ـ اشرب ، يا سيدي .

ـ ما أعذب العذوبة في وجهك ، يا أختاه ! أأنت اكتسبتها بممارسة الصبر في حياتك الرهبانية ، حياة الحرمان والزهد والتقشف والإنخطاف الروحي ؟ أم هي نجمت عن تجلُّدك في حضور العمليات الجراحية وتعوُّدك العطف على المرضى ومواساتهم ومخاطبتهم رجالاً ونساءً كبارا وصغارا بمثل ما يخاطب به الرضيع المحتاج إلى العناية والمحبة ؟ أم هذه العذوبة منحة من الله لك ؟

ـ ليس لدى الإنسان شيء إلا وهو من منح الله ، يا قبطان . اشرب وسارع إلى حيث تبهجك أشعة الشمس . سأسأل الأطباء أن يوافوك إلى هناك . لقد باشروا التطواف اليومي بالمرضى في الساعة العاشرة ، ولا يطول حتى يجيء دورك فيوافوك إلى الحديقة .

* * *

خرجت بخطوات لا وقع لها كأنما هي تحتذي خفًّا من القطن . وما سارت في البهو قليلاً حتى ابصرت الجندي « مراسلة » الضابط يقبل عليها متجهاً إلى الغرفة التي غادرتها .

ـ صباح الخير يا أختاه . هل لي أن أدخل على قبطاني ؟

ـ ماذا أنت حامل بيدك ؟ إن القبطان على أحسن حال . بيد أن تشديد الأطباء في وجوب احتفاظه بهدوء الأعصاب لم يتغير . وعلى ذلك خير ألا تقدم له هذه الرسائل التي قد تحمل اخبارا مزعجة .

ـ خطابان لا غير يا أختاه . أما هذا [وعرض ظرفاً كبيراً أصفر] فمخاطبة رسمية من مركز القيادة . والمخاطبات الرسمية التي توجه إلى ضابطٍ جريح عليل لا تكون عادةً مزعجة . هذا إن لم يكن فيها ما يبهج . وأما هذا الخطاب [وعرض ظرفاً ازرق طبع عليه اسم فندق بالاسكندرية]

فواردٌ إليه ممن يُسر بتلقي اخبارهم . [قال هذا وحرك « المراسلة » جانباً من وجهه حركة ذات مغزى] .

ـ إذهب إليه إذن قبل أن يغادر غرفته إلى الحديقة .

استأنفت طريقها متمهلة . وظهرت الكآبة على وجهها إذ هي ترنو إلى اليد التي لمستها يدهُ منذ حين مناجية نفسها : لماذا لمسني بهذه الكيفية ؟ ليس هو اللمس الذي ألفته من المرضى عندما يتوجعون ويشكون طالبين تخفيف الوجع متوقعين كلمات الرجاء . ولا هو لمسني من قبل هكذا . لمسه اليوم كان فيه أمر وكان فيه ابتهال أيضاً . أهذا لمس الرجل الذي تحذّرنا من شرّه أمنا الكنيسة المقدسة الرومانية الرسولية الكاثوليكية ؟ أكذلك يلمسُ الرجالُ النساء في حياة المجتمع ؟ يا إلهي اغفرْ لي لأني لم أُبْد استياءً ولم أشعر باستياء ! اعف عن الغبطة الرحيبة التي غمرت قلبي ! انها لغبطةٌ أثيمة ... يا له من شاب فتان ! يا لنظره الطويل العميق ولشفتيه المليئتين حينما تسارعان إلى الشرب كأنهما تغرقان في اللبن كلماتٌ تحومُ عليهما ! شيءٌ منه يلتصق بيدي . يدهُ القتْ في يدي شرارة . يا يسوع الطفل ، طهّر يدي من الوصمة العالقة بها واقص عني هذه التجربة ! ...

" " "

مرّت الساعة الحادية عشرة والأخت يولندا رئيسة الممرضات تقوم بعديد واجباتها من محادثة الأطباء وتلقّي أوامرهم ، إلى زيارة المرضى والاستماع إلى شكاياتهم ، إلى تقديم الدواء لبعضهم ، إلى رقابة الخدم في تنظيف الغرف المتغيب أصحابها في الحديقة أو على الشرفات . وعندما وصلت إلى غرفة القبطان وجدت الخدم فيها فأمرت بتبديل ملاآت السرير وأخذت تنزعها بيدها عن الفراش . عندئذ عثرت على الرسالتين تحت الوسادة . فأدركت أن القبطان فضهما وقرأهما قبل الخروج فتركهما تحت الوسادة مفتوحتين . حملتهما لتلقي بهما على الطاولة دون تعمّد قراءتهما . ولكن

نظرها استقر عليهما عرضاً . وإذ تلت الكلمات الأولى في الرسالة الزرقاء نسيت أنها راهبة وأنها امرأة مهذبةٌ لا يجوز لها الاطلاع على الرسائل الشخصية ولو وجدتها مفتوحة . وجرى نظرها على السطور يلتهمها فقرأت ما يلي :

« عزيزي موريس »

« كنت دواماً تقول عن خطيبتك هذه انها صاحبة سياسة بارعة . وأنا الآن أوافقك على رأيك فيّ وأصارحك بأني أستحقّه . ذلك لأني أفلحت في اقناع اميلي ابنة خالتي بزيارة مصر خلال عطلة الموسم مع زوجها بدلاً من الذهاب إلى « الريفيرا » على عادتهما . ولا يهمني من أمر عطلتهما إلاّ التمكن من مرافقتهما في السفر لأصل إليك فأراك ولو يوماً واحداً قبل عودتك إلى المعسكر .

« أتستطيع أن تتخيل مبلغ قلقي وعذابي كل هذه المدة منذ أن علمتُ أنك جريح عليل ؟ أحدّثك الآن عما قاسيت لأني اعلم انك شفيت . أعلم ذلك بفضل قنصلنا في القاهرة الذي تلقينا منه قبل سفرنا ما ينبىء بقرب خروجك من المستشفى .

« وصلنا الاسكندرية في هذا الصباح بالباخرة « ماريت باشا » ، وغداً عندما تتلقى أنت هذه الرسالة نكون نحن على أهبة السفر بقطار الظهر إلى القاهرة . فنصلها حوالي الساعة الرابعة ، على ما يقولون لنا ، ونذهب تواً إلى القنصلاتو لنسأل عن مكان إقامتك . فليتنا نلتقي بك بدار القنصلاتو في تلك الساعة لتتم سعادتنا !

« ولكن حسبي سعادةً أني سأراك غداً في صحة تامّة ، فأقضي معك آخر يوم من السنة الراحلة وأول يوم من السنة الجديدة ! حسبي سعادة أن سيتيسر لي أن أخدمك وأدلّلك وأجعلك تشعر بشيء من حبي لك !

« ألمس عن بعدٍ ذراعك الجريح في شوقٍ ولهفة ، وإلى غد !

ميمي » .

الكنيسة هادئة في أواخر الليل ، ونور المصابيح ناعسٌ كعينين أضناهما السهر . وعلى الهيكل شمعة تذوب ولم يبق منها إلا القليل . شمعة وضعتها الراهبة الممرِّضة على نية الضابط الذي مضى يجتمع بخطيبته ، فاشترك لهيبُ الشمعة مع الراهبة في الابتهال إلى الله أن يشمل القبطان وخطيبته بعنايته وأن يجعل حياتهما هنيئةً سعيدة .

لم تشأ الراهبة أن تلبي طلب القبطان الذي ألحّ في استدعائها ليشاهدها ويودعها ويشكرها قبل مغادرة المستشفى . كيف تودّعه وتسمع منه كلمات الشكر ؟ بل كيف تجرؤ على مجرّد النظر إليه ؟ لا ! هي تشتغل في الدير حيث هولا يستطيع الوصول إليها ...

وها هي ذي قد قضت الليل كلَّهُ في الكنيسة جاثيةً على ركبتيها تخفي وجهها باليد التي حرقها لمسهُ ، وتصلّي قائلة : لقد وهبتكَ حياتي دفعة واحدةً ، يا إلهي ، فيدي لك وليست لمخلوق . وأقلعتُ عن سبل العالم لأسير في سبيلك . وتركت ملذات الدنيا وأفراحها لأطلب الآلام والأوجاع التي تدنيني من طهرك . قدّمت حياتي شمعة تحترق عند قدميك احتراق هذه الشمعة الصغيرة على الهيكل . فما هذه العاصفة التي عصفت بي ؟ افتغفر لي ضعفي ، ايها الإله الرحيم ؟ أتصفح عني لأني وجدتُ في لمس الرجل الأثيم حلاوةً لم أجد مثلها ، يا يسوع الطفل ، في حبك وعبادتك ؟

« ميّ »

نشيد إلى الشرق

المقتطف : ج (٨٥) ـ نوفمبر ١٩٣٤ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ .

نقله جورج نيقولاوس

الآنسة « ميّ » اشهر من أن تعرّف . فكتاباتها منتشرة في كل صقع . واسمها ملء الأفواه والأسماع . ولكن لا نظن أن كثيراً من قراء العربية يعرفون أن هذه النابغة شاعرة فرنسية وكاتبة بلغة ابناء السين لا يشق لها غبار . ولذلك ارتأينا أن ننقل لها هذه القطعة وهي من الشعر المنثور ليجتلي القراء محاسن كتابتها الفرنسية . كما اجتلوا محاسن كتابتها العربية .

أيها الشرق !

يا شرقي الفسيح الجموح الليّن العريكة !

يا شرق العظمة واللطف والشهامة والحماسة والشهوة العاصفة في شدةٍ كسموم الصحراء ! .

إن تصوراتي تتمثّلك كأنك ضمن إطار . وها هو فكري تتبيّن له نقائصك وشدائدك ، واحتياجاتك وتضاربُ نزعاتك . أنت فقير بنظمك وترتيبك ومنهاجك ، أنت أعزل قد جردك قضاء الزمن . غير أن معائبك كان فعلها في تجريدك أكثر من فعل قضاء الدهر وقدره . إن العلومَ تَنقصُكَ ، وموارِدك العديدة المبعثرة متملّصة منك . وانت مُقسّمٌ لا مجموع لك .

أعرف هذا كلّه . ولكن ثقتي بمستقبلك راسخةٌ لا تتزعزع ، مثل ثقتي

التامة بالحياة .

فما هي اذن هذه القوة التي تربطني بك ؟ لماذا يحبَّب إليَّ من كلامك تلك النبرات الشجية المتناسقة ، التي تبعث في القلوب الحنينَ إلى الوطن ، وتلك اللهجات الحلقية السريعة ، وتلك الصيحات الداوية بخيلاء الجنس ، التي تنشر إتقادَ مناطقك الحارة ؟

ما هي تلك المجانسات العديدة الفالتة غير الممسوكة ، التي تربطني بشعوبك المتراكمة في بلدانك الكبيرة ، وفي ظلّ طلولك المجيدة وآثارك الخالدة ، كما تربطني بأعرابك الرُحَّل الذين يتفيأون الخيامَ في صحاريك القاحلة المجدبة ، وبالقبائل المبعثرة على ضفاف انهارك أو المتجمعة حول ينابيعك ، وبالقوافل التي تحدُّ أنجادك وأغوارك وبجميع تلك الفصائل المنتشرة في جبالك ووِدْيانِكَ ؟

بأيِّ سرٍّ غريب أفضت إليَّ هذه اللغة العربية في غابر الأزمان ، حتى أني عندما أسمع لهجة من لهجاتها أشعر وكأني وجدت تفسيراً لما لا يفسرُ في نفسي ؟

لماذا كلما وقعتْ عيني على فردٍ من أفرادك استشعر عرفاناً للجميل يختلج في داخلي ، وتحناناً لا يستشعرهُ المرءُ إلاّ في لقاء قد قطع منهُ الرجاء بعد فراقٍ طويل الأمَدَ ؟

كلُّ غريزةٍ فيك ملحّة بعيدة الأغوار ، تتملّكني وتسخّرني لك ، أيها الشرق ، أنا الذرّة الطفيفة بين مليارات المليازات من ذرَّاتك ! ورغماً عن صِغَرِي ، لقد أودعت فيّ صحاريك ومروجك ، وقُنَنَكَ البعيدة المنال ، وأغوارَ أوديتكَ ، وسيئاتك وحسناتك ، وزعازع مُناخِكَ المَهُول ، ونشيد مزاميرك النائح ، ولياليك المخملية العميقة ، ووطيسَ شمسك المحرق ، وقلوبَ بنيك المقدامة الشديدة الحمية ، وقواك الابتكارية المتلازمة التي لا يَنْضبُ لها معين !

أترى هذه السماء ، التي هي سماؤك ، تنبسطُ في لونها السَمَنْجُوني الزاهي المُوشَّى بالذهب والفضة والأُرجُوان ، وقد تمازجت هذه الألوان وتداخل بعضُها ببعض ؟

إنها السماء التي أوْحتْ بأعظم الرسالات إلى الإنسانية ، وأَظَلَّتْ تفتُّح الحياة وسيول الوحي والنبوآت . لأنك عُيِّنْتَ ، ايها الشرق ، لتكون الوطن الأول للعبقريات الأولى وللأبطال والملْهمين !

لقد كنتَ في حاجةٍ إلى الراحة ثلاثة قرون اكتسبتها بعد كل تلك القرون المليئة كدّاً ومجداً ، وكان مشروعاً أن ماءَ مدنياتك المحسن العظيم يرتدُّ من ما بجزْرٍ محتوم ، تحت ضغط سنّة التعاقب الظالمة التي لا تهادن ولا رحم .

ولكن ها تلك السنّة نفسها ، التي تتحكم بمد البحر وجزره الجديدين وتضبطهما تقرع ساعة اليقظة والسير إلى الأمام . فنهوضاً اذن ، رغم قيودك ورزاياك ، وانكسار عزملك وخمود همتك !

نهوضاً !

حولك يناضلُ الأقوياء ويفوزون ممجدين نفوسهم في تأليهِ الغَلَبة ! فهلّا سمعتهم مع ذلك يئنُّون في الظلام : « إلى متى ننتظر الفجر الذي سيسطع ؟ »

مساكين أنتم ايها الأشداء والأقوياء الضعفاء ! ايها العلماء العُظام ، الذين يجهلون الأبجدية !

أيمكن أن يتلألأ الفجر دون أن يغمر النورُ المشرقَ ؟

أنت برج الضياء ، أيها الشرق ! أنت مُوزّع أشعة الحياة !

فنهوضاً اذن ، وإلى العمل لتثقف نفسك ! وعندئذٍ يبزغ في أُفقِك مشعلُ الأضواء واللهب !

كلمات في الصداقة

مجلة الرسالة : العدد ٨٤ ١١ فبراير ١٩٣٥ ص ٢٠١ ـ ٢٠٣ .

مهداة إلى الأستاذ أحمد حسن الزيات ، وإلى الدكتور طه حسين وإلى أصحابهما جميعاً .

قد تبدو هذه الكلمات غريرةً للذين لا يرون في الصداقة إلا وسيلة نفعيَّة تعودُ على كلٍّ من المرتبطين بها بفائدةٍ محسوسة : كالظهور بمظهر العظمة ، أو التمكن من دحر منافس ، أو التعاون على الأساءة إلى شخص أو أشخاص ، أو جني ثمرةٍ ملموسة وتحقيق غرضٍ ماليّ أو اجتماعيّ .

ونخطئ إن نحن نسبنا إلى أهل هذا العصر وحدهم الصداقة المغرضة ، لأن تلك كانت شيمة الكثيرين في جميع العصور وعند جميع الأقوام . قد تكون في هذا العصر أكثر شيوعاً . وإنما نحن أشدّ شعوراً بها لأننا نعيش في وسطها ، ويجبهنا وجهُها الخادع أنى توّجهنا .

فإذا أنت طلبتَ من الصداقة شيئاً غير تلك الفوائد المتداولة ، إذا طلبتَ العاطفة ، والفائدة الأدبية المجرَّدة ، وتلك اللذة البريئة التي تجدها في محادثةِ الصديق بالكلام أو بالسكوت ، وشعرتَ باحتياج ملحٍّ إلى ذلك كاحتياج الدم إلى النور وإلى الهواء ـ إذا أنت طلبتَ هذا من الصداقة وعند الصديق ، فما أنتَ في نظر تلك الفصيلة من الناس إلاَّ من أهل الشذوذ والغباوة ... على الأقل ! .

وعلى رغم كل ذلك فموضوع الصداقة من الموضوعات التي نُقبلُ عليها في اهتمامٍ ولهفة . لو جاز لي أن أشير إلى خلقٍ خاص فيَّ ، قلتُ إني أشعر بشيءٍ غير قليل من الأسف كلما انتهى إليَّ أن صديقين كريمين تجافيا بعد التصافي . وقد يكون أسفي ناجماً عن نوع خاصّ من الأثرة لا أدركهُ تمام الادراك . قد يكون ذلك أنّ انفصام عرى الصداقة بين الآخرين كأنما ينالُ من إيماني بالصداقة ويزعزع من رجائي فيها .

* * *

أولى ذكرياتي في هذا الموضوع ترجع إلى قصة فرنسية ، هي « أبرص بلدة آووستا » بقلم كزافييه دي ميستر ، وأظنني قرأتها لأول مرة وأنا في سنّ العاشرة تقريباً . فيها وَصف ذلك الجندي الكاتِب اجتماعَهُ برجلٍ ابتُلي بداء البرص المروِّع ، فنبذه الناس من مجالسهم ، وحايدوا الدنوَّ من الدار التي عاش فيها وحده حبيساً طوال الأعوام .

تُطوِّح السبيلُ بالكاتب الغريب إلى تلك البلدة وتسوقهُ إلى الدار المخيفة ، ويلجُ باب الحديقة فيُبصر الرجل الموبوء وهو لا يدري بحالته . وعندما يحذِّرهُ الأبرصُ ويفضي إليه بمحنتهِ لا يلوذ الكاتبُ بالفرار ، وإنما يقتربُ منه ويجلس إليه مستفسراً عن معيشتهِ وأحواله ، وعمّا يحسّهُ في الابتعاد عن أولئك البشر الذين هو منهم ، فيعترف الأبرصُ بأن آلامه الأدبية تفوق أوجاعه الجسدية ، يعترفُ بعذابهِ في حزنٍ هاديءٍ يشبه الامتثالَ والرضى ، يعترفُ بحاجتِهِ إلى الشعور بأن قلباً يعطفُ عليه ويحنُّ إليه ، بأن يداً تصافح يدهُ ، بأن صدراً يتلقاهُ ويحتضنهُ ، حتى أنه لشدة حاجته تلك يحتضنُ أحياناً جذوع الشجر ويضمُّها إليه ما استطاع ، كأنها كائناتٌ إنسانية . يعترف بشوقه إلى سماع صوتٍ بشري ، إلى تبادل السلام والحديث مع من يفكّر تفكيرهُ ويحسّ إحساسه ، إلى جميع تلك الأمور التي عرف قيمتها لأنهُ حُرِمَ منها ، والتي يتمتّعُ بها الجميعُ جاهلين أنها منحةٌ ومتعةٌ لأنها عاديةٌ بينهم .

ويقولُ فيما يقول وكأنّه يلخِّص جميع صنوف عذابه في هذه الكلمة :

ـ لم يكن لي يوماً صديق .

والكاتب الذي عرف كيف يُصغي إلى شكايتِهِ في هدوءٍ ورباطة جأش ، تهتاج تلك الكلمة شجونهُ وتحزُّ الشفقةُ في قلبه فلا يتمالك من الهتاف :

ـ يا لك من تَعِس !

تلك الكلمة من الأبرص ، وردّ الجندي الكاتب عليها ، استقرتْ في موضع عميق من روحي عند قراءة القصة ، بل القصة كلها تجمعت عندي في تلك الكلمة وفي التعقيب عليها ، وقد يكون لها الأثر الكبير في تكوين إيماني العنيد بأن لا بدَّ من وجود الصداقة ـ مع اعتقادي بأن نفاسة الصداقة نفسها تحتم فيها الندرة .

* * *

لسنا في حاجةٍ إلى دهور نعيشُها لندرك كم في هذه الحياة البشرية من خبثٍ ومراوغةٍ ونفاق . اختباراتٌ قليلة تكفي لتدلنا على أنّ بعض المُثلِ العليا تخذلنا وتصرعنا بلا رحمة ، ثم تنقلب مسوخاً ساخرةً مزرية ، لا تلبثُ أن تكشر عن أنيابها ، مهدّدة متوّعدةً ـ وهي التي تجلببت في نفوسنا من قبل جلباب القدسيّة والعبادة !

اختباراتٌ قليلة في أحوال معيّنة ، وأحوال مفاجئة ، تكفي لتظهر لنا أن من الناس من يتاجر بكلِ عاطفةٍ صالحة لتنفيذ أغراض غير صالحة ، ومن يستغلُ كلّ استعدادٍ كريم لنتيجةٍ غير كريمة ، ومن لا يكتفي بالظلم والإجحاف ، بل لا يتورّع عن إيذاء الذين أخلصوا النية في معاملته ، ولم ينلهُ منهم إلاّ الخير . وكم من مذيعٍ أنباء الصداقة لا لسببٍ آخر سوى التوغّل في الايذاء باسم الصداقة ، في أساليب سلبية أو إيجابية لا يعلم إلاّ هو كم هي خبيثة وكم هي فعّالة .

وكيف تعامل أولئك الناس عندما تكشف عمّا يُضمرون ؟ أتحاسنهم ؟ إنهم يحسبون المحاسنة ضعفاً ومداراة ، فيمعنون في الأذى . أتخاشنهم ؟ إنهم يزعمون المخاشنة جحوداً ومكابرةً فيمعنون في الأذى . ولعلّ الشاعر العربيّ كان في حالةٍ كتلك عند ما أرسل هذه الزفرة المنغومة التي هي من أبلغ ما أعرفُ في معناها :

عذيري من الإنسان ، ما إن جفوتُـهُ
صفالي ، ولا إن صرتُ طوعَ يَـدَيـهِ
وإني لمشتاقٌ إلى ظـلّ صاحـبٍ
يـروقُ ويصفو إن كـدرتُ عليـهِ

يأس هذا الشاعر يدلُّ على حاجتهِ الصميمة إلى صداقة نقية غير مغرضة . فنحن مهما تنكّر لنا معنى الصداقة الصافي ، ومهما غدر بنا الغادرون فعلمونا الحذر ـ فاننا لا نستطيعُ إنكار احتياجنا العميق إلى الصديق ، لأنّ لدينا مُرغمين كميةً من المودة والوفاء والتسامح والغفران والتضحية لا بدّ من تصريفها وإنفاقها لتزيد بالعطاء غنًى . وعند من نصرفها وعلى من ننفقها إلا على الأشخاص الذين نراهم قمينين بأنبل ما عندنا من فكر ، وأصدق ما لدينا من عاطفة ؟

* * *

أيها الذين ربطت الحياةُ بينهم بروابط المودة والإخاء والتآلف الفكريّ والنبل الخلقيّ ، حافظوا على صداقتكم تلك و قدروها قدرها ! فالصداقة معينٌ على الآلام ومثارٌ للمسرات ، وهي نور الحياة وخمرتها ، وكم تكنُّ من خير ثقافيٍّ وعلميّ للنابهين !

لا تخافوا أن تكونوا من أهل الشذوذ والسذاجة في نظر المعرضين ! ألا بئست نفساً فقدت كل سذاجة ، وسارت على وتيرةٍ واحدة ، لا تعيش

إلّا للغرض وبالغرض ! وما أفقرها وإن كانت ثرية وما ألصقها بالثرى وإن كانت عليّة ! وحسبكم أنتم أنكم بإيمانكم بالصداقة توجدون الصداقة ، وبممارستكم أساليب الصداقة إنما تكوّنون خميرة الصفاء والصلاح والوفاء !

« ميّ »

السيّد الموزّع

الرسالة : العدد ٨٧ ـ ٤ مارس ١٩٣٥ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ .

وسط الهرج الذي يحدثُ عادةً عند انفضاض مجلسٍ من المجالس تناثر الزائرون في الردهة يهمّون بالانصراف مودّعين أهل الدار وشاكرين لهم حفاوتهم ، متبادلين مع هؤلاء وأولئك التحية والمصافحة ، متواعدين فيما بينهم على الاجتماع في فرصةٍ قريبة .

أما ذلك الفتى فمضى يتسلل خلسةً ، هرباً من كلّ شخصٍ خطر وللتملص منهم جميعاً : « والشخص الخطر » في تلك الحال هو أيّ شخص قد يشتبك معهُ في حديث ويصحبهُ إلى الخارج . إنه يحتاج إلى الوحدة لا يعكر عليه صفاءها أحد ، لأنه في تلك الحالة النفسية التي تبدو فيها الحياةُ طريفةً وتبدو فيها الخليقةُ وكأنها خرجت الساعة من يدِ الباري غضةً جديدةً .

خرج إلى الرصيف وجال نظرهُ يبحثُ بين الناس والسيارات فاستقرت عيناه على خمس فتيات من اللائي حضرن الاجتماع ، وقد أحطن بسيارة كبيرة أخذن يتوارين في داخلها الواحدة بعد الأخرى ، فكانت الأخيرة في التواري صاحبةُ الثوب ذي الزرقة « الكهربائية » . فجهد الفتى ليرى منها جميع حركاتها فرأى فيما رأى أنها التفتت إلى الوراء ، شأن من يبحث عن شيء أو شخص . وسرعان ما لمحتْ رأسهُ والتقت عيناها بعينيه عن بعد . فأدركت أن نظره يتبعها ويرقبها ، وأدرك هو أنها تأخرت والتفتت لتبحث

عنه . فما إن تلاقى نظراهما وفاجأهما ذلك الادراك حتى أعرض كلٌ منهما على عجل كأنما هو يخجل بانكشاف أمره . وعندما تحركت السيارة مندفعةً إلى الأمام أرسل الفتى نظره يشيعها في حرية واطمئنان .

ــ هأنذا ! أتنتظرني أم تبحث عني ؟

لقد وقع ما كان يخشاه ، ولحق به زميل لم يكن ليتحاشى مصاحبته أو ينفر من حديثه عادة . ولكن الآن ...

ــ هيا بنا إلى جروبي !

فتلكأ الشاب قليلاً وقال : ــ إني على موعد .

ــ أيّ موعد ؟ ألم نتفق عندما جئنا هذه الدار على موافاة أصحابنا عند جروبي بعد الخروج من هنا ؟

ــ آه ... نسيت !

ــ أنسيت الموعد أم نسيت اتفاقنا ؟

ــ نسيت الموعد ...

ــ نسيت الموعد فلم تذكره إلاّ على الرصيف ... إذا أوصلك بسيارتي إلى المكان الذي تقصد إليه ، ثم أسبقك إلى جروبي حيث توافينا بعدئذ .

رأى الفتى أن لا مفرّ من المقدور . ولو نجح في التفلت من صاحبه هذا فليس مضموناً أن يتفلت من غيره في مكان آخر . فتراخت عزيمته واستسلم :

الواقع أن الموعد اختياري يمكن تأجيله . هيا إلى جروبي .

أما الفتيات الخمس فقد سارت بهن السيارة إلى ناحية الجزيرة وهن يتحدثن جميعاً في آن واحد وليس بينهن من تصغي . وعلام الإصغاء ؟ المهم هو الكلام . وقد سُرّت الفتيات بتلاقيهن في هذا الاجتماع ، وسررن باتفاق

والدتهن بعده على الذهاب معاً لتأدية فروض التعزية في بعض البيوت ، فاتفقن فيما بينهن على ركوب سيارة إحداهن التي تعهدت بأن « توزع » صاحباتها على بيوتهن مجاناً لوجه الله الكريم وبدون « أكْسِيدان » . وثمّ فرصة مواتية لتبادل الآراء وإبداء الملاحظات على حفلة الاستقبال وعلى الذين حضروها ، إذا تيسر شيء من ذلك عند ما يأبين جميعاً احتمال فريضة السكوت ... بيد أنهن سكتن فجأة عندما أنشأت إحداهن تنتقد هندام السيدات وتبرجهن وذوقهن وجمالهن . هذا حديث لذيذ حقاً ، يوافقن عليه ويؤيدنه وإن كن في قلوبهن مقتنعات بعكس ما يقال . وإذ توغل النقد فأمسى لاذعاً ، طربن طرباً ورنت ضحكاتهن بريئة ، في نظرهن على الأقلّ ونادت إحداهن صاحبة الثوب الأزرق قائلة : ألا تشاركيننا في الضحك ؟ ألا تسمعين ؟

ـ أنا اتخذتُ لي محلاً مختاراً قرب « الشوفير » ولذلك أصبحتُ مسؤولةً عن سلامتكنّ ، وعلى أن أظلَّ هادئةً لئلا يحدث لنا « أكسيدان » .

ـ بعد الشرّ ! إذا تحتم « الأكسيدان » فليكنْ بعد وصولي إلى البيت سالمة . وها قد وصلنا والحمد لله ! فتستطيعين الآن أن تستبدلي بمكانك مكاني داخل السيارة .

وبعد وقوف السيارة ونزول الفتاة التي كانت تتكلم ، حدثت مناقشةٌ لاقناع جارة السوّاق بتغيير مكانها . فأبت مؤكدة أنها هنا على ما يرام ، وأنها تريد حراستهنّ إلى النهاية . واستأنفت السيارةُ السير والفتيات يضحكن من جارة السوّاق لأنها « كونسرفاتريس » وينصحن لها بأن تلبس العمامة للاندماج في هيئة كبار العلماء في الأزهر .

كانت صاحبة الثوب الأزرق تسمع لغوهنّ ولا تعي معناه . إنها بعيدة عنهنّ وعن العالم بما فيه ومَن فيه ، بعيدة عن النيل الذي يجري تحتها ، عن سحر الجزيرة المنتشر حواليها ، عن جمال الغروب وقد تمازج فيه انهزام

النور واقتحام الظلام . لقد حدث في ذلك الاجتماع شيء مدهش قلب الدنيا رأساً على عقب . وهو بعدُ شيء بسيط يكاد يكون عادياً ، وكأنها كانت تنتظره على غير معرفةٍ منها .

اتفق أنَّ فتى كان على مقربةٍ منها في ذلك الصالون ، فصنع لها مثل ما صنع لغيرها ، ومثل ما يصنع كلّ رجل له ولو بعض الإلمام بآداب الاجتماع . كانت فتاةُ الدار تبذلُ جهدها مع معاونيها ومعاوناتها لإرضاء الضيوف وقد تعبت كثيراً في القيام بمهمتها . فسارع ذلك الفتى إلى مساعدتها فجرّ أمام صاحبة الثوب الأزرق طاولة صغيرة وضع عليها قدح الشاي وجال يقدّم ما يصحب الشاي من قطع الحلوى الصغيرة الجافة . فتناولت صاحبةُ الثوب الأزرق قطعةً ورفعت ببصرها إليه في ابتسام ، وقالت : « مرسي » . وكان عليها أن تردّ بنظرها في الحال إلى جارتها التي كانت تتحدث حديثاً طويلاً . ولكنها لم تردّ نظرها ولم تخفضهُ . لأن نظرهُ سار رسولاً إلى أعماق عينيها ، إلى أعماق جوانحها ، إلى أعماق كيانها ، فاهتدى هناك إلى شيءٍ كان يطلبه ، ولم تدر هي ماهيته . وكان وجههُ جادًّا ونظرهُ جادًّا ، شأن الرجل عندما ينبه إلى أمرٍ هامٍ .

فجمدت الابتسامة على شفتيها ، وكأنّ السرّ الذي وجده فيها يسأل السرّ الذي بعث به نظره : « ماذا ؟ » . فخيل إليها أن سرّه يجيب : « أردت أن أنبهك فقط ... لأنكِ نبهتني وأنتِ لا تعلمين » .

لحظة لا غير ، لحظة لم ينتبه إليها أحـدٌ من المحيطين بها ، ولكنها كانت طويلةً مليئة كالدهور . وتكررت تلك اللحظة عندما التفتت في الشارع فلمحتهُ يشيعها ، وشعرت بالسرّ مقبلا من نظره البعيد ، يتوغل في كيانها من جديد . وفي هذا المساء الجميل المتهادي في رفقٍ على هذه الشواطيء الفتانة ، هي لا تعي شيئاً ولا ترى أحداً . الوجود كلهُ تلخص في ذلك النظر

وفي السرّ الذي يحتويه . على صفحة الماء المائجة نظرٌ مليء بالسرّ . في الفضاء حولها نظرٌ مليءٌ بالسرّ . في الغصون المتشابكة نظرٌ مليءٌ بالسرّ . في الأبعاد المترامية ، في ألوان الشفق ، في هبوب النسيم ، وبخاصة في صميم كيانها نظرٌ مليءٌ بالسرّ يهمس : أردتُ أن أنبهك ...

ـ ألهُ مثل هذا النظر مع سائر النساء ؟

هرولت السيارةُ في شارع الجيزة ولوت متحولة إلى ناحية الروضة لتعود إلى المدينة من شارع القصر العيني . وطول الطريق على صفحة الماء ، في امتداد السبل ، في رؤوس الأشجار ، في المركبات والسيارات ، في أشباح السابلة ، في واجهات المخازن ، في مصابيح الشوارع ، في كل مكان لم يكن هناك إلاّ ذلك النظر الواحد وسرّه المكنون .

ـ أهذه طريقتُه في النظر إلى النساء ؟

ووقفت السيارة فنزلت صاحبة الثوب الأزرق مودّعة صويحباتها ، وكأنها تتكلم وتتحرك مرغمةً . ودخلت مخدعها ، فإذا بالنظر ينتظرها هناك ، مع أنها لم تتخيل وجوده عندما غادرت هذا المكان قبل ثلاث ساعات .

دنت من مرآتها تتعرف فيها هيئتها فرسمت لها المرآةُ وجههُ لا وجهها ، وأقبل النظر يتسرّب إلى كيانها مع سرّه . فتأملتهُ ملياً وسألت :

ـ ألك مثل هذه النظرة مع غيري ؟

فلم تسمع لا من النظر ولا من نفسها الجواب

أطالت التحديق في المرآة ، وقالت تخاطبهُ : ـ أين أنت الآن ؟ كيف تجري حياتك ؟ كيف تجري حياتك كلّ يوم ؟ ماذا أنت صانع بنظرك في هذه الدقيقة ؟

في تلك الدقيقة كان الفتى بين أصحابه عند جروبي ، وقد رفع كأس

الوسكي إلى شفتيه ناظراً بعينين ناعستين إلى الغادة الجالسة قربهْ في ثوب عاجيّ ، وقائلاً ببطء :

ـ أشربُ « سرَّك » .

« ميّ »

مساجلة الرمال

أفواج عديدة من الرمل تتململ شيئا فشيئا . فوجا بعد فوج . وتتحدث في أواخر الغلس .

الرسالة : العدد ٨٤ ـ ١١ فبراير ١٩٣٥ ميلادية ـ الموافق ١٢ محرم هجرية ـ ص: ٥٦٣ ـ ٥٦٤ .

ـ الظلام يولّي هاربا ، وعمود الفجر يكاد ينشقّ . عما قليل تشرق الشمس فلا يلبث قرصها أن ينقلب أتونا يُصلينا نار السعير .

ـ سيان لدينا الليل والنهار . كل يوم ننتظر من الظلام عذوبة تحت أنوار الكواكب الواهية . ولكن حرارة الشمس تظلُّ مستودعة في كياننا فنلبث في إتقاد واضطرام يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة .

ـ إنما جعلتنا الأقدار متحاذيات متلاصقات لنفرش هذه الأرض ونكوِّن منها الصدأة المحترقة . يتهموننا بأن لمسنا يشوي اليد والقدم شيًّا ، ولكن ألسْنَا نعاني في كياننا المقدورَ علينا من عذاب السعير ؟ ودِدتُ لو أنّ لي دمعاً أذرفهُ من فرط السآمة والحنق والألم !

ـ طالما شهدنا الخلائق تهبط علينا وقد أضناها التعب والوصب ، فنفق الحيوان على صدرنا ، ومات الانسان بين يدينا ، ووجد كل منهما عندنا ملجأ طبيعيًّا يتلقاهما ويضمهما إليه . ونحن الجائعات الظامئات المتعبات على الدوام ، ليس لنا من يرثي لحالنا ويسعفنا . نحن التائقات إلى

التفلت من حالتنا الراهنة ، ليس لنا أن نمضي في علوّ ما ونهبط في مستقرٍّ غير هذا . واتعبي من هذا الوجود القاحل في ديمومة السكوت والجمود !

ـ أولا تتحركين وتنتقلين عند ما تطوِّك سنابك الخيل وأخفاف البعير وأقدام الإنسان ، لدن مرور هاتيك القوافل التي ما فتئت تطوينا منذ أن كان الدهرُ وليداً ؟ .

ـ ليست هذه هي الحركة التي ننشد . إن شوقاً عميقاً فينا يتلهَّف على حركة من نوع آخر .

ـ كم من حركةٍ مفاجئةٍ خبرتْ عندما عصفت بي السموم في النهار أو الحَرور في الليل ! زعازع وأنواء انتزعتني في عنفٍ من مقرِّي إلى مقرٍ آخرٍ ، فما كنتُ منتقلةً إلّا من الرمضاء إلى الرمضاء حيث السعيرُ دائمٌ والأوار مقيم !

ـ وأنا تلقّفتني العواصف غير مرة . فحطت بي يوما عند ساحل البحر فامتزجتْ بالماء ورسبتْ في القعر . وأغفلني هناك زمنا الدهرْ الوسنان . ثم قذفت بي الأمواج على الشاطئْ ، فتناولتني الزوبعة الهوجاء ، وردّتني إلى مستقري في هذه البطحاء !

ـ وأنا كم حدت بي الريح إلى حيث الينابيع تتفجّر والمياه تجري ! إلى حيث الأرض كريمة والأشجار ظليلة ، وقد نوّرت الأزهار هنا وهناك وهنالك على صفحة الروض ، وتشابكت الرياحين بمثيلاتها من شذيّ النباتات فعبق الهواء بأريج العطور ! ...

ـ لا تذكرن الماء والعطر والظلال لرمالٍ شقية قضى عليها بالمحل والاضطرام والصدى ، لا ترهفن فينا أشواقاً تأبى التحقيق !

ـ أتوق إلى الذوبان في سائلٍ ما ، ولو كان ذياك السائل القاني الذي رأيناه أحياناً على جسد الإنسان والحيوان ! ولكننا غير قابلات للجرح الذي يغسل قحلنا بنجيع الدماء ، ولن نكون يوماً قمينات بابتسامة الحياة وعذوبة الحنان .

قضي علينا بأن نكون دواماً في حكم الموتى ، وقد حُرمنا نِعَما يجنيها غيرنا في جنّـةِ الأرضِ .

ـ أنكون في حكم الموتى ونحن نشتاق ونتعذَّب ؟ ألا ليت كلّ قافلة عابرةٍ تسير بي إلى حيث ينيخ الركبْ ! حيث الخيمة المضيافة والناس يضرمون النار ويأكلون ، وينهلون الماء ويرتوون ! واحنيني إلى هناء المضارب ! واحنيني إلى كيانٍ قابل للريّ والارتواء !

ـ لو كان لي أن أرجو الوصول يوما إلى تلك الحالة الراغدة لأعانني الرجاء على الاحتمال ، وكان لي منه العزاء والسلوى ! ولكننا في هذه البطاح الصَّماء البكماء ، إنما وُجدنا لنقطع كلّ صلةٍ بين الحياة والحياة !

ـ ويلك ! ماذا تقولين ، نحن قاحلات جائعات ظامئات مشتاقات ، ولكننا وُجدنا لنكون صِلة بين الحياة ولباب الحياة ! .

ـ أوَلا ترين الفجر يتلألأ في الأفق سنيا ؟ غبار دقيق من النور يتناثر حولي ، كأنه سحيق من الذهب والبلور . هذا يوم عيد .

ـ لولا هذا اليوم وما ميّزهُ بين الأيام ، ما كانت تلك القوافل العديدة ، قوافل الحجاج التي نراها منذ قرون وقرون ذاهبةً آئبةً .

ـ لقد شهدتُ القوافل ذاهبة آئبة منذ أن خرجتُ على الصحراء رملاً ، وتعرّفتُ قوافل العرب الرحّل وقوافل الغزاة والمحاربين والشعراء والعاشقين . وكم من حداءٍ سمعتُ ! .

ـ تلك القوافل تعددت ألوفاً وألوف الألوف منذ أربعة عشر قرنا ، وتبدّل الغرض من ترحالها منذ أن انبثق من سويداء قلب الصحراء جحفلُ النصر العظيم . فصارت القوافل قوافل الذكرى والعبادة والسلام ، تقبلُ علينا في عجاجة ورديّة من قصيّ الأبعاد حيث يُخيّل أن الآفاق تتحرّك ،

وتغادرنا في عجاجةٍ وردية لتتوارى وراء الآفاق التي تحنو على وديعتها الفريدة الغالية .

ـ أعرف تلك الوديعة ، فقد ساقتني إليها الريح مرةً ! هناك مثوى ذاك الذي عرف كيف يلقي في أرواح الشعوب روحاً حيَّةً خالدة .

ـ فتى الصحراء ! فتى الصحراء الذي اصطفاه ربُّهُ ليحمل الكتاب . فهجر دياره ، وسلاحه كتاب فغزا به العالمين !

ـ الفاتح الذي لا يشبهه فاتح ! إنه لم يغزُ البلدان والأمصار وكفى ، بل غزا القلوب بسرّه ، وفتح النفوس بسحره ، يوم خروجه من الديار هو بدء تاريخ الهجرة . وها الناس على توالي القرون ، وقد هاموا بجاذبيته النورانيَّة ، يهجرون ديارهم وخيراتهم ويقتحمون المفاوز والأخطار ليحجوا إلى البقعة الصغيرة العظيمة التي تجمَّع عندها معنى الديار والأوطان ، وتركزت فيها ثقة اليقين وانبعث منها نور الإيمان ! .

ـ سيد الغزاة والفاتحين ! إنه فتانا ، فتى الرمضاء وفتى الرمال ! إنه جاء بمعجزة المعجزات فأخرج الخصب الخصيب من ديار القحط والجدب !

ـ فتى الصحراء العجيب ، ذو العينين الدعجاوين حيث أودعت السماء نطفة الضياء ! إن ذكراه لممتزجة بذكرانا !

ـ نحن الرمال لم يكن وجودنا عبثاً كما زعمنا في أجلنا المديد الأليم ! نحن الجامدات ، كنا مبعث الحركة والحياة ! نحن القاحلات ، كنا وما زلنا سبيل الهجرة الخصيبة .

أشرقت الشمس ـ شمس اليوم الأول من العام الهجريّ . من الرمضاء تتصاعد أشباح أثيرية تدور رشيقة في نور النهار الجديد . وقد أصبحت أفواج الرمال القريبة والبعيدة كلّها جوقة واحدة تنشد :

نحن الرمال القاحلـة ،
«لا خصب يوازي خصبنا !
« نحن الرمال الجامدة »
« هل من حياةٍ كحياتنا ؟ »

« ميّ »

هوذا الربيع[1]

الربيع ، الربيع ، هوذا الربيع !
في قمر الأسمار ، في انبلاج الأسحار ،
في مرج الأطيار ، في عبير الأزهار ،
في النهار الدوّار ، في الأصيل البديع !
الربيع الجديد ، هوذا الربيع !

أنا القلب السعيد ، وهوذا الربيع !
في سويدائي يحتجبُ الوجهُ المحبوب دواماً
وراقه أن يستهلّ مشرفاً على البريّة ، فانقلبت قُبة الفلك
محراباً تلألأ فيه طيفٌ من بهائه ، وفي مدى الأبعاد شاعت
بهجةٌ تعكس شيئاً من حلاوة ابتسامته ، وفيض سنائه . وانبرى
الربيع يزجي آيات التسبيح والتهليل بأشكاله وألوانه ، لأنه
اقتنص لمحةً من ذلك الوجه ، فتنضّحت مجاليه برونقِه ،
واتزرت بروائه .

(١) عن مجلة « الرسالة » العدد : ٩٨ ـ تاريخ ١٩٣٥/٥/٢٠ ـ ص : ٨٠١ ـ ٨٠٣ ـ وكانت مجلة « الهلال » قد نشرت هذه المقالة الوجدانية عام ١٩٢٣ ـ ج (٣١) ـ عدد « مايو » بصيغة مختلفة .

وتجمّدت الأزمان في لحظةٍ ، فهي أبديةٌ ، آبدةٌ ، تخلّدُ حبوري ،
والوجود كُلُّهُ هالةٌ تحيط بالوجهِ الفريد المعاني ،
وخوالجي حيال الوجهِ وهالتِهِ نبضٌ للوجود وترتيل :
« أنت مرتع هيامي ، أيها الربيع !
يا ربيعي النشوان ، أيهذا الربيع ! » .

أنا الحدائق والرياض ، وهوذا الربيع !
أرواح الأحباب والخلاّن متجمهرةٌ في رحابي
معارض الوشي والزركشة نضيدة ، ومتاحف اللمعان
والإشراق عديدة ،
الأشجار تكللها تيجان الظلال والأنوار ، وفيالق الغصونِ
خاشعةٌ كأنها في حضرةٍ ربانية ،
والمرئيات كلها على ارتقاب وانتظار ، تتوقع نبأً خطيراً قد
يكون إفصاحاً عن بعض ضمير الأكوان .
أَقُضِيَ الأمرُ فَفُزْتِ ، يا اخواتي الكائنات ، بما كنت تتوقعين ؟
سيّالٌ من ذوب النصر والابتهاج يدفق علينا ، وكأن كل ما ترامى في الأمكنة من مراجع الألحان يتلخص في حضني نشيداً :
« شتيت الأجزاء وحدة واحدة ، أيها الربيع !
على طور حسنك نتجلى معاً ، أيهذا الربيع ! »

أنا الينبوع الصافي ، وهوذا الربيع !
ظليلةً تحنو الشجرةُ عليَّ ، وأنا في فيئها الحنون جاثم .
بلوريّة الجلباب ، بلوريّة الرنين تتلاحقُ مياهي ، وقد
أودعها الربيعُ لاعجَ الشوقِ ووصبَ الحياة :
وفي مترنّح أسجوعتها نداءٌ واغراء ، ونعومة واستعطاف ،

ووعدٌ ووفاء ، وثقة ونوال .
مياهي تفضض الحصى وترطب الأعشاب والأدغال في
جريها الحثيث الى حيث لا تدري . هي تتوقُ إلى رشيد السخاء
كيلا تحسب ولا تدّخر .

وتتوالى الساعات فلا يتفيأ شجرتي شريد الهجير ، ومرآتي
المتثنّية لا ترسم وجه المرتويّ الشكور !
ليس من عابر غير ذاك الذي أخذ مني ما أخذ ليقذفني
بالأحجار ، ويترك منه تذكاراً ، اللعنة والأقذار !
اليأس خالط صفائي ، والكآبة حلّت في مياهي !
وبتُّ أحلمُ بالذين طوحت بهم السبلُ فهاموا في القفر
عطاشا ، بينا مدرار أجاجي يناديهم وينطق باسمهم جزافاً
ولا مستني مؤاسيةٌ في الظلام الأفنانْ ، فاستحالت مياهي
عبراتٍ ، وغدا نشيدي شهيقاً وانتحاباً :
« الربيع الحزين ، هوذا الربيع !
ربيع الجحود والهجران ، كيف احتمل الربيع ؟ »

أنا الصحراء القحطاء وهوذا الربيع !
الصحراء الواجمة الكتوم ، كذلك كنتُ وكذلك أكون !
أللحياة صورٌ وأشكال وسنن ؟
أفي الحياة ولادة ومَوت ؟
أفي الحياة تبديل وتحويل ؟
أفي الحياة نموٌّ ونشوء وازدهار ؟
مَهْ عن الصحراء ، أيهذا اللغو السقيم !
أنا مملكة العيّ والبكم والصمم والعمى !

أنا منطقة السآمة الآيسه ، والغليل القتال
مائي سراب ، وظلي تراب ، وشبلي أتاويه ، وملامسي لوافح
وسموم ، ومعالمي مجاهل المفاوز ، وأفجاج الأهوال .
إني في ربوتي ومحلي حجةٌ رهيبةٌ على أجحاف الأقدار ،
الأقدار التي تعاقب بلا ذنبٍ ، وتغرّم بلا سبب وتبتاع
خصب المروج بعقمي المقيم .
أنا في قحطي المفروض وسكوتي المستمر أسير الوحدة والانزواء .
أنا في رحاب الأرض حبيسة .
أنا تزدردني الرمال على الدوام فأنّى لي أن أعول :
« ليس لي الربيع ! ليس لي الربيع !
ربيع الرمال والسعير ، ما حاجتي إلى الربيع ؟ »

هوذا الربيع ، هوذا الربيع :
مغرياً في الفضاء ، فتاناً في الحدائق
بهيجاً في الألوان ، رشيقاً في الشقائق
طروباً في قلب الجذلان !
هوذا الربيع ، هوذا الربيع !
كئيباً في قلب المظلوم ، جريحاً في قلب المحروم ،
شاملاً بعطفٍ نصفه قسوة ،
حاضناً برفقٍ نصفه عنف .
موحياً أملاً نصفه يأس ، مذكياً خصباً نصفه قحل ،
حافزا شبابا نصفه هرم ، مجدداً حياة نصفها ردىً ،
الربيع ، الربيع ، لمن يكون الربيع ؟
الربيع الجديد هوذا الربيع !
الربيع العابر ، هوذا الربيع !

أمير جَلْوَا
رمز الشبيبة المعذّبة

الرسالة : ج (١) السنة الثالثة ـ العدد ٩٩ تاريخ ١٩٣٥/٥/١٧ .
ص ٨٤٩ ـ ٨٥٢ .

بمناسبة انقضاء خمسين عاماً على وفاة فيكتور هوجو ، سيكون النظر في كتاباته والتحدُّث عنها من خير الوسائل للإحتفاء بذكراه ، بل هو أحسنها على الإطلاق ، لأن الشاعر يعيش بآثاره لا بما يقول الناس عنهُ ، ولا بما يصنعون « لتخليد » اسمه .

ومن آثار هوجو ما هو خصيص بعصره ، ومنها ما لن يستوعبه إلّا المستقبل ، ومنها ما هو لكلّ زمنٍ وكلّ مكان ، ومنها ما يخيَّل أنه وُضع لأيامنا هذه . ومع أن حكاية أمير جَلْوَا من أقل كتابات هوجو ذيوعاً ، فهي أكثر ما تكون انطباقاً على حالة طائفةٍ من الشبان في هذا العصر ، حتى في هذه البلاد ـ مع اختلاف نوع الحافز لانفعال الغرام .

فمَنْ يكون أمير جَلْوَا ؟

هو فتىً سويسري ، ووالده يعلِّم الخطّ في مدارس جنيف ، استغواه اسم باريس ، فراح يجري وراء السراب الذي أغرى الكثيرين بأن تلك المدينة العظيمة هي عاصمةُ المغامرة بالمواهب والمضاربة بالحظوظ ، وأنَّ كلَّ لبيبٍ باسلٍ يجدُ فيها المستقبل الذي يستحقّهُ وخلاصةَ ما يصبو إليه من نجاح

وثروةٍ وشهرةٍ ومجد . « فمن دخلها بلا حذاء ، خرج منها في مركبة » .

وقد دخلها أمبير جَلْوَا في اكتوبر ١٨٢٧ ، ومات فيها بؤساً ويأساً في اكتوبر ١٨٢٨ .

عامٌ واحدٌ لا غير ، لتحيا فيه جميع الآمال ، ولتخيب فيه جميع الآمال . ويصف هوجو بطله شاباً مديدَ القامة ، محنيَّ الظهر قليلاً ، بَرّاقَ العينين ، فاحم الشعر ، ورديّ الوجنتين ، يرتدي رادنجوتاً أبيض ، وعلى رأسه قبعةٌ قديمة . في الجملة الأولى يتلعثم إذ هو يذكرُ اسمهُ واسم المدينة التي كان فيها طفلاً ، ثم اسم المدينة التي يُريدُ أن يكون فيها رجلاً . هو في الحادية والعشرين من عمره ، وثقته بنفسهِ أقلّ من ثقافة فكره ومن خصب جنانه . هو يسعل قليلاً ؛ وبحركةٍ مرتبكةٍ يحاول ارجاع قدميه إلى الوراء تحت الكرسي ، ربما ليخفي حذاءهُ الرث ذا الخروق ، أو هو يحاول تدفئة قدميه بعض الشيء بعد تسرُّب ماء المطر إليهما من هاتيك الخروق . وبعد الكلمات الأولى يتركّز صوتهُ ، ويتكلَّم بطلاقة ، وتكاد تقتصر أحاديثهُ على شعراء انجلترا . كذلك عرفهُ الرجال الثلاثة أو الأربعة من كبار الكتاب والأدباء الذين رحَّبوا به وشجعوه وساعدوه قدر المستطاع ، مقدرين فكرهُ المشبوب وثقافتهُ وتأدُّبهُ وحسن بيانه .

انتابتهُ في الشهور الأولى حمَّى باريس ، فأراد أن يرى كلَّ شيء ويسمع كلَّ شيء . لم يُعنَ بأهل السياسة والتسوُّس ، ولا بالمتحذلقين الذين لا همَّ لهم غير « قتل الوقت » والظهور ، ولا بجماهير المتقاطرين لزيارة المكاتب والمتاحف ، بل كان همّه روح باريس الحيّة ، ورسالة باريس الفكرية ، واتجاهات باريس في تطوُّرها الفنيّ . وحيثُ الجدلُ الأدبيّ واحتكاكُ الآراء فهو موجود ، يساهم في الحديث والمناقشة ، ويطرحُ أفكاره العديدة لمن يبغي النقد والتمحيص .

كذلك كان في الشهور الأولى . أما في الشهور الأخيرة فاستسلم لليأس ،

وقد ملَّ كلَّ شيء ، وزهد في كلِّ شيء . أترى مَثَلُهُ الأعلى كان أكبر من باريس أم أصغر ؟

ليس من يعلم . إلاّ أنهُ بات يوماً وقد أعرض عن الحياة ، وكأنّه قد صمم على الموت بدون انتحار . وكان عارفو مواهبه يمكنونه من مزاولة بعض الأعمال الكتابية التي يسعى إليها ويعيش عليها الألوف ، كتحضير الموادّ اللازمة لتأليف المعاجم ، وجمع المعلومات المقتضاة لتدوين سِير العظماء ـ العمود الواحد منها بعشرين فرنكا ! فاشتغل قليلاً ثم أحجم . والعلة البطيئة التي لازمتهُ منذ الطفولة أخذت تتفاقم وتشتدّ بسرعة . وقد تلاشت آماله ، واختفت من حواليه رؤى المجدِ المرجوّ وامتهن حتى ما تركه من منثورٍ ومنظومٍ ، لعجز شعرِه ونثرِه عن تقديم شيء ولو صورة باهتة من نفسيَّته المتفجِّعة . وعندما قضى نحبه في الثانية والعشرين كان موقناً بأن شيئاً من آثاره لن يبقى :

أما فيكتور هوجو فيرى أنه كان مخطئاً ، إذ بقيت منه رسالةٌ متقطعة كتبها في عدة شهور إلى أحد أصحابه السويسريين ، ولا يقتصد هوجو في إعجابه بتلك الرسالة التي يعتبرها « اعترافاً سرياً من نفس قليلاً ما تشبهُ غيرها ، على حين أنها صورة لجميع النفوس . وهذه هي ميزة تلك الرسالة : فهي الاستثناء الشاذ ، وهي الشيء الشائع المألوف » .

* * *

ونشر هوجو الرسالة بنصها المكتمل ، فلم يحذف منها إلا الأسماء مراعاة لأصحابها . وإلى القارىء فقرات جوهرية من تلك الرسالة التي لا يتسع المجال لنشرها كلها . ففي هذه الفقرات ترتسم من أمير جلوا صورته النفسية ، مع خيال الغرام الواحد الذي عاش عليه إلى النهاية :

« اليوم ١١ ديسمبر ، ونحن في الساعة الثالثة . لقد مشيت ، وقرأت . السماء جميلة ، وأنا أتألم في تفطر . وصلت باريس في ٢٧ اكتوبر ، فأنا

هنا أذبل وتذهب قواي بلا رجاء . عرفت ساعات وأياماً بتمامها لامس فيها يأسي الجنون . متعباً ، في انقباض حسيّ وأدبيّ ، متشنج النفس في هذه الأحياء المليئة بالوحل والدخان ، كنتُ بلا توقف أهيم مجهولاً ، وحيداً وسط جمهورٍ عظيم من الناس يجهل بعضهم بعضاً هم أيضاً » .

« أتكأتُ ذات مساء على جدار جسر نهر « السين » ؛ ألوف الأنوار تترامى على بعيد المدى ، والنهر يجري ، وكنتُ من الكلال بحيث لم أستطع مواصلة السير . وهناك ، وقد نظر إليّ بعض السابلة كأني مجنون ، اشتدت عليّ وطأة العذاب فلم أقو على البكاء . أنت في جنيف كنت أحياناً تمازحني هازئاً بشدة تأثراتي . وأنا هنا ألتهمها وحيداً ، تلك التأثرات التي تنكل بي ، ولا تفتأ تهتاجني بلا مهادنة . كل شيء يتعاون على تمزيق نفسي : الاحساس الرحيب المتوالي الذي يشعرني بفناء زهونا وأفراحنا وأتراحنا وأفكارنا ، وتَزَعزع موقفي ، ورهبة الفاقة ، ومرضي العصبي ، وخمول اسمي ، وبطلان مساعيّ ، وعزلتي حيال عدم اكتراث الآخرين وأثرتهم ، ووحدة قلبي ، وحاجتي إلى السماء والحقول والجبال والأفكار الفلسفية أيضاً ، وفوق هذا ـ أجل ، واهاً ! فوق كل هذا ، الحنين الموجع إلى بلاد الجدود . يتفق لي في بعض الأوقات أن أحلم يقظان بكل ما أحببت ، فأمضي متنزهاً في بلادي أطيل التذكُّر بما قاسيتُ من الآلام في جنيف ، وبنادر المسرات التي ذقتها هناك . وملامح من أصدقائي وأهلي ، وطيفٌ من مكان قدَّسته الذكرى ، أو شجرة ، أو صخرة ، أو زاوية شارع ، تتخايل لي ، فتنبهني إلى الواقع صيحات سقاء باريسي . واهاً ! كم أتألم عندئذ ! وكثيراً ما أعود إلى حجرتي المنفردة عِيَّ الجسد والروح ، فأجلس لأحلم أحلاماً مريرة مدلهمة في بحران وهذيان » ... « ألا ما أتعس الذي يأسف على ما قد يسارع إلى لعنهِ عندما يجدهُ ! ليس لي حتى أن أستمتع بألمي ، لأن روح التحليل قائمة عندي على الدوام تشوه كلَّ شيء » .

« ..... سآمة نفس ذبلت في سن الحادية والعشرين ، الشكوك القاحلة ، الأسف المبهم على سعادة تراءت لي في إبهام أيضاً كمجد الغروب على ذرى جبالنا ، أوجاع حسية ، وأوجاع ايدياليستية ، الاقتناع بأن الشقاء متأصل في النفس ، اليقين بأن الثروة على ما فيها من كثير خير لن تجعل السعادة تامة : هذا ما يفطّر نفسي البائسة . واهاً ! يا صديقي الوحيد ، ما أتعس أولئك الذين ولدوا تعساء ! » .

« ومع ذلك ، يخيل إليّ أحياناً أن موسيقى تعزف في الهواء لمسمعي ، وأن ألحاناً شجية غريبةً عن أنواء البشر تدوي من فلكٍ إلى فلك لتنتهي إليّ . ويخيّل إليّ أن ممكنات آلام جليلة هادئة تحط على أفق فكري ، كأنهارِ قصيّ الديار في أفق الخيال . غير أن كل شيء يضمحل بقسوة الرجوع إلى الحياة المحسوسة ، كلّ شيء ! كم مرةٍ قلت مع روسو : « يا مدينة الوحل والدخان ! كم تعذّب هنا صاحب تلك النفس الحنون ! وحيداً ، شريداً ، منكلاً مثلي ــ ولكن أقلّ شقاء بستين عاماً من عصر جادّ خطير الحوادث ــ كان في باريس ينتحب ، وأنا أنتحب . وسيأتي غيرنا ينتحبون . يا للفناء ! يا للفناء ! .

« ... إلى الآن لا أربح شيئاً ، مع أن لي أصدقاء مخلصين يجهدون ليجدوا لي عملاً ......

« يا صديقي . أعود إلى رسالتي بعد أن بدأتها ، ثم استأنفتها . نحن في ٣١ مارس والساعة الثامنة مساءً . أكاد أجنّ من فرط الألم ، ويأسي يفوق الاحتمال . تألمتُ اليوم ألماً يكاد لا يستطيع أن يتخيله بشر . ثم داهمتني ا[illegible]ى في هذا المساء ، وما الحمى المحسوسة سوى فضلة الح[illegible]ى النفسية » ... « اسمع » ... « قد اكتشفت شيئاً فيّ فعلمت أني لستُ شقياً بسبب هذا الأمر أو ذاك ، ولكنّ فيّ عذاباً مقيماً يتخذُ أشكالاً عدَّة ... أنتَ تعلم أني في جنيف كنتُ أتخيل أني لو نفذتُ إلى باريس كنت سعيداً . وأنا ، يا صديقي ، هنا أعاشرُ أكبر الأدباء .... وأشعر أحياناً بنشوة الظفر في الأندية والسهرات

والاجتماعات ... وما كلّ ذلك ؟ ... إن في أعماق حياتي سرطاناً آكلاً ... منذ شهرين تجمعتْ قوى عذابي على نقطةٍ واحدة ، أخافُ أن أذكرها لك لفرط شذوذها » ... « ذاك المصدر المركزيّ لآلامي هو أني لم أولد انجليزياً . أتوسل إليك ألا تضحك ، فعذابي مبرح . العاشقون حقاً مهووسون لاعتكافهم على فكرة واحدة تستغرق جميع تأثراتهم . وأنا بعد أن كانت نفسي زمناً طويلاً فريسة جلبةٍ منوّعة ، أنا الآن مهووس أيضاً .

« هاك منشأ غرامي بانجلترا : أنت تعلم أني أحب أن أعيش مع الموتى متعرفاً حياتهم السالفة فأقطنها معهم واسايرهم في أحوال معيشتهم ، وأن أخلق بيني وبينهم تعاطفاً ييسرهُ وهمُ الزمن ، فلا يستطيع بعدُ أن يزعزعه وجودُ الأفراد . وأجد في انجلترا خمسين شاعراً على الأقل ، زخرت حياتهم بالمغامرات ، وعمرت كتبهم بالفكر وبالخيال . أما في فرنسا فلا أجد ثلاثة . وفيما عدا ذلك ، قد كنتُ أحب من وطني الانجليزي حتى مزاعمهُ اللاغية . ففي مزاعم انجلترا كثير من الشاعرية وكثير من الخيال . وبدلاً من أدبٍ واحد ، فللأنجليز آداب أربعة : الأمريكي والانجليزي والاسكوتلاندي والايرلندي ، تُكتبُ جميعاً بلغةٍ واحدة ولكلّ منها خصائص تميزها . فأية ثروة أدبية ! ...

« يوجد الآن ثلاثون شاعراً بين الأحياء ، كل منهم مستقلٌّ بشخصيته لا ينتحلُ طريقةَ غيره ، وكل منهم خصيب . يا للثروة ! ويا لمغامرات سافيج المسكين ، وشليٍّ ! وأيّ عملاق هو بايرون ! كم من كنز عند هؤلاء للنفس التي تحبُّ الفرار من العالم لتلتقي بأصدقائها في مخدعهاٰ ! وكم ذا يعنَى الانجليز بكتّابهم ! إنهم يطبعون مؤلفاتهم في جميع الأحجام ، وأي ذوق في طباعتهم ، وكم من الخيال في نقوشهم ! وأنظر إلى الأمة نفسها . فذوو السحنة الخسيسة في انجلترا نادرون ندرة ذوي الهيئة الممتازة في فرنسا ! كل ما في تلك الأمة شاذّ . هناك تسود الحماسة فى ألف شكل . هناك إلى

جانب الآراء الوضعية الأكثر صرامة ، تجد الترهات الأكثر نضارة . هذا بلد يحوي المذاهب الوضعية والنظريات الأيديالستية : فرنسا وألمانيا معاً . هو وحده له من القوة ما يكفي ليفهم كل شيء ، ومن العظمة ما يكفي كيلا ينبذ شيئاً . وأية ذاتية ! إنك لتميز الانجليزي بين ألف شخص . أما الفرنسي فيشبه الجميع . ووفرة الشيع الدينية في انجلترا تثبتُ على الأقل خلوص النية في نفوس تحتاج إلى الرجاء ولم تجفِّفْها الماديات . وشذوذ شبان الانجليز وتهوُّرهم ينم على نفوس يتنازعها القلق » ...

« أتألم لشعوري بأني في غير مكاني وسط شعبٍ طائش ثرثار ، ملحد ، ماحلٍ ، ذي زهوٍ وبرودة ، في حين أن الدنيا تحوي شعباً متديناً أو متطرفاً في التشكُّك ، ولكنه على الأقل لا يعيش في غير اكتراث ، شعباً تجد فيه الأصدقاء الخلصاء ، والنفوس المتفززة ، وحيث الطيش نفسه ذو نكهة غريبة شاذة وليس له هذه اللهجة الماجنة الفاترة التي نجدها في فرنسا .

« في المطعم الذي أتناول فيه طعامي يوجد إنجليز وفرنسيون . ويا للفرق جميع الفرنسيين تقريباً مشاغبون صخابون عاديون ، وجميع الانجليز نبلاء محتشمون . وختاماً ، يا صديقي ، أظن أن صديقاً يستطيع التحدُّث إلى صديقهِ عن غرامهِ ، لأن انفعال الحب يلاقي صدىً في جميع النفوس وليس فيه ما يستدعي الامتهان . على أن ألمي العارم من الشدة بحيث لا أستطيع التبيان ، ولأنه جد شخصيّ خاص فقد يبدو سخيفاً مزرياً للذين لم يشعروا بمثلِهِ . ومع كل ذلك ، فهذا الجنون يشعرني بآلامٍ مروّعةٍ لا تطاق . وكل شيء يرهفها : مشهد شخص انجليزي ، أو كتاب انجليزي ، حتى السخرية الموجهة إلى الانجليز تلتهمني التهاماً ... وهوسي هذا يجعلني أمجّ حتى الطمع في المجد . أودُّ أن أكون شهيراً في انجلترا ، وعليّ لذلك أن أكتب بالأنجليزية ... لو كنت انجليزياً ، بمزاجي هذا المريض ، لما تألمت دون ألمي الحاضر ، ولكن معنى الألم قد كان يتغير . يخيل إليّ أني لو ولدتُ انجليزياً لاستطعت

احتمال جميع آلامي . ولو ولدت لورداً انجليزياً من أهل اليسار ، بنفسي ومزاجي كما هما ، لكانت جميع ميولي وجميع أطماعي راضية قانعة ، وعندما أقارن بين هذا الحظ وحظي الراهن أجنّ ...

« استأنفتُ دراسة الانجليزية منذ شهرين بنشاط وحماسة حتى صرت أقرأ الشعر بسهولة . أفكر في الذهاب إلى انجلترا والكتابة بالانجليزية بعد أعوام . صاحبي ج . ل . يسلفني شعراء البحيرات الانجليز . إنهم يفتنونني . وقد استبدلت بالكتاب الذي أرسلتهُ أنتَ إليَّ مجموعة مؤلفات بايرون في مجلّدٍ واحد ، وتلوت فيه قصيدة صغيرة ، « الحلم » ، فكان لها عندي وقع الصاعقة » ... « تقول السيدة الإنجليزية التي تعطيني دروسا إني بعد الإقامة بانجلترا عامين اثنين سأجيد كتابة الانجليزية ، لأني منذ الساعة أكتبها كما يكتبها قليلون من الفرنسيين . والواقع أني أنفق نصف نهاري في دراسةالإنجليزية .

« إن هوسي شديد دائماً ، فيا للضنى ؟ وأنّى وجهتُ نظري وجدتُ التباريح . ومسائل العيش عندي ما زالت موضوع عذاب . أشتغل الآن في كتابة ترجمة حياة ، ولكني في حاجة إلى النقود ، بل أنا في ارتباكٍ عظيم من جراء ذلك » انتهى .

" ' " "

وقد علق هوجو على هذه الرسالة في تبسط ، وبانشائه وبتوسُّعه في اقتناص المعاني والاستشهادات ، مما يتعذّر نقله إلى العربية . إلا أني ألخّص من تعقيبه قوله : « عندما نذكر أن الرجل الذي كتب هذا ، مات عليه ، تأملات من كلّ صنفٍ تتفجر من كل سطرٍ في هذه الرسالة الطويلة . أية رواية ، أي تاريخ ، أية سيرة هي هذه الرسالة ! » ... « ليست هذه سيكولوجية تدرسُ على السمع أو على الجثة ، ولكنها تُدرس في الأعصاب والأنسجة والعروق ، في اللحم الحيّ ينزُّ دماً ، في اللحم الذي يعول . أنت ترى الجرح وتسمع الصيحة .

« كتابة خطاب كهذا في تفطُّر وإهمال وجمال ، دون بؤس كبؤس أمبير جلوا ، كتابة خطاب كهذا بمجرَّد مجهود الابداع الأدبي تقتضي العبقرية . أمبير جلوّا متألماً يوازي بايرون . شيئان يجعلان الانسان شاعراً : العبقرية أو الغرام ، وهذا الرجل الذي كان نثره باهتاً وشعره فاتراً أصبح في خطابهِ كاتباً يستدعي الإعجاب . عند ما ينسى أن يطمع في أن يكون شاعراً وناثراً ، ينقلب شاعراً عظيماً وناثراً عظيماً . وسيبقى هذا الخطاب ، فقد اشتمل على خليط قد يكون أدهش من كلّ ما أنتجهُ الى الآن دماغ بشريّ في بابه ، وبتأثير تضاعف الألم الحسيّ والألم الأدبيّ . والذين عرفوا جالوا يرون تشريحاً رهيباً ، تشريح نفس ، في هذا الخطاب المتوتر ، المضطرب الطويل ، حيث الألم يرشح قطرةً قطرةً مدى أسابيعٍ وشهور ، حيث الرجل الذي يجرى دمهُ ينظرُ إلى دمهِ جارياً ، حيث الرجلُ الذي يصيح يصغى الى صوته صائحاً ، وحيث في كلّ كلمة دمعة » .

« لا حوادث في هذه الحياة ، ولكن فيها أفكاراً . اروِ الأفكار تسرد حياة الرجل . بيد أن حادثاً عظيماً يهيمن على هذه الحكاية المكدرة ؛ وهو أن مفكراً مات من فرط البؤس ! هذا ما فعلته باريس ، مدينة الذكاء ، بفتىً ذكيّ . . . »

« . . . أمبير جلْوا ليس فقط أمبير جلْوا ، بل هو في نظرنا يرمز الى طائفة معدودة من شباب اليوم الكريم . في داخل هذا الشباب عبقرية غير مفهومة تلتهمه ، وفي الخارج مجتمع ساءت أوضاعه ، يخنق الشباب والعبقرية . فلا منفذ للعبقرية المحاصرة في الدماغ ، ولا منفذ للانسان المحاصر في المجتمع »

« الذين يفكرون ويتولون الحكم لا يهتمون في أيامنا قدر الضرورة بحظ هذه الشبيبة الزاخرة بعديد الغرائز ، المتهافتة بحرارة ذكية ، وبصبر واحتمال على جميع اتجاهات الفنّ . جمهور هذه العقول الفتية المختمرة في

الظل ، يحتاج الى الأبواب المفتوحة ، والى الهواء والنور والعمل والمسافة والأفق. ما أكثر ما يمكن عمله بهذا الجيش من الفطن! كم من قناة يمكن حفرها ، وكم من سبيل يمكن تمهيدها في العلم ، وكم من مقاطعة يمكن غزوها ، وكم من عالم يمكن اكتشافه في الفن! ولكن ، لا! جميع المهن مغلقة أو مزدحمة. وهذا النشاط المنوّع الذي يستطيع أن يكون نافعاً مجدياً ، يُترك متراكماً ، مزدحماً ، مختنقاً في ضيِّق الأزقة. قد كان هذا الشباب يكون جيشاً ، فاذا به غمارة. إن تنظيم المجتمع سيءٌ حيال المقبلين ، مع أن لكلّ ذي فكرٍ حقاً عند المستقبل. أليس محزناً حال هؤلاء المتألمين من ذوي العقول ، المستقر نظرهم على الشاطىء المنير حيث كثير من الأمور الساطعة من مجدٍ وقدرةٍ وشهرةٍ وثروةٍ؟ . . . »

* * *

هذا بعض تعقيب هو جو ، وهو في عطفه شفيقٌ نبيل. ولهجتهُ في كل هذا التعقيب تحملني على الاعتقاد بأنه عرف أمبير جلوا وأحبّه في حياته. ومن يدري؟ قد يكون الخطاب موجهاً إليه لا الى غيره ، وكون أمبير جلوا يرمز إلى الشبيبة المعذَّبة صحيح من الناحية الواحدة.

رسالة الأديب إلى المجتمع العربي

ميّ زيادة

سلاماً ، يا وست هول ، يا موطن الفكر والرأي والحياة المنظمة في كرامة وحرية ! كم من مرة جلست ، بالخيال ، بين جدرانك أتبادل والجمع الحاشد قوة الحيوية ، وآخذ قسطي مما يعج في فضائك من فائدة علمية واجتماعية ! كم من مرة عدت بالذكرى اليك اصغي بخشوع الى رسالات الفضل والعلم والتهذيب يتلوها هنا العلماء والمفكرون والمصلحون !

سلاماً ، ايتها « العروة الوثقى » ، الساهرة على وظيفتك في تنوير الافهام ، الحريصة على غايتك في احكام الرابطة العلمية والادبية بين اقطار الشرق العربي ! كم من صيحة ارسلها اقطابك واتباعك وانصارك من على هذا المنبر المضياف ، فمضت كالطير تسبح في القريب والبعيد من الاجواء ، حاملة رسالة العلم الصادق ، والبحث الرصين ، والخير العميم ، فكونت في اوساط قصيّة مواطن للفكر والرأي والحياة المنظمة في كرامة وحرية !

ولئن انا شكرت لك تشريفي بدعوتك واقتراح الموضوع ، فاني كذلك شاكرة لانك أفسحت لي مكاناً كريماً بين كرام ضيوفك ، عاملة بيدك القوية الوفية على إحكام الرابطة بيني وبين بني قومي .

واشكر لكم ، ايها السادة والسيدات ، تفضلكم بالحضور . ان اسم « العروة الوثقى » يلهم الفرد انه ينقلب امة عندما يخاطب الامة .

وما أجمله موعداً ، موعدنا الليلة ! فنحن في مطلع الربيع ، اذ باشرت

الارض اخراج زينتها وعرض مباهجها ، ونشرت السماء كواكبها وشموسها واقمارها وضاءة في رحيب الافلاك ، وسرت الحياة نامية في فتي الغصون ، واهتزت الارواح مترنحة لاستيعاب جديد النفحات. كذلك الشعوب العربية استيقظت من شتاء حالك الظلام ، طويل الامد ، وانبرت تستقبل الفصل الجديد من حياتها ، متعهدة براعم الامل والمجد في نهضتها ، ساعية الى ازدهار ثقافتها ازدهاراً عامراً بهيجاً .

الربيع يزف الى الارض رسالته ، و« وست هول » اليوم ، كما في الامس ، وفي الغد ، يؤدي الى المجتمع رسالته ، و« العروة الوثقى » تواصل العالم العربي برسالتها ، فماذا ترى تكون رسالة الاديب الى الحياة العربية ؟

ايها السادة والسيدات ،

اذا نحن تنحينا في بحثنا عن الرسالة المثلى ، رسالة الأنبياء ، وجدنا ان الرسالة في معناها الضيق هي الصفحة التي يكتب فيها الكلام المرسل. بيد ان معنى الرسالة ارحب من ذلك واشمل. اذ لكل فرد ، وكل كائن ، وكل شيء رسالته في معرض الوجود : فالشمس تؤدي رسالتها نوراً وحرارة ، والزهرة تؤدي رسالتها عطراً ووسامة ، والجبال والوهاد تؤدي رسالتها تبياناً لطبقات الارض وتنوع الخليقة ، والسهول والمروج تؤدي رسالتها خصباً وغذاء ، والسبل تؤدي رسالة الحركة والانتقال ، والانتقال يؤدي رسالة الاخذ والعطاء والتعاون المتبادل بين الاحياء .

ولكل جمهرة من الناس في كل بقعة من بقاع الارض شؤون عدة اذا ما عولجت واستثمرت ونظمت وحَسُنَ التصرف فيها ، اصبحت تلك الجمهرة شعباً فأمة ، وصارت تلك البقعة بلداً فدولة . وفي كل بلد صناعة ، وتجارة ، وعمارة ، وميكانيكا ، وادارة ، وقوانين. ولكل امة عادات وتقاليد

وتاريخ وتربية وحكمة وثقافة وآداب وفنون . الشؤون المحسوسة ، على تعددها وعلى ما بينها من فروق ، متشابهة واحدة في كل قطر . واخص خصائص الوحدة والتشابه نجده في التقدم العلمي والميكانيكي ، وفي الحضارة الآلية السائدة في كل مكان .

ترى ما هو الفرق بين مخاطب بالتلفون ومخاطب بالتلفون ؟ بين مستمع الى اذاعة راديو ومستمع الى اذاعة راديو؟ بين راكب دراجة او سيارة او طيارة ، وراكب دراجة او سيارة او طيارة ؟ ليس من فرق بينهما من حيث الخدمة التي تؤديها الآلة . اجل ، ثمت فرق في الغرض الذي تستخدم له الآلة وهذا ليس موضوع البحث . انما الفرق كل الفرق في الشخصية التي تستعمل الآلة . والشخصية لا تتكوّن إلا من العوامل الأدبية : التاريخ ، الاختبار ، الذكرى اللغة ، الفن ، الادب .

الادب اذن من اهم المقومات للشخصية . وربما كان الأصح ان اقول انه حجر الزاوية في تكوين الذاتية الفردية والذاتية القومية بالتبع . والفرق بين الشخصية والذاتية فيما اظن هو ان الشخصية تتكون مما يحيط بنا ويتقلب علينا من شؤون واحوال ، في حين ان الذاتية هي ما نظل عليه دائماً في صميمنا في جميع الشؤون وفي جميع الاحوال . فما ابعدنا بهذا التعريف عن التعريف الشائع ان الادب هو المستظرف من الشعر والنثر ، وانه صناعة لفظية حذقت حيلة النكتة والتورية واستسيغت منها البلاغة والحلاوة في وصف مجالس الانس ، وتصوير جمال النساء ، وشرح لواعج الحب والغرام كل هذا من الادب بلا ريب ، وله اهميته ، وهو ذو اغراء . ولكنه وجه فقط من الوجوه العديدة في الادب . ولئن اقتصر كل من العلوم والمعارف على نفسه دون غيره تقريباً ، فميزة الادب في انه يحتضن الكثير من المعارف والعلوم ، وله ان يتغذى بها جميعاً ليعالجها على طريقته الخاصة ، فلا يكون بعد الا ادباً .

ولكم كانت المنتجات الادبية والصور الخيالية سابقة للبحث العلمي ومعينته على الخروج من حيز القياس والافتراض الى حيز التطبيق العلمي والاختراع ! أليس ان شاعرية الشعراء طارت الى اجواز الفضاء قروناً طوالاً قبل اختراع الطيارات ؟ وفيالق العشاق (والعشاق شعراء وادباء دواماً) الم تناج ارواح الاحباب رغم شاسع الابعاد قبل ان يصبح الراديواداة من ادوات المنزل ؟ ومنذا الذي لم يقرأ ولو كتاباً واحداً من كتب الاديب الفرنسي جول فرن الذي وصف الانطلاق من الارض الى القمر وصفاً علمياً قبل ان يقوم علماء الستراتوسفير برحلاتهم الجوية ، وحدث عن سلك اعماق البحار في سفن ذات اجهزة ميكانيكية دقيقة قبل ان تحتوي اساطيل الدول على غواصات ترقب ما يجري في قلب اليم وعلى صفحة الماء ؟ منذا الذي لا يذكر الكاتب الانكليزي المعاصر ، ولز ، ومؤلفاته ذات الصبغة العلمية المتنبئة بمستقبل حياة ميكانيكية صرفة تترتب عليها حياة اجتماعية متوافقة ؟ لست من اشياع ولز ، ولكني اشير الى نظرياته شاهداً على رحابة الميدان للادب

واذا نحن عدنا الى الكتب الدينية الثلاثة : التوراة ، والانجيل ، والقرآن ، وجدناها متفقة على جعل الفردوس الارضي في شرقنا الادنى . فكان لنا ان نقول ان مجد الآداب كمجد النبوات وكمجد الحضارات اشرق من بلادنا ، وكانت اللغات السامية اول اداة للافصاح عنه .

التوراة مليئة باللهجة الادبية : والتوراة كتبت اولا باللغة العبرية . والانجيل مليء باللهجة الادبية : والسيد المسيح تكلم بالآرامية والسريانية والعبرية ، قبل ان يكتب الانجيل باليونانية واللاتينية لينقل بعدئذ الى مختلف اللغات . والقرآن مليء باللهجة الادبية : والقرآن هو الكتاب العربي المبين والمستودع الخالد لهذه اللغة التي لاتموت مهما توالت عليها القرون ، وتناهبتها تصاريف الحدثان .

ترون من كل هذا اننا معشر الشرقيين عريقون في الادب وان ادياننا

عمدت الى اللهجة الادبية لتكون اسرع اتصالاً بالنفوس وابرع استيلاء على المشاعر. ولئن اجمع نفر من علماء اللغات في الغرب على ان اللغات السامية حماسية ، غنائية ، بيانية ، خطابية ، اكثر منها اختصاصية علمية ميكانيكية ، فنحن نعتز بذلك لان اللغة الادبية هي لغة النفس ، لغة الجوهر ، لغة البقاء . واللغة المحتوية على الجوهر لا تضيق دون العرض والطارئ والاضافي . وليس لنا الا ان نتابع الجهود التي باشرناها افراداً وجماعات علمية ـ ناهجين نهج اسلافنا الذين نسخوا وترجموا ونحتوا واشتقوا وعربوا ـ لنجعل اداة اللغة كافية وافية في تأدية كل مستحدث من المعاني والمسميات والاختراعات العصرية . ولنا من اتساع اللغة ومرونتها ما يمكننا من صوغ المفردات وسبك القوالب على طريقة ترضي من الناحية الواحدة مولانا سيبويه ، وترضي الواقع والذوق من الناحية الاخرى . فلا يكون اسم الراديو مثلاً : الطمطمان ، ولا يكون التلفون : ارزيزاً .

ومعلوم ان الادب كاللغة ، حليف التقهقر والتطور في الشعوب التي تعالجه . وآدابنا في تاريخها الطويل اصدق شاهد على صحة هذه النظرية ، لانها ازدهرت ثم لازمها الجمود وفقاً لارتفاع الدول العربية وهبوطها . وصدق تلك النظرية اظهر ما يكون في عصرنا الحاضر .

نظرة الى البلدان العربية ، فماذا نرى ؟ بعد هجعة ثلاثة قرون او تزيد استيقظت الشعوب العربية ، وحركات اليقظة لا تكون منتظمة في بادىء الامر ، وارادة المستيقظ لا تكون مستقرة ثابتة ، وبصيرته تظل وقتاً غائمة غير صافية ولا نافذة . المستيقظ يلبث حيناً حائراً بين خيالات الليل وحقائق النهار ولكن كم في خيالات الليل من حقيقة ، وكم في حقائق النهار من خيال ! شعوبنا على همتها وتحفزها ما زالت قلقة مضطربة ، وادبنا على وفرة جهوده وغزارة مادته ما فتىء مضعضعاً ، غير واثق من نفسه ، غير مستقر . فما هي حاجتنا اليوم من الناحية الادبية ؟

اذا كان الادب صورة للشخصية العامة من خلال الشخصية الفردية الخاصة بحسناتها وسيئاتها ، بحوافزها ومعلوماتها ، بنورها وظلامها ، بتقاليدها وأوهامها ، بخوالجها وممكناتها ، بيأسها ورجائها ـ اذا صح ذلك ، وهو صحيح ـ فنحن نحتاج اليوم الى صوت الاديب والى رسالة الاديب .

المعترضون يقولون : ولكن الاقطار العربية متعددة ، ولكل قطر حياته الخاصة ولهجته الخاصة . افيكون اذن لكل قطر ادبه الخاص ؟

كيف لا ؟ وهل غير ذلك في الامكان ؟ أو ليس هذا هو شأن سائر الآداب ؟ أوتكون الثروة الادبية واسعة في اللغة الواحدة إلاّ بتعدد الآداب المحلية وتنوعها ؟ أوليس لكل من اميركا ، مثلاً ، وانكلترا واسكوتلاندا وايرلندا ادب خاص ، مجموعها يكوّن آداب اللغة الانكليزية عموما ؟ وفي كل من هاتيك الاقطار الغربية لهجة محلية هي غير اللغة الانكليزية ، والشعب يتخاطب بلهجته وباللغة الانكليزية ويكتب بهذه اللغة وبتلك اللهجة على السواء . فعلام نحن نشكو مما يراه الاخرون شيئاً جد عادي ؟ ومن المشاكل والمصالح والالام والامال ماهو مشترك بين جميع البلاد العربية . فرب زفرة حزن او صيحة استبسال ,وجدت صداها متردداً في ملايين القلوب العربية ! ورب رسالة ادبية انطلقت من قطر واحد ، فاجتاحت عديد الاقطار العربية المتناثرة من شواطيء الاطلانطيقي الى خليج العجم

اجل ، نحن في حاجة الى اقلام تخاطبنا باللغة العربية ببيان جميل يصور شخصية الاديب ، ويشرح حالة الامم ، وينشر امامنا صحيفة الازمنة الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل . فالماضي ينبثق انبثاق الينبوع فيخصب النفوس . وكما يكتنه الاديب ذخائر الماضي فكذلك هو يطلع على شؤون الحاضر ، متصلاً بكبار الحوادث التي تهز قومه في النقمة وفي النعمة ، في السخط وفي الرضى . واذ يرى الحوادث داخلة في دور الغليان ، والشعوب فوارة صاخبة كالحمم في فوهة البركان ، واذ يشهد الظلم والعذاب والمرض والنفاق فيبحث عن

الانصاف والصحة والصدق والانشراح ـ عندئذ تتم في داخله عملية عجيبة ، ولا العمليات الكيميائية . يخيل اليه ان موسيقى شائعة رائعة تنطلق من الازمنة والحوادث والشعوب موحية اليه سر الفن الجميل فينقل الينا منها ما ينقل ، جاعلا لكل شيء اهمية خاصة تهز منا المشاعر ، وتستثير الحماسة وتكيف الاراء . ومن معالجة الاديب للازمنة والحوادث والشعوب ينبعث لنا المزيج الفتان فيلفتنا الى ان في طبيعتنا رحابا لم نكتشفها ، وان في ارواحنا ممكنات توسع امامنا افق الحياة .

واذ يحدثنا الاديب عن النظريات والمذاهب والشخصيات نتحزب مختارين لها او عليها ، فننكر نظرية ونؤيد نظرية.، نمقت شخصية ونحب اخرى محاولين الاندماج فيها ، ندحر مذهبا وننتصر لغيره تائقين الى نشره في الملأ مع رفاق نوليهم الثقة . كذلك الاديب يجوز بنا بحر الحياة المكفهر كسفينة استغنت عن الشراع والقلوع وعن الرياح المؤاتية ، لان له من نفسه القوة التي تسوقه الى الامام . وليس من اختبار يمر به الا تأثرت به كتاباته ، فلا نفتأ نتطلع الى كل ما يحدث له متسائلين عن سر قوته في المناعة ، وعن سر قدرته في الابداع ـ ذلك السر الدفين ، ذلك الجوهر المكنون المعرض عن كل تأويل وتفسير ، السباق الى اجواء من التفكير والاحساس والتكوين لا نأبه لوجودها الا بعد ان يجول جولته فيها .

وسرعان ما يتصل الحاضر بالمستقبل في فن الاديب : جيل جديد يتخرج على اثاره وعلى مؤثراته فيشب حاملا معه الفكرة التي تنيل الحياة قيمة في تذوق الجمال الحسي والادبي ، وفي ممارسة الجمال تأملا وسعيا وجهاداً ، رافعا بيده مشعل الحب العنيد للوطن ، وللرجاء ، وللتقدم ، وللشهامة ، وللبطولة ، ولارضاء غريزة الحرية .

رسالة الاديب تعلمنا ان لكل قطر من الاقطار العربية حضارة غابرة حلت محلها الحضارة العربية ناسخة عنها وعن غيرها لتسبكها في قالبها

وتدمغها بطابعها الخاص . رسالة الاديب تعلمنا ان الغرب الحاذق عرف كيف يقتبس عن حضارتنا يوم كانت حضارته وثقافته وشيكة . ولكن ما اغزر ما استفاد وما اخصب ما انتج ، وما ابدع ما ابتكر !
وان الحضارة العربية كانت الصلة المتينة بين الغرب الجديد وحضارة اللاتين والاغارقة . وها هوذا الغرب يرد الينا دينه كشعاع من الشكر بما ينشره بيننا من ثقافة ، فعلينا ان نأخذ عنه بمثل المهارة التي اخذ بها عنا !

رسالة الاديب تعلمنا ان الحضارة الميكانيكية ادوات نستعبدها ونستخدمها لا ادوات تستخدمنا وتستعبدنا . وانه لا يكفي ان يضغط امرؤ على الزر الكهربائي فينال سحري النتائج ، وان يمتطي سيارة او طيارة فيطوي شاسع الابعاد ، وان يرقص رقصة ويصغي الى اذاعة ويتعمل التأنق والحذلقة متكلماً بخليط من لغتين او ثلاث ـ لا يكفي كل ذلك ليكون شخصية ممتازة ترهب هيبتها الاكوان .

رسالة الاديب تعلمنا ان الحضارة الآلية التي الفناها ولم يكن يحلم بها اجدادنا ، تجعلنا اليوم اشد احتياجاً منا في الماضي الى ثقافة ادبية تدعم الحضارة الآلية وتكون لها ركناً ركيناً . وان هذه الحضارة الآلية المنتقلة بسرعة من بلد الى بلد ومن جيل الى جيل ، ننعم بها ـ ونشقى ! ـ دون ان يكون لنا يد فيها . اما الثقافة الادبية فيجب ان يحصلها كل فرد يوماً فيوماً ، وساعة فساعة مدى الحياة .

رسالة الاديب تعلمنا ان للعالم العربي على تعدد اقطاره وحدة واحدة تشغل مكاناً فسيحاً في القارتين الاسيوية والافريقية . ويستطيع ان يقول هذا القول علماء الجغرافيا وعلماء التاريخ وغيرهم . ولكن للاديب فناً مغرياً ينيلنا الثقافة والفائدة ، بينا نحن نرتع في بحبوحة من اللذة والمتعة ، في جو ممغنط اخاذ هو في الواقع جو الحياة .

رسالة الاديب تعلمنا ان نفاخر بلغتنا العربية الممتازة على سائر اللغات

بانها وُلدت قبل لغات قديمة اندثرت منذ قرون ، وما زالت العربية تفيض حياة ، مجارية حتى احدث اللغات بالقوة والمرونة والجزالة والرشاقة. كل امة تسعى الان الى نشر لغتها بين الامم الاخرى ، باذلة في سبيل ذلك المال والاغراء والدعاية والجهود . اما نحن فانتشار لغتنا شيء واقع وميزتها هذه تربط بين الاقوام العربية برباط قوي جاعلة الفرد الواحد منا ملايين.

رسالة الاديب تعلمنا كيف نخلق حضارة ادبية ، اذ بها لا بغيرها ، تقاس مواهبنا ، ويسبر غور طبيعتنا ، وهي التي تثبت وجودنا ، وتنطق بلساننا مترجمة عن مبلغ الانسانية فينا .

رسالة الاديب تعلمنا حب العزلة والسكوت ، وترجعنا عن الفخفخة وهوس الظهور ، فنعتكف على انفسنا نعالج ممكناتها بالظفر بمحمود النتائج . فالسنبلة المتمايلة على صفحة المروج ، حاملة بشائر الحياة ، لا تولد حبتها ولا تنضج الا في احشاء الارض ، في جو الوحدة والهدوء والكتمان .

رسالة الاديب تعلمنا ان لا نخشى كارثة ، ولا نتهيب مغامرة . كل زمن خطير في التاريخ كان زمن اضطراب وكوارث ، واعظم فوائد الانسانية نجمت عن عصور العذاب والخطر. الخطر مرهف ، ولا يُعرف شأن ذي الشأن الا يوم الكريهة . والعاصفة لا تقتلع الا ضعيف الاغراس . اما الاشجار ذات الحيوية العصية ، فالاعاصير تلح عليها وتهزها هزاً عنيفاً فلا تزيدها الا قوة ومناعة .

رسالة الاديب تردنا عن عديد الشخصيات القومية التي تجذبنا من كل صوب لتركزنا في شخصيتنا القومية الابية .

رسالة الاديب تعلمنا كيف نفهم كل شيء ونستفيد من كل شيء ، باحثين عن الصواب والكمال خلال كل نقص وكل زلل ، نازعين الى الجمال الحسي والادبي حيال كل دمامة خَلقية وخُلقية ، مساجلين النفوس والعناصر ، مناجين المنظور وغير المنظور ، لنجعل من حياة متناثرة متداعية ، حياة

متناسقة متماسكة .

اي شيء لا تعلمنا رسالة الاديب ؟

انها قوة تستفز قوتنا ، وموهبة تحفز مواهبنا ، وصرامة تردنا عن الحقارة ، وبسالة تدفعنا الى البسالة ، وعذوبة توآسي احزاننا ، واغرودة تطرب اشجاننا ، وهي عالم مستقل متماسك يسوقنا الى تكوين عالمنا المتآلف المستقل !

نحتاج الى الاديب يأخذ منا ويعطينا ، فيرسل صوته اريباً رصيناً مسيطراً اخاذاً حضاناً !

ونحتاج الى رسالة الاديب قويمة غنية عنيدة ملهمة لتوقف قوميتنا في مكانها المشروع في معرض القوميات بميدان العمران العظيم !

الإنسان كائن روحي

الهلال : ج (٤٧) أغسطس ١٩٣٩ ص ٩٨٣ – ٩٨٧ .

الكون كله في ألوف الألوان من الصور والأشكال ملئ من الروح المتجلي في كائنات وأحداث مرئية وغير مرئية محسوسة وغير محسوسة في مختلف مراتب الوجود .

ـــ هل من عجب أن نقول :

« ان الانسان كائن روحى »

مم يتكون جسد الانسان ؟ . لقد حللوه ، فوجدوا فيه تآلف التراب والماء مع عناصر كيمياوية أخرى ، فقام أحد العلماء يركب هذه العناصر بالمقادير الموجودة في الجسد فصورمنها انساناً ذا أجهزة عظمية وعضلية وعصبية مكتمل الأجهزة الداخلية في الدماغ وفي الصدر وفي الاحشاء . ثم قال لهذا الجسد : « كن انساناً . فكر تحرك . تكلم . إسمع » ! . فلم يكن الجسد إلا تمثالا . كان صورة متقنة من صنع المخلوق ، ولكن على افتقار إلى ما لا يجود به الا الخالق العظيم .

وراءنا نحن أهل الشرق وراثة ، ولا كالوراثات ، كل أمة من الأمم يجدّ نجدها ، وتأتى بخيرها ، ملقية بغنائمها الفكرية والعلمية في حضارة العمران . في كل ناحية من أنحاء الخليقة ، وفي كل شأن من الشؤون ، أبحاث

ودراسات واستنتاجات هتكت أستار الماضى الى ما سبق التاريخ . وعالجت ممكنات الحاضر فيما يرى وما لا يرى . وهيأت للمستقبل كشف المخبآت وإعلان الممكنات . لم تفلت من مجهر العلم ذرة من ذرات التراب ، ولا قطرة من قطرات الماء ، ولا شعاع من الأشعة الغائرة في سحيق الأفلاك ، ولا خلية من خلايا الكيان . للعلوم العقلية والرياضية والطبيعية والميكانيكية والكهربائية والجراحية والنفسية والاجتماعية انتصارات لا تعد ولا تحصى . وما اهتدت أمة الى سر علمي أو صناعى إلا انبرت الأمم الأخرى تبحث طبيعته وتكتنه أغواره ، وتستزيد من ممكناته . جوق مهيب من الأمم يشترك في الكشف عن أسرار الطبيعة ، وتذليل العناصرلخدمة الانسان ، ولنا نحن معشر الشرقيين في بعض هذه الجهود ذكر مشكور ، على ان أنبياءنا اتصلوا بمصدر الكيان والابداع ، فجاءوا بمعجزة المعجزات يوم أعلنوا وحدة الالوهية ووحدة الروح .

ان المبادىء العلمية ما فتئت يهدم بعضها البعض الآخر جيلا بعد جيل . أما حقيقة الله ، وحقيقة الروح على كثرة اللاأدريين والمعطلين ، فلم يأت أحد بما ينقضها ، ويحل محلها ماهو خير منها .

ولكم قيل لنا اننا أهل الشرق رقدنا على أكاليل الغار ، فانحططنا من ذروة المجد الأسنى الى حضيض الخنوع والاستسلام ، وجرينا وراء الخزعبلات والأوهام ، ضاربين صفحاً عن قيم الحيــاة الجلى في السعى والبسالة والاقدام . ونحن في الواقع نستحق من تلك التهم شيئاً غير يسير ، وإن كنا لا نحمل مسؤولية ما صرنا اليه إذ كنا في طور الجمود ، غير اننا مسئولون عما نحن فيه الآن . وأعلن هنا غير آسفة ان مجموعنا ، مع الاستثناء الجميل ، فقد كثيراً من قوة الروح ، وأنه الى الاتصال بالروح أحوج ما يكون .

نعلم أننا مكونون من روح وجسد ويؤكد الذين ينعتون نفوسهم بالعمليين أن للجسد شؤونه الزمنية التي يتحتم علينا الاعتناء بها ، وان للروح شؤونها

الخيالية التي يجدر بنا الاقلاع عنها . . الحياة الروحية ـ على قولهم ـ تصلح لبحث نفر من أهل الوهم أو أهل المثل العليا . شعراء كانوا أم فلاسفة ، علماء لاهوت أم صوفيين . أولئك الذين لا يحبون الحياة المحسوسة التي يحياها الجميع . أما الانسان العادي ، فليس في نظرهم أن يعنى بتلك الحياة الروحية إلا متى انتظمت له الضروريات المحسوسة في المعيشة والاقتصاد والاجتماع . وهنا هنا منشأ الخطأ .

الانسان يتغذى ويتحرك ويفكر ويحس ويسعى . حياة المجتمع من الغريزة والشعور وحياة الدولة من العقل والمنطق . فعلام توجد الروح اذا كانت وظيفتها لاغية !

ان زمنياتنا وروحياتنا شيء واحد . ولكن عندما نحسب الزمنيات مستقلة عن الروحيات يكون حسباننا ضعفاً وخيبة وضلالا . وعندما ندرك أن زمنياتنا ترتبط بروحياتنا ارتباطاً وثيقاً فنحن عندئذ أهل القوة ، وكل القوة فينا . . . وماهي الروح ؟

سؤال خطير . . وأشد خطورة منه الجواب عليه . عنى وعنكم تعريفات الفلسفة والعلم الافتراضي والطب مع احترامي للدكتور مالك إذ لا شيء يضعضع الموضوعات اكثر من تعريفها أحياناً .

من كل العلوم والفلسفات حسبنا ايماننا القديم بالله . ومن آمن بالله أدرك أنه يحوي في كيانه نطفة من الروح الازلية السرمدية التي لا يعتورها تشويه ولا يداهمها فناء .

نجيل الطرف والفكر في العالم المحيط بنا عن قرب وعن بعد ، فنجد الروح في كل مكان وفي كل كائن ليس من شيء يخلو من الروح ، وان تفاوتت كمية الروح في الكائنات .

الروح في أمتداد المسافة ، في رحبات الافلاك . في العوالم والشموس المنثورة في الفضاء . في النظام الشامل الذي يسير كل كوكب وكل سديم ضمن منطقة فلكية لا يتعداها . الروح في حركة الارض . في شروق الشمس وغروبها في ألوان الاسحار وألوان الآصال . في الجبل الصامت . في الصخر الاصم . في الشجرة المزهرة . في أغرودة الشحرور. في تدفق النهر. في ترامي البحار. في تقلب الفصول . في تسلسل التاريخ . في دورة الدهور. الكون كله في ألوف الألوف من الصور والأشكال مليْ من الروح المتجلي في كائنات وأحداث مرئية وغير مرئية ، محسوسة وغير محسوسة ، في مختلف مراتب الوجود الملموس والمعقول والروحي .

الوطن قوة روحية . ولو لم يكن كذلك ما كونت البقاع الرحيبة وطناً ، ولا اتفقت قلوب الملايين على حب واحد وغرض واحد .

الدولة قوة روحية . لان مجموع وظائفها المتعددة تتلخص في صيانة الحرية والكرامة وتمكين أهل البلاد من التدرج شيئاً فشيئاً في معارج الارتقاء . ولا يصدر الارتقاء إلا عن الاتصال بالروح .

الأسرة قوة روحية . وعندما تنقلب الأسرة زمنية ينتابها التفكك ، وتتناهبها الأطماع والأهواء ويخيم عليها الشقاء .

المدرسة قوة روحية . وما التهذيب والتثقيف والعلوم والمعارف إلا مفتاح تضعه المدرسة في يد الطالب ليفتح به الباب المؤدى الى مصادره الروحية .

وما هو الدين إن لم يكن قوة روحية . وما غاية الانسان من الصلاة سوى الارتفاع الى مصادره العليا ليكون عندها أقرب الى الاتصال بالله ؟

بيد ان الروح ابدع ما تتجلى في الفرد الواحد ، والروح في جوهرها حرة طاهرة قوية كاملة . السماء عندها صافية . ولكن الدخان واللهاث المتصاعد من حياة زمنية تتجاهل وجود الروح ، تولد بيننا وبينها كثيف

الغيوم ، وتحجب عنا شمسها المنيرة .

فهل من تبدد لتلك الغيوم؟ وما هو الحائل دون الاتصال بالروح فينا ؟ أستميحكم الجواب على هذا السؤال بتشبيه إن لم يكن وافياً من جميع الوجوه ، فهو على كل يقرب الموضوع الينا قدر المستطاع .

هاكم آلة راديو، ونحن نستمع الى إذاعة شائقة . ولكن أصواتاً دخيلة طارئة وطفيليات تحدث جلبة وتشويشاً وصخباً يطغى على الاذاعة الجوهرية .

عندئذ ندرك ان خللا طرأ على بعض الادوات أو الاسلاك في الآلة . فيهتدى العامل الماهر الى موضع ذلك الخلل فيصلحه ، فاذا بالاذاعة تنتشر صافية رائقة في انسجام وجلال . ماذا حدث لتتم الأعجوبة ؟ حدث ان سلك الاتصال بالمصدر كان معطلا أو ملتوياً ، فأصبح الآن مباشراً محكماً . كانت أدوات الراديو تشتغل كل منهْ لحسابها وعلى هواها حتى بات الراديو خليقاً بالاسم الذي اختير له حديثاً : « الطمطمان » أو « الطرطران » . فأصبحت الادوات بعد إحكام السلك خاضعة للنظام القاضي بتعاونها جميعاً على إرسال الاذاعة في أسلوب خاص واتساق خاص .

قد يدهشكم أن أذكر الروح الى جانب مركز الاذاعة ، في حين نعلم جميعاً ان الراديو محض أداة ميكانيكية ، غير ان الراديو لمتخلقه العلوم الميكانيكية وحدها . بل الروح هو الذي خلقه وسخر له العناصر والميكانيكا . ليس من مكتشف أو مخترع إلا وقد اتصل في عزلته بالقوة الروحية في كيانه ، ليس من عمل عظيم ، ليس من بطولة ، ليس من عبقرية ، ليس من مغامرة تروع العالم ، ليس من إقدام باهر أسفر عن النجاح إلا وقد نجم عن اتصال الفرد بمصدر الوحي والقوة في كيانه .

أجل في المجتمعات مغالطات كثيرة . وفي العوالم فوادح جسيمة ، تفرض نفسها أحياناً حتى على الذين لا يشتركون في تنفيذها . . أجل ، الضلال فاش مع المراوغة الثعلبية والجشع والانانية وحب اللهو والعربدة

والتمويه . أجل ، القوة المادية العنيفة تلقي الذعر في العالم ، والازمات المالية والاقتصادية ، ترهق الجماعات والافراد . والعباد من جراء التناقض بين القلب والعقل لفي حيرة ووجل واضطراب . ففى مثل هذه الحال خصوصاً على كل منا أن يرجع الى مصدر القوة فيه فيصلح الاسلاك المعطلة ليتصل بروحه اتصالا مباشراً . ولو عنى كل منا باحكام ذلك الاتصال لكانت الانسانية على غير ما هى فيه اليوم .

فيا أهل الشرق الناهض رجالا ونساء شيوخاً وشباناً ـ انكم لا تستطيعون تعديل نظام الكون ، غير انكم تستطيعون أن تكونوا أقوياء أحراراً ضمن ذلك النظام . ان من الحوادث والوقائع ما لا نملك تبديله دفعة واحدة . ومع ذلك فكل منا يشعر بقدرة صحيحة في داخله تمكنه من تكييف بعض الظروف وجذبها الى ناحيته لا بالرياء والنفاق والمذلة ، بل باباء واستقامة وبسالة ليتم في الحياة رسالته . ومما يستوقف الانتباه ان الصعوبات التي تصدمنا ، والمحن التي تحل بنا ، والآلام التي ترعى في نفوسنا ، والاوجاع التي تجتاح أيامنا وليالينا ـ كل ذلك مما يدفع بنا الى ولوج داخل الكيان لنتصل بالروح مصدر القوة والمناعة فينا .

فتيان « العروة الوثقى » ، فتيان سائر الجمعيات والمؤسسات ، فتيان هذا المعهد العظيم ، فتيان الشرق العربي من اقصاه الى أقصاه . ألا تشعرون بالشمس تشرق في داخلكم ، بالنور يشيع في قلوبكم ، بالحمية تهزكم وتطربكم ، إذ أنا أوصل اليكم دعوة الروح وأناديكم الى الاتصال بقوة الروح فيكم ؟ ليست الشخصية الكبيرة هي التي تستسلم لعوامل الضعف والكسل والتراخى . بل كل مقاومة وكل غم ، وكل حرمان يوقظ تلك الشخصية ، ويردها الى داخل نفسها تتصل بمصدر الروح فيها .

أنتم أبناء اليوم ، تعدون وراثة الغد ووسط المستقبل ، فاذا ابتغيتم تبديل ما يسخطكم من عوامل الوراثة والوسط ، فليصلح كل منكم نفسه

بالاتصال بمصدره الروحي . من ذا الذي يفهم مجموعاً بدون أفـراد ؟ ان كل معالجة للضعف تتناول الفرد أولا وآخراً .

فاذا أنتم أردتم حياة مجدية ومدرسة مفيدة ، وأسرة عامرة ، وحكومة نزيهة ووطناً عظيماً ، فاجعلوا الفرد منكم بالروح وبقوة الروح غنياً قوياً نزيهاً نبيلاً رشيداً عظيماً .

كل ممكنات الدولة والأمة والمجتمع والوطن تقوم في روح الفرد ، وخير مصلح للفرد هو الفرد نفسه . الفرد كتلة مغناطيسية تجذب وتلهم وتؤثر وتجتاح . ثقافة فرد واحد تثقف أفراداً عديدين . نور صغير واحـد يضيء بقعة واسعة . قوة فرد واحد تبعث القوة في الف فرد ، بطولة فرد واحد تخلق الف بطل . هذا وداعي اليكم . وكل عام وأنتم على اتصال بأرواحكم ، مصدر القوة والبسالة والعظمة فيكم .

مى

حاجتنا إلى ثقافة اجتماعية

الهلال : ج (٤٨) يناير ١٩٤٠ من ص ٢٦٩ إلى ص : ٢٧٥ .

افتتح قسم الخدمة العامة بالجامعة الاميركية بالقاهرة موسم محاضراته الحالي بطائفة من الموضوعات الاجتماعية القيمة . كان في مقدمتها هذه المحاضرة النفيسة التي ألقتها أديبة الشرق النابغة الآنسة ميّ . وقد ترأس الحفلة الأديب الكبير الدكتور أمير بقطر . فقدم الآنسة بكلمات بليغة لجمهور عظيم من السيدات الفضليات ورجال العلم والأدب . وقد تفضلت فاختصت بنشرها « الهلال » . ونحن ننشرها شاكرين مهنئين بها جميع المعجبين .

المغزى الادبي يتلخص عادة في الجزء الاخير من الكلام وعند فصل الخطاب . أما في هذا الموقف فقد كان الديباجة المشرقة . أى شيء أدل على الثقافة الاجتماعية المكتملة من تعضيد الغريم للغريم في سبيل المصلحة العامة ؟ هذا هو الدرس الادبي الذي ألقاه علينا عدوي الحميم وغريمي القديم الدكتور أمير بقطر .

بالأمس ـ قبل خمسة أو ستة أعوام ـ خاصمني خصومات طنانة رنانة في سبيل المصلحة العامة ، وها هو ذا اليوم ، في سبيل المصلحة العامة ، يشرفني بترأس هذا الاجتماع ويستقبلني بهذه الكلمات الطيبة . إني أمحضه الشكر خالصاً . وهذا الترحيب عندى آثر ما يكون من هذا الاديب الذي جمع أدبه بين جمال المثل الاعلى وحيوية الواقع المحسوس ، من هذا العالم العالمى

بأسلوب التفكير ، بسعة المدارك ، بغزارة المعارف ، برحابة الاحاطة ، المصرى الوطني بالغيرة والهمة ، ببراعة الاجمال ، بتعيين الاهداف ، باحكام التحقيق ، من هذا القائد الذي يسير بفيالق الناشئة المصرية الى أفق يتلاقى عنده جلال الماضى ومجد المستقبل .

أيها السادة والسيدات

صيحة الاصلاح الاجتماعي في مصر سارت والصيحة السياسية جنباً الى جنب . وكان في مصر أبراج ثقافية تقوم وسط الزعازع وتظل في نفس الوقت بعيدة عنها . وفي مقدمة تلك الابراج هذه القاعة التذكارية .

من على هذا المنبر المضياف ، بين هذه الجدران الصامتة ، انطلقت وما زالت تنطلق أصوات نفر من خيرة أبناء البلاد وبناتها متحدثة في جد ورصانة وحمية عما بقي على مصر ، بعدنجاحها السياسي ، أن تحققه في مختلف نواحي الحياة القومية . وأظن ان في هذه القاعة وبمساعي قسم الخدمة العامة تكونت أول جماعة مصرية غرضها إصلاح القرية وتحسين شؤون الفلاح ، ومن هنا مضى أول فوج من فتيان مصر ينشرون دعايتهم بالقول ويحققونها بالعمل لانصاف أولئك المحسنين الصامتين ، الفلاحين ، الذين بعرقهم وبدمهم يغذون الحياة المصرية .

فهل من عجب ، والحالة هذه ، ان ألقي السلام على هذه القاعة الغنية بالتيارات الفكرية والدوافع الحيوية بعد الغياب عنها أربعة أعوام ؟ ولا أشك في أنكم تشاركونني في توجيه الشكر والتهنئة الى عميد قسم الخدمة العامة الدكتور ويندل كليلاند : الشكر لما أسدى وما فتيء يسدي من خدمات سواء بالتدريس والكتابة والاشراف على قسم الخدمة العامة ومعاونة وزارة الشؤون الاجتماعية بعلمه وخبرته وسديد رأيه . والتهنئة لأن جهوده صادفت نجاحاً وكانت ذات أثر محسوس في تكوين هذه الحمى المتفشية لطلب الاصلاح والسعي إلى تحقيقه . إن ارتفاع درجة الحرارة في مثل هذا الباب لهو الصحة

بعينهـا . إني أتـهـم الـدكتـوركليلاند بالقاء القنابـل الممغنـطـة ووضـع الألغام الديناميتية في المجتمع المصري ! بيد أن هذا الصنف من الألغام والقنابل يوافق عليه قانون الجنايات وقانون الأحكام العسكرية ، وترحب به وتنشطه الحليفة العظيمة وكل أمة أحبت مصر في ماضيها فتمنت لها مستقبلا حقيقا بذلك الماضي المجيد .

ولما كان التبادل أساس الحياة تحتم أن يكون لصاحب الفضل من هو ذو فضل عليه . وهنا نذكر السيدة المثقفة اللطيفة مسز كليلاند التي تمكن قرينها الفاضل من التفرغ لأعماله المفيدة . ونذكرها بالحمد لأنها شأنها شأن بنات مصر متطوعة لخدمة الجمهور والقيام بأعمال التمريض والاسعاف العام . وهى إلى ذلك سيدة بيت مثلى تحسن إدارة المنزل وتنشئة الأطفال وتتقن طهي صنوف الطعام بما فيها صينية البطاطس بالفرن ، هذه الصينية التي دخلت في التاريخ . شؤون يراها البعض حقيرة تافهة ، غير أن المرأة المصرية الناهضة التي جمعت بين الثقافة الفكرية والروح الاجتماعية تتقن معالجتها وتدرك أهميتها لأنها الشرط الأساسي لصحة المجتمع وراحته وهنائه .

أما وزارة الشؤون الاجتماعية فلئن تراكمت عليها التبعات والمطالب والاقتراحات وهي بعد وليدة فذلك دليل على أن وجودها كان ضرورياً . وهي بعد وزارة « سمباتيك » ونحب أن تكون صلة بين المجتمع والحكومة . ولئن كانت أفقر الوزارات فلنذكرن ان الثروة لا تقوم بالمال فقط بل بالمال وبالرجال وبالهمم ، بحسن تشخيص العلل الاجتماعية وبحسن التدبير في تقديم الأهم على المهم ، والمهم على الأضافي في تطبيق الدواء .

أيها السادة والسيدات

في البلاد كثير من المدارس والمعاهد العلمية ، فماذا تكون هذه الثقافة الاجتماعية التي نحتاج اليها ؟

ان الثقافة المدرسية والجامعية بمختلف فروعها ودرجاتها ، مهمتها إعداد الأفراد لمزاولة حرفة أو مهنة أو عمل ، وهي مهمة لا مندوحة عنها في تكوين الشخصيات الفردية . ومن ثم صنوف ثقافية شتى حكومية وقانونية وطبية وزراعية وتجارية وصناعية وميكانيكية وعسكرية وأدبية وفنية إلى آخر ما هنالك . والمفروض أن كلا من هذه الثقافات تتناول أهم الموضوعات والأساليب المطلوبة في نوع العمل . وقد يكون بعد هذه ، أو إلى جانبها ، ثقافة شخصية محصنة : كأن يكون المرء طبيباً ويقرض الشعر ، ويحسن العزف على آلة موسيقية وهو تاجر ، ويعالج الأدب أو النحت أو الرسم وهو موظف ، ملبياً بذلك داعي الذوق والميل والتطلع ، متلمساً التسلية والترفيه عن النفس وتقضية أوقات الفراغ في نشاط ذكي نبيل . فأين الثقافة الاجتماعية من كل أولئك ؟ أجل ، إن كل نوع من العمل لهو عامل من عوامل النشاط العام والتنظيم العام . ولكن الرابطة التي تربط بين صنوف الثقافة وصنوف النشاط ، وتنظم اتجاه الرغبات وتنعم جوانب الشخصيات ، ما هي تلك الرابطة وكيف تتكون ؟

من المهد إلى اللحد يحيط بنا المجتمع من كل جانب ، يحيط بنا بحسناته وسيئاته ، بقوانينه وعاداته ، بعدله وظلمه ، برأفته وقسوته ، بظلماته وأنواره ، بممكناته وحرماناته . لقد اختلط تصرف الكثيرين من الناس في سبيل الثروة والجاه والسلطان . وكم من بطشٍ فظيع ، كم من حيلة ثعلبية ، كم من إهمال أثيم ، كم من ظلم فاحش حتى في مظاهر اللياقات الأنيقة أحياناً ! وحجتهم هو قانون تنازع البقاء وأن الحق للقوة . ولو صح ذلك فماذا يكون الفارق بين الجماد والانسان ، بين طائفة من الجلاميد المتحاذية في بقعة واحدة من الارض وبين جماعات من الناس يعيشون في بقعة واحدة من الأرض ؟ لا ضمير للجماد ، لا ضمير للنبات ، لا ضمير للحيوان ــ وإن نحن وجدنا عند بعض طوائف الحيوان ، كالنحل والنمل مثلاً ، إلى جانب

روح التنافس وتنازع البقاء روح التضامن والتعاون ،، ونظام توزيع العمل. بيد أن كل أولئك ، ومثلهم الطفل والمعتوه والهمجي ، رازحون تحت وطأة قانون التنازع وهم لضغط غرائزهم صاغرون. ولو نحن اكتفينا بما هم فيه كنا منكرين جهود الانسان للتحرر من عبودية الغريزة ، وما كنا أهلا لتلك الكلمات المقدسة المرادفة لاسم الحياة ولا معنى للحياة بدونها كلمات الحق والواجب والحرية ! والواقع أن الحرية ليس لها من قيمة أدبية في نفسها ، وكل قيمتها في أنها تمكننا من التمييز بين الحق والواجب وتمكننا من التصرف الكريم في سبيل الظفر بالحق والقيام بالواجب. كل قيمة الحرية في أنها تمكننا من التقدم في سبيل الكمال الممكن. وليس في سبل الكمال من محطة نهائية ثابتة ، بل كلما تقدمنا طلبنا المزيد من التقدم. وكلما نشط العلم ونشط الاختراع ونشط الارتقاء تولدت معها في المجتمع عيوب ملازمة لطبيعتها ، فيعمد المجتمع المستنير الى الاصلاح. وكل ما تفاخر به الحضارة الحقة ، كل ما يشرّف الانسانية المدركة ، هو التغلب على فظاعة القوانين الطبيعية بقوانين منبعثة من الروح الانسانية الذي بدونه لا يكون الفرد إنساناً ولو هو استحوذ على كنوز العالم وتفوق في جميع المعارف والفنون والكفايات !

أيها السادة والسيدات

الكون كله بشاسع مسافاته وتعدد موجوداته ، إنما يحيا بالحركة. الحركة هي الحياة. والحركة على ثلاثة أنواع : ففى عالم الجماد ليست الحركة إلا تكراراً للمظهر ، وفي عالم الكائنات الحية تكون نشوءاً ، حتى اذا ما بلغت مرتبة خاصة من التطور البيولوجي في الانسان كانت الحركة ما نسميه ضميراً أو وجداناً.

الضمير ، الوجدان في الفرد يجعله إنساناً. الضمير ، الوجدان في الجماعة يجعلها هيئة اجتماعية. الضمير ، الوجدان المشترك بين أهل البلاد الواحدة يجعل تلك البلاد وطناً. والثقافة الاجتماعية انما نواتها في هذا الادراك.

استعملت كلمة « إدراك » ، بيد أن الضمير الاجتماعي ليس محض إدراك ، ولا يكفي أن تفرضه قواعد العلم وقياسات المنطق. بل إلى جانب هذه ، هو منطلق من القلب الحي ، من الرغبة الصادقة ، من العاطفة المتوهجة. الضمير ، الوجدان الاجتماعي يشعرك بأنك لست وحدك وأنت في عزلتك ، بأنك جزء حي من وحدة حية قلبها الرحيب ينبض في قلبك الصغير ، مرضها مرضك وسلامتها سلامتك. همها وذلها وضلالها همك وذلك وضلالك ، عزها ومجدها وعظمتها عزك وعظمتك ومجدك. المجتمع جسم واحد ، والألم ولو في ظفر القدم يكفي لاتعاب الرأس وتضعضع وظائف الدماغ واضطراب وظائف سائر الاعضاء بالتبع. الوباء ينتشر أولا في أحقر الاحياء وأقلها نظافة. فلا يلبث حتى يكتسح القصور. ولو وجد في المجتمع جائع واحد لا يدري كيف يجد قوت يومه ، فكيف يهنأ الغني بطعامه الفاخر ، وكيف يتقلب السري على فراشه الوثير؟ نحن نعلم أن الغني السري لا يخلو من الألم إذ لا بد لكل من أن يحمل عبئاً من أعباء الحياة. وكلما تقدم الانسان بثقافته وادراكه تقدمت معه على نوع ما صنوف آلامه. ولكن شتان بين الحرمان من الضروريات الحيوية الأولية والحرمان من وسائل الرخاء الكمالي! وتقديم المساعدة للمحتاج عملية سحرية تحولِ عندنا معنى الألم وتجعله نوعاً من الرضى والطمأنينة. والثقافة الاجتماعية تعلمنا كل هذا وتحملنا على تفهم هذه الكلمة البديعة من العالم الطبيعي هكسلي القائل « تنازع البقاء هو قانون التطور للحيوان ، أما الانسان فتطوره يتم بالتعاون والتعاضد والتضحية عند الحاجة ».

وصل بنا سياق الحديث الى نقطة غاية في الاهمية ، وهي أن الضمير الاجتماعي لا ينفصل عن الضمير الاخلاقي وأن الثقافة الاجتماعية والثقافة الاخلاقية متممة كل منهما للأخرى لتصبح روحاً ذات حيوية دينامتية توحد الافكار والمشاعر والاهداف والمساعي. الافراد تحيا وتقضي الاجيال تظهر

وتختفي ، أما المجتمع فباق ، والفرد بحياة المجتمع خالد . والفرد الذي يسعى بنية حسنة ويحكم العمل حيث يجب أن يكون وكما يجب أن يكون ، ويساعد إخوانه في حيز مقدوره فذاك الفرد يكبر في عين نفسه ويجد في داخل وجدانه حرية أعظم ، وثروة أوسع ، ويرى العالم أمامه أرحب ويحس كرامة السيادة وعندئذ يفهم لماذا قيل « سيد القوم خادمهم »

ولقد قيل كذلك « العمل خير من العلم » ، ولكن ليكون عملنا محكماً لا بد لنا من العلم . ان جميع العلوم والفنون والآداب وجدت قبل السسيولوجيا أى علم الاجتماع الذي لا يناهز القرنين ، ولكن هذا العلم الذي هو أحدث العلوم ما كاد يظهر حتى استوعب في رحابه جميع فروع المعرفة الانسانية والنشاط الانساني ، لأن كل علم وكل نشاط صادر عن المجتمع . ولولا المجتمع والأفراد التي تكونه ما كان علم ولا كان نشاط . كذلك الثقافة الاجتماعية تجمع بين عديد المعارف والفنون لتلخصها روحاً اجتماعياً وضميراً اجتماعياً وفائدة اجتماعية . الثقافة الأجتماعية هي علم وعمل ، إحساس وتطبيق ، رجاء وتحقيق .

نحن نعلم ان المشكلة الاجتماعية تتطلب حلولا كثيرة ، ولكننا نعلم كذلك ان التحسين مهما كان زهيداً فهو يمهد السبيل لتحسين أعظم .

وما هى الوسائل لنشر الثقافة الاجتماعية والروح الاجتماعي ! هي الوسائل التي نعرفها جميعاً : العائلة ، المدرسة ، الكتاب ، الأدب الحي المهذب الراقي ، الفن، الموسيقى ، المعارض ، المتاحف ، المسرح ، الصالون ، الأعياد القومية ، الرحلات المدرسية ، الصحافة ، الراديو ، السينما . ما أعظم تقدم السينما في ايامنا وما أبعد تاثيرها ! انها تأخذ شيئاً فشيئاً بالموضوعات الجادة المجدية متجردة بطبيعة تقدمها من السخافات التافهة . وكم كانت الوزارة موفقة في تنظيم الاذاعات المدرسية ! قد تفوتني اذاعات المحطة مرات ، ولكن لا تفوتني اذاعة مدرسيّة واحدة لأني أجدها

مليئة حياة .

تنشيط الثقافة الاجتماعية وتعميم الروح الاجتماعي أصبح الآن فرضا على كل ذي نفوذ في أية ناحية من نواحي المجتمع فيساعد كل بما عنده . فرضاً على الاغنياء ، فرضاً على الاقوياء ، على المدرسين . على المثقفين ، على المشرعين ، على رجال الدين . على رجال الحكومة . على كل من يتلفظ بكلمة الوطنية . وما الوطنية في الحياة اليومية إلا عمل منظم . عنيد . متتابع ، فعال ، صامت ، أما الوطنية كصيحة حرب . كراية جهاد . كعاطفة مكتسحة ، فلها ساعات معينة ، وعند ما تطغى الكريهة فعندئذ يدعو داعي التضحية والاستبسال .

نشر الثقافة الاجتماعية وتكوين الضمير الاجتماعي فرض على تلك الضعيفة القوية . المرأة ، التي في ألمها وعذابها هى منشئة الطفل . ومهذبة الرجل ، وموجدة الروح في المنزل وفي المجتمع على السواء ، هي التي تنمي الفضائل الاجتماعية من لطف ومجاملة ولباقة وصبر ورعاية ولين وتسامح ورفق وحنان . هى خالقة الفروسية في الرجال ، لاتخافوا أيها السادة الرجال من ثقافة المرأة وحريتها ! هى مثلكم حسنة النية ، طموح الى المثل الأعلى . تسير في سبل الحياة باحثة ، ضالة ، مهتدية . باحثة من جديد لتبلغ الهدف النبيل . ان ارتباكات الحياة لتحير أكبرالعقول ! منذ سنوات قلائل نالت المرأة شيئاً من الحرية والثقافة ، فانظروا كيف ازدهرت مواهبها وتجلت شخصيتها في هذا الزمن القصير ! اتركوها تتعرف وجودها . وتستغل لخيرها وخيركم ممكناتها ! وثقوا انها لن تخيب آمالكم فيها ! ان أختكم في القومية والانسانية لاتخون رجالها !

نشر الثقافة الاجتماعية وتكوين الضمير الاجتماعي فرض على الشبان وهم في البلاد دم وحماسة وحيوية ، وذكاء ونشاط وعبقرية . هم الذين يبحثون عن علل الحاضر ليعالجوها ، وهم الذين يطلبون طرائف الماضي

ليحتفظوا بها ويستنطقوها ، وهم الذين يزحفون الى غزو رحبات المستقبل بعزم الشباب وأريحيته واخلاصه.

وذلك فرض على أولي الشأن الذين يديرون دفة الحكم . إن في إهمال الألوف بلا تعليم وبلا عمل لتبذير باهظ في القوى ، وغض من حيوية المجتمع . ومظاهر النشاط والتقدم في نواحي الحياة المصرية تحملنا على التفكير كم ذا تكـون النتائج باهرة لو تعلم جميع الجهال واشتغل جميع المتعطلين . إن المجتمع لا يحتفظ بقوة كيانه ميسراً لنفسه وسائل التقدم إلا بضمانة الاحتياجات الحيوية الملحة لجميع الأفراد ، بالانصاف في توزيع الحقوق والواجبات ، بتمكين كل فرد من اكتساب حقه بتأدية واجبه . وكما أن حضارة أهل المنزل لا تقاس بالواجهة المزخرفة وبجمال التنسيق في غرفة الاستقبال ، فكذلك حضارة البلاد لا تقاس بفخامة بعض الأحياء في العاصمة وفي بعض المدن ، بل تقاس خصوصاً بالحالة العامة في الاقاليم والأرياف حتى أصغر قرية وأضأل زاوية .

حسن أن تشيدوا القرى النموذجية ، وتصلحوا الأراضي البور ، وتبنوا المساكن للعمال وتعمموا نشر التعليم ، ونود أن تشمل هذه المشروعات الاصلاحية جميع أنحـاء القـطر . ولكـننا نعلم ان كل ذلك يتطلب مـالاً وفيراً ووقتاً طويلا ، وانه لذلك لا بد من تقديم الأهم على المهم فنجعل أولا ماء الشرب خالياً من الميكروبات في جميع الجهات ونضمن وسائل المعالجة والتطبيب في كل قرية ، ونقدم للاطفال الغذاء قبل أن نفرض عليهم التعليم . بل يجب تقديم قوت الأجساد بالتغذية الكافية ، وقوت العقول بالتعليم ، وقوت النشاط بالعمل ، كل هذا للجميع وفي آن واحد . وليس ذلك لينفي وجود المثل الاعلى . لأن التاريخ الاجتماعي والسياسي والفكري ليس إلا إنعكاساً للشروط الاقتصادية . وتحقيق العدالة بين الناس يقوم خصوصاً على حياة اقتصادية أوفر عدلا . وما المثل الأعلى الا زهرة جميلة جذعها راسخ

في الحياة العملية المحسوسة .

حسن أن يجدّ القانون في مطاردة الأشرار وتأديبهم ، بيد أن السجون والعقوبات لا تخنق الغريزة الجنائية ، بل قد تقويها . لا إصلاح بدون إعداد الوسط الصالح . الجريمة مغامرة وذكاء ونشاط وقدرة . وقانون التحول هو أقدر القوانين وأفعلها في الطبيعة وفي الانسان جميعاً . فلو نحن حذقنا سر التحويل بالتربية وبالوسط استخرجنا من شخصيات المجرمين شخصيات عظيمة باسلة .

عدلوا برامج الدراسة ، فبرامج الدراسة كالقوانين مثقلة بالجثث البالية ! اعتنوا بالاطفال فالاطفال هم براعم الأمل ووعود المستقبل ! حببوا اليهم طور التربية والتعليم ، مكنوهم من الاستفادة وهم يلهون ويلعبون ، وانشئوهم على حب الجمال وتذوق الجمال !

حسنوا السلالة المصرية جسداً وعقلاً ! وخير الوسائل لذلك ، بعد مراعاة قواعد الصحة والنظافة ، هي الخدمة العسكرية والألعاب الرياضية التي هي كذلك خير وسيلة لمكافحة الادمان على المسكرات . في المدن وفي الأرياف ، سوقوا الناشئة إلى ميادين الرياضة ، فتزاول الألعاب الرياضية ليس باعتبارها مهنة لكسب العيش ، بل باعتبارها لهواً مشوقا . إن أمة تتبارى شبيبتها في ميادين الالعاب الرياضية لهي أمة يجري الدم في عروقها نشيطاً ، فلا خمول فيها ولا شلل . هي الامة التي تحسن التنفس وتألف التوازن البدني والعقلي بالحرص على توازن الاعضاء والحركات . هي الامة التي تستنكف وسائل الانحطاط لانها تحس بكرامتها البدنية والادبية . هي الامة التي تعتمد على نفسها وتنشأ على روح الزمالة الصريحة والمباراة النبيلة . هي الامة الشجاعة ، وجيشها هو الجيش القوي المقدام . وهي بكل ذلك سائرة حتما إلى مزيد من العافية والجمال الحسي والأدبي .

أيهاالسادة والسيدات

إن العالم لفي اضطراب لم يعرف له التاريخ من قبل مثيلا . أخطار عديدة تهدد الجميع . ولكن الشخصية القوية يرهفها الخطر، ويحفز مواهبها ، فلا تطيل التلمس والمحاولة بل تهتدي بسرعة إلى أنجع الوسائل لقضاء حاجتها ، وكلما صادفت نجاحاً زادت ثقة بنفسها ، واستسلمت لنبيل الانفعالات ، فأقبلت عليها نفحات الالهام من روح الله ، من أغوار الوراثات ، من مستودعات الاماني والاختبارات ، من مستودعات الحضارة الحقة والانسانية الحقة .

لقد أثبتت مصر وجودها مرة في المسافة والزمن فكانت مهد الحضارة . وها هي ذي الآن حيال تطور عظيم يشمل جميع النواحى . إن مصر الحديثة فتية بعمر نهضتها ، فتية بآمالها ، فتية برجالها وبنسائها ، فتية بجهودها ، فتية بشبانها ، فتية بمليكها ! ولقد أضافت الى خميرة مجدها القديم خميرة حديثة مقدسة كونتها دماء الشهداء . ففي مصر من الحيوية المتجمعة ما يكفي لتثبت وجودها مرة أخرى بحضارة جديدة وازدهار جديد .

مى

تحية الربيع(١)

يا للكهف الفظيع وقد طغت في أجوائه قوات الشقاء . وسُدّت في جوانبه منافذ الافلات والضياء . وكأنه قد ثقلت عليه من فوق يد الله !

بعودتك ، يا ربيع الوفاء ، تعودنا الذكريات العذاب : ذكرى عهد سالف ، ذكرى صباح منصرم . ذكرى أمل قديم ، ذكرى هناء مقيم ! ثم نفكر حيالك في الليل المقبل . في الغمّ المدلهم . في الموت المهاجم . في العمر الفاني ! وأمام عيوننا الملتهبة يمّر تكاثف الدخان واللهيب كأنما هو يذيع أحكام القدر !

أجل تستعد لك الأرض غير انها هذه المرة تتهيأ لاحتضان الصرعى والمنكوبين . والأنهار تستعد لتصطبغ أمواهها بنجيع الدماء . والأشجار تستعد لتحنو بأفنانها على الجرحى والمصابين . والأزهار تستعد لتلثم مشوّه الأعضاء ومكلوم الأجساد . وهاوية البحر تستعد لتبتلع الكماة الصناديد : والاسماك تستعد لتتذوق لحوم الذين تغذوا على لحومها طويلاً ! والأفق يستعد ليشهد هبوط النيازك البشرية بعدانْ ألف منذ الأزل هبوط النيازك الفلكية !

الناس في انتظار ، والطبيعة في انتظار . فماذا أنت بمنتظريك فاعل ؟

أربيع العذوبة ، أيجوز في عرفك ان تكون ربيع الحنظل ؟

---

(١) عن « الهلال » ج (٤٨) ـ مارس ١٩٤٠ ـ ص : ٤٩١ ـ ٤٩٢ وقد كتبتها متأثرة بأنباء الحرب العالمية الثانية المروعة .

ربيع الأزهار والتجديد والتوليد ، أترضى لنفسك ان تكون ربيع اليتم والثكل والتشريد ؟

يا ربيع الحياة ، أتستطيع ان تكون ربيع الردى ؟

مطارق الحديد تطرق في المصانع والمعامل ،

آلات وأدوات خلقتها العبقرية تقذف بأدوات وآلات للقضاء على العبقرية

الثروات الحسية والأدبية ـ الثروات التي كونتها جهود الانسان واختباراته على كر الأحقاب ـ حُشدت لتستخدم في الفتك والتدمير. أرأيت أنوارها المشؤومة ؟ كعيون الجن في أعماق المغاور ، كأحداق الغيلان تحت شائك الأدغال ، ان بصيصها لنذير بالشر والويلات لكأن الكرة الأرضية بأسرها أمست بركان « الاتنا » وكأن جميع بني الانسان باتوا أعواناً لاله الحديد والنار « فولكان » يصوغون بأمره وسائل الهلاك !

أذكروا اللعنة القديمة فمضوا يعملون تحت وطأتها خانعين ؟ ألِتنفيذها هم في الدأب أمناء يتساوقون ؟

الى أين يتسابقون ؟ وهل أمامهم في آخر الأمر سوى ذياك الباب الواحد ؟

ومن تراهم يكونون ؟ لقد فقدوا أسماءهم. ما هم الا شلالات تيار يتدافع .

ماذا يقولون ؟ معمعة الحرب ، وقصف المدافع ، وتفجرّ القنابل ، ولعلعة الرصاص ، وانهيار المدائن ، وتفطر الجبال ، كل ذلك ذاهبٌ بما يقولون !

والجهود التي يبذلون ؟ القبر يزدرد الجهود التي يبذلون !

ريح صرصر تثنيهم جميعاً كلون الأماليد الشيوخ منهم والشبان ، النساء والاطفال ، المقاتِل والمقاتَل ، المنكوب والمواسي على السواء !

واهاً ! أية رهبة تنحدر مع روح الربيع من نجوم السماء ؟ أية نقمة يلمع سيفها في بهاء الفجر مسلولاً !

كذّبنا ، يا ربيع الجنون ، وأثبت لنا أننا لأنفسنا مضللون ، وأننا بمرض « الكآبة والأضطهاد » مصابون !

كذّبنا ، يا ربيع الحرب ، وأثبت لنا أنك ربيع السلم !

كذّبنا وأثبت أنك ، كما عهدناك ، في تأدية رسالة الحياة أمين

وإن لم تكذّبنا ، أيها الربيع ،

واذا تحتّم المضي في الحرب لتصير كلمةُ الحق حقيقةً وليشتري الانسان بالدم الغالي نعمة الحرية وغبطة الحياة .

فيا ربيع الخلان والعشاق والمتيمّين .

ما أنت هذه المرة الا ربيع الجبابرة والعمالقة والابطال !

الفهرس

كلمات وإشارات

(٢)